﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

الحِكْمَةُ الخَالِدَة

جَاوِيدَان خُرْد

(آداب العرب والفرس والهند والروم)

تَصْنِيفُ

الفيلسوف المؤرخ

الإمام أحمد بن محمد بن يعقوب

المعروف بـ « ابن مِسْكَوَيْه »

المتوفى ٤٢١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، نحمدك ربي وأنت أهل الحمد والجود والثناء، ونشكرك وأنت ذو الفضل والمن والعطاء، ونستعينك وأنت مُسْدِي النعماء، ومُسْبِغ الآلاء، ودافع البلاء، ونستغفرك ونتوب إليك وأنت الغفور لكل خَطَّاء، والسِتِّير على كل مَن أساء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ذو العز والعظمة والكبرياء، رفع شأن الدعاة والعلماء، وأعلى قدرَهم حتى وصلوا ذرى العلياء، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمداً عبد الله ورسوله، إمام الحنفاء، وسيد الأصفياء، وأفضل الدعاة، وأشرف الأتقياء، صلى الله عليه وعلى آله الشرفاء، وصحبه النجباء، الذين أشادوا بدعوتهم صروح الحضارة والمجد والبناء، والتابعين ومَن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

ما من أمّتين تباينتا وتخالفتا في الدمّ واللغة والبيئة الطبيعيّة والاجتماعيّة، ثمّ تدانى أدبهما واقترب بعضه من بعض حتى كاد يكون من حيث الصياغة والمنحى واحدًا إلى الحدّ الذي يتعذر على أحد أنْ يميّز بين أدب وآخر لولا اللغة الدالّة عليه، كالأمّتين العربيّة والفارسية، وعلى الرغم من أنَّ الاختلاف في الدمّ واللغة وطبيعة النشأة بين الأمّتين العربيّة والفارسيّة لابدّ وأنْ يترك أكبر أثر من الاختلاف في طبيعة أدب الأمّتين وصياغته ومنحاه، كان الأدب الفارسي الآريّ أقرب إلى الأدب العربي السامي من الآداب الأخرى المكتوبة باللغات الساميّة.

لعب علماء اللغة والأدب الفرس دورًا مهمًا في إغناء اللغة العربية والأدب العربي وذلك لشغفهم بالعلوم والثقافة الإسلامية شغفًا شديدًا حيث لا نجد بين الشعوب الإسلامية شعبًا يضاهيهم في ذلك، وقد بذلوا في سبيل ذلك جهدًا كبيرًا منقطع النظير في إشاعة الدين الإسلامي ونشره.

وتسنّى للغة العربيّة قبل الإسلام أنْ تعرف شيئًا غير قليل من المفردات التي تسرّبت إليها من الفارسيّة، وورد الكثير منها بألفاظها الفارسيّة في عدد كثير من الأشعار عند شعراء الجاهليّة بدوًا وحضرًا.

أمّا بعد الإسلام فيمكننا القول إنَّ اللغة الفارسيّة تطورت باعتناق أهل بلاد فارس الدين الإسلامي الحنيف متأثّرة بلغة القرآن الكريم، وكُتبت بالخطّ العربي، وإذا كان الإسلام قد حرَّر إهل بلاد فارس من الحكومات المستبدة، ففي المقابل فإنَّ أهل فارس قد قدّموا خدمات جليلة إلى الإسلام، فقد تفتّحت العبقريّة الفارسية خلال المرحلة الإسلاميّة في مختلف الميادين العلميّة والأدبيّة واللغوية، والفلسفيّة وعلم الرياضيّات والطبّ والفلك والعلوم الدينيّة، وإذا كان علماء بلاد فارس قد ألّفوا كتبهم باللغة العربيّة، فقد طعّموها بلغتهم، وأنتجوا باللغة المطعّمة هذه ودوّنوا بها كتبهم في المجالات المختلفة، وهنالك عدد لا يُحصى عدُّه من الفارسيين ممن أبدعوا وبرعوا وكتبوا باللغة العربيّة علمًا وشعرًا ونثرًا وألّفوا في علوم اللغة العربيّة كالصرف والنحو والبلاغة وغيرها.

أمّا في الأدب فقد تبادل الأدبان العربي والفارسي المواضيع والأساليب، وأعطت الفارسيّة الأدب العربي عمقاً بالمعنى وجمال التصوير وعمق الحكمة واتساع أفق الرؤيا، وبالمقابل فقد أعطت العربيّة الفارسيّة علم العروض والبديع.. وغيرها من فنون الأدب والشعر.

والجدير ذكره أنَّ تيار الترجمة من الفارسيّة كان من أقوى التيارات التي رفدت الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ولهذا أسباب كثيرة أبرزها ذلك النفوذ السياسي الذي كان للفرس في الدولة العبّاسيّة، والذي تبعه امتزاج في الجنس واللغة والثقافة والحياة الاجتماعيّة بين العرب والفرس لم يتهيّأ له أنْ يتمّ بين العرب وأمّة أخرى من الأمم التي دخلت في دين الله.

يبقى الدور الأهمّ الذي قام به الفرس، وما اتّفق عليه الباحثون والمؤرّخون، هو الدور الذي أدّوه في نجاح الثورة التي أسقطت الدولة الأمويّة، وأدَّت إلى قيام دولة بني العبّاس وكان لا بدّ لهؤلاء من أنْ يشاركوا في بناء الدولة التي وضعوا أساسها، وأظهروها إلى الوجود، وطبيعي أنْ يُسهِموا إلى حدّ كبير في وضع الخطط، والمبادئ

التي ستنتهجها، وأنْ يضعوا الصبغة الفارسيّة على كثير من مؤسّساتها الإداريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وساعدهم على ذلك نقل عاصمة الخلافة إلى بغداد القريبة من بلاد فارس، وفي هذه الفترة كان كثير من الفرس يتولّى مناصب قياديّة في جيش الدولة العباسية، وكان أكثر وزراء هذه الدولة من الفرس، وكذلك استأثر من كان منهم يجيد العربيّة والبهلويّة بمنصب الكتابة، ويكفي أنْ نُشير هنا إلى أسماء مثل عبد الله بن المقفّع، وسهل بن هارون، وأحمد بن يوسف وغيرهم، وقد بلغ النفوذ السياسي لهذه النخبة الفارسية في دولة بني العبّاس حدًّا جعل الجاحظ يقول "دولة بني العبّاس أعجميّة خراسانيّة، ودولة بني مروان عربيّة أعرابيّة".

وقد شهد القرنان الثاني والثالث الهجريّان اهتمامًا عديم النظير أَوْلَتْه الأمّة الإسلاميّة للحركة العلميّة والفكريّة. وإذا كانت بواكير هذا الاهتمام قد حدث في عهد الصحابة والتابعين، فإنه يمكن القول إنَّ الدولة العباسية ولا سيّما في القرن الأوّل من عمرها قد تفوّقت في هذا المضمار حيث أسدى خلفاء بني العبّاس ووزرائهم البرامكة الفرس اهتمامًا بالحركة العلميّة وشجعوا العلماء والمترجمين وهكذا تحوّلت ثقافة بلاد فارس إلى ثقافة العرب المسلمين، وقد تمَّ هذا التحوّل من طريقين طريق النقل والترجمة، الذي برز فيه ابن المقفّع وآل نوبخت، وطريق ثان هو تعرّب شعوب الشرق وانتقالهم إلى العربيّة حاملين إليها موروثاتهم وفنونهم ومعارفهم.

وقد كان للنفوذ السياسي الفارسي في دولة بني العبّاس أثر بارز في تحديد طبيعة الصلات الثقافيّة بين هذين الشعبين في وقت مبكر. حيث كانت الكتب التي موضوعها السياسة الملوكيّة عند الفرس أولى الكتب التي ترجمت الى العربيّة من الآثار الأجنبيّة في الأدب والسياسة، فوُضعت في متناول حكّام العرب وقوادهم ثمار تجارب عديدة في الحكم والسياسة، وأصنافًا من العلوم والآداب كانت تجمع معارف العصر، وشطرًا كبيرًا من التراث الحضاريّ الانساني، فكانت هذه التراجم أقدم كتب وجدت في اللغة العربيّة في تلك الفترة.

وأما كتاب (آداب العرب والفرس) أو (الحكمة الخالدة) أو (جاويدان خِرَد) لمؤلفه الفيلسوف والمؤرخ الإسلامي الكبير أبي علي أحمد بن مِسْكَوَيْه يمثل معطى آخر من المعطيات الكثيرة الغزيرة للمسلمين في مجال الحضارة والفكر الإسلامي الأصيل.

قال مسكويه عنه : «... فهذه جمل نحكمها قبل تفصيلها بالجزئيات، ولولا أنّا قد أحكمنا لك الأصول كلَّها في كتابنا الموسوم بتهذيب الأخلاق، لأوجبنا لك إيرادها هاهنا، ولكن هذا كتاب غرضنا فيه إيراد جزئيات الآداب بمواعظ الحكماء من كلّ أمّة ونحلة، وتبعنا فيه صاحب كتاب جاويدان خرد كما وعدنا به في أوّله، ولأنّ موضوع الكتاب الأوّل كتاب فارسيّ، وجب أن نبدأ بآداب الفرس ومواعظهم، ثمّ نتبعها بآداب الأمم الآخرين ».

فإذن، القسم الأوّل للكتاب بنى على جاويدان خرد من تأليف قدامي الفرس، والقسم الثاني هو آداب الأمم الأخرى، بدأها بآداب الفرس المتأخرين (إلى ما قبل الإسلام). وأمّا آداب الأمم الأخرى فهي: آداب الهند، آداب العرب، آداب الروم (منها لغز قابس)، حكم الإسلاميين.

فهو كتاب قام فيه مؤلفه بجمع واستعراض الحكم والأمثال المأثورة عن شعوب وأمم الأرض، وخصوصًا تلك التي كان لها باع طويل في هذا المضمار كالفرس والهنود، والعرب، والروم.

ذلك لأن الشرق يُعد موطن الأمثال والحكم القصيرة والكلمات العامرة بمعاني الحكمة في الحياة، فهو يقدس الكلمة لكونها تمتلك سحرًا خاصًا في الروح الشرقية تستهويها وتجد فيها العزاء عن الواقع الأليم الذي تحيا فيه تاريخيًا.

فالاستبداد الذي كان يمثل نوع الحكم السائد في البلاد الشرقية لم يجد متنفسًا له لدى المستضعفين في الأرض، والمغلوبين على أمورهم إلاّ عن طريق هذه الكلم القصار يرسلونها كالسهام المسمومة في صدور الحكام.

ومن هنا كثرت النصائح المتصلة بالحكام والولاة والملوك، تارة تكون على هيئة مواعظ توجه إليهم ليهدّؤوا من طغيانهم ويراعوا جانب الرعية البائسة، وأخرى على شكل حكم صادرة من هؤلاء الملوك والحكام أنفسهم يتظاهرون من خلالها بالتفكير عما تجترحه أيديهم من مآثم في حق الرعية.

ونحن واجدون في هذا الكتاب كثيرًا من الحكم المنسوبة إلى الملوك وإلى بعض ملوك الفرس بخاصة مثل كسرى أنوشروان، وكسرى قباذ ووزرائهم، وهي من ذلك النوع من الأدب العام الشائع في هذه الأوساط، ومما أُلّف بعد زمان أصحابها بأجيال طوال.

وقد كانت الدواعي إلى جمعها، وتقديمها من خلال تلك المؤلفات كثيرة منها أنها موجهة في حقيقتها إلى الحكام المعاصرين للمؤلفين الذين كانوا يسومون رعيتهم سوء العذاب، وقد قدمها الجامعون لها إسداء للنصح، وتوجيهًا لهم وجهة الخيرة، وطمعًا في إنابتهم إلى الرشد والهدى.

وقد حاولنا جاهدين إخراج هذا الكتاب الرائع في أبهى صورة، وندعو من الله التوفيق.

وصلَّى الله وسلم على سيّد البلغاء من الناس مُحمّدِ بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يَوْم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

ترجمة المؤلف
الشيخ الإمام الحكيم ابن مِسْكَوَيْه

اسمه ونسبه:

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مِسْكَوَيْه المؤرخ، والفيلسوف، والطبيب، والأديب. ويطلق عليه اسم أبي علي الخازن، أو صاحب تجارب الأمم.

اسمه بالفارسية (مشكويه) وتعريبه هو (مسكويه) والاسم مأخوذ من اسم تابع من توابع الري، إلا أن هناك خلطاً في اسم أبيه، فهو نفسه يقول في بعض كتبه إنه (أحمد بن محمد مِسْكَوَيْه) ومرة أخرى يقول: (أحمد بن يعقوب مِسْكَوَيْه)، وقد أدى هذا إلى عدم تثبت المؤرخين المحدثين، بل والمعاصرين له فسموه (ابن مِسْكَوَيْه) معتبرين مِسْكَوَيْه اسم أبيه أو جده. إلا إن أبا علي في كثير من كتبه، مثل : العقل والمعقول، والشوامل، ورسالة في اللذات والآلام، ومقالة في النفس والعقل، يقول إنه (أبو علي مِسْكَوَيْه)، وكذلك أيضًا: كان يعرفه بعض معاصريه، مثل أبي حيان التوحيدي، وأبي بكر الخوارزمي، والثعالبي.

أوصافه وألقابه:

لقد وصفه المترجمون له من القدماء والمتأخّرين بقولهم : الحكيم، المتكلَّم، الفيلسوف، الأخلاقي، المؤرّخ، الرياضيّ، المهندس، اللغوي، الأديب، الشاعر، الكاتب، الذكيّ، الناقد، النافذ الفهم، الكثير الاطلاع على كتب الأقدمين ولغاتهم المتروكة. كما كان من ألقابه، علاوة على لقب مسكويه : الخازن، والنديم، كما لقّب بالمعلم الثالث، مع أنّ اللَّقب كان قد ترشّح له ابن سينا أيضًا. ويقال: إنّ مسكويه لقّب بالمعلم الثالث لدوره الفذّ الذي لعبه في إعادة بناء الفلسفة اليونانيّة في فرعها العملي، أي في فلسفة الأخلاق، وجمع أشتاتها وتمحيصها وترصيص أركانها، بصورة لم يزد عليها أيّ مصنّف صنّف في فلسفة الأخلاق حتى زماننا هذا. أضف إلى ذلك أنّ أبرز كتاب في الأخلاق، ظهر في اللغة الفارسيّة، هو كتاب : أخلاق ناصري، الذي ليس إلَّا ترجمة لكتاب مسكويه : تهذيب الأخلاق، نقله إلى الفارسيّة نصير الدين الطوسي وكان معجبًا بمسكويه وكتابه إعجابًا كبيرًا.

إنّ هذه الألقاب والنعوت التي لقّب بها مسكويه ونعت، لهى دليل على تعدّد عناصر شخصيّته وسعة آفاقه في العلم والحكمة، تعزّزه أدلَّة أخرى تتمثّل في تلك الآثار الكثيرة القيّمة التي تركها لنا.

مولده:

لا يعرف شيئًا عن تاريخ ولادته، ولكن بما أنه يشير إلى كثرة تردده على أبي محمد المهلبي، وزير معز الدولة البويهي، وأنه استقى معلوماته عنه سنة ٣٢٠هـ وما بعدها، وفي موضع آخر يقول: إنه كان مصاحبًا للمهلبي سنة ٣٤١ هـ، فبديهي أن عمره يومئذ لم يكن ليقل عن عشرين سنة، فلابد أن تكون ولادته في حوالي سنة ٣٢٠هـ، ويكون قد توفي وهو في حوالي المائة سنة من عمره.

حياته:

هو فيلسوف ومؤرخ وشاعر فارسي بارز من أبناء مدينة الري في إيران الحالية. كان ناشطاً في الميدان السياسي زمن الدولة البويهية، حيث كان موظفاً رسمياً في تلك الدولة وعمل في بغداد وأصفهان ومدينة الري.

وعن سنوات حياته الأولى لا يوجد ما يعتمد عليه، ولكن يبدو أنه لم يقض سنوات حداثته في راحة وطمأنينة، وهو يذم أسلوب أبويه في تربيته، والظاهر أن أباه كان يحمله على حفظ الشعر الجاهلي وروايته، وأنه كان في أوائل شبابه كثير اللهو، ولكنه سعى بعد ذلك إلى تهذيب نفسه ونجح فيه.

كانت لمِسْكَوَيْه علاقات وثيقة مع وزراء آل بويه وأمرائهم في شؤون الديوان والمكتبات والأمور المالية، وفي منادمتهم ومصاحبتهم، والأخذ والعطاء في ميدان العلم والأدب، ولهذا أمضي معظم سنوات حياته في مدن متفرقة مثل، الري، وبغداد، وشيراز، وأصفهان، وأحسب أن طلب العلم كان له دخل في تلك الرحلات.

كان مِسْكَوَيْه من الري أصلا، ولعله قضى العقدين الأولين من عمره فيها، ثم التحق بالبويهيين في بغداد، وأمضي نحو اثنتي عشرة سنة مصاحبًا ونديمًا خاصًا لأبي محمد المهلبي، وزير معز الدولة.

ثم قضى سبع سنوات بصحبة أبي الفضل ابن العميد، وزير ركن الدولة البويهي يدير مكتبته في الري. والظاهر أنه بعد ذلك دخل في خدمة أبي الفتح ابن العميد وزير

ركن الدولة ومؤيد الدولة. وبعد مقتل أبي الفتح رفض مِسْكَوَيْه خدمة الصاحب بن عباد، الوزير الجديد لمؤيد الدولة، الذي كانت بينهما منافسة. وحتى بعد موت الصاحب ابن عباد لم يغفر له وقدح فيه في شعره.

ثم التحق أبو علي بعضد الدولة، سلطان آل بويه الكبير، في شيراز وأصبح أحد ندمائه ورسله، وعهد إليه بإدارة مكتبته وبيت ماله، وبقي في منصبه هذا حتى مات عضد الدولة. كانت تلك المكتبة تجمع جميع مصنفات ذلك الزمان، وإلى هذا يشير مِسْكَوَيْه، كما ألف باسمه كتاب تجارب الأمم، وفي المقدمة أشار إلى كونه من موظفيه. وكان عضد الدولة قد عين مكانا في قصره وبالقرب منه لجمعية الحكماء والفلاسفة ليجروا مناقشاتهم العلمية فيه، وكان هو نفسه من أعضاء الجمعية البارزين.

وإذ تسلم صمصام الدولة الحكم بعد أبيه ازدادت علاقة مِسْكَوَيْه به، وكان يحضر المجالس العلمية التي كان يعقدها ابن سعدان، وزير صمصام الدولة، حيث كان يحضر أيضا أشخاص مثل ابن زرعة، وابن الخمار، وابن سمح، والقومسي، ونظيف الرومي، ويحيى بن عدي وعيسى بن علي. وبعد صمصام الدولة، ظل مِسْكَوَيْه في خدمة رجال الدولة الآخرين في بلاط الري. في أول الأمر كان هو وجمع آخر من العلماء، مثل ابن سينا والبيروني، في خدمة خوارزم شاه، ولكنه رفض الالتحاق بخدمة السلطان محمود الذي كان قدطلب تلك الجماعة من خوارزم شاه، إلا ان هذا ليس مؤكدا ولا يعدو ان يكون مجرد أقاويل.

أمضي أبو علي أيامه الأخيرة في أصفهان وفيها توفي ودفن في محلة تسمى (خواجو)، وقيل: إنه دفن في محلة اسمها درب جناد أو جناب.

شيوخه وتلاميذه:

لا يعرف الكثير عن أساتذة مِسْكَوَيْه، فهو يقول في التهذيب: في شبابي شجعني أبي لدراسة الأدب والشعر.

وفي مكان آخر يقول: إنه قرأ استطالة الفهم للجاحظ.

يقول ابن حيان في الإمتاع: إن مِسْكَوَيْه أبدى رغبة شديدة في الكيمياء وتتلمذ فيها على أبي الطيب الكيميائي الرازي، كما شغف بكتب محمد بن زكريا الرازي وجابر بن حيان. وكانت له التفاتات نحو التاريخ فدرس تاريخ الطبري على ابن كامل الذي كان

من أصحاب محمد بن جرير الطبري. ودرس علوم الأوائل (اليونان) عند ابن الخمار، وقد برع في هذه العلوم، و خاصة في المنطق والطب حتى لقب ببقراط الثاني.

بعض المؤرخين يعتبرون مِسْكَوَيْه أستاذ أبي حيان، ودليلهم في ذلك كتاب الهوامل والشوامل الذي أجاب فيه مِسْكَوَيْه عن أسئلة ابن حيان، ودلائل أخرى، مثل رسالته ماهية العدل أو مقالته في ماهية الكيمياء، إذ إنهما أيضًا ردود أسئلة ابن حيان، التي يوردها بلحن التلمذة.

معاصروه:

كانت لأبي علي علاقات وطيدة مع الحكماء والعلماء والأدباء في عصره، من هؤلاء كان أبو سليمان السجستاني الذي اعتبر مِسْكَوَيْه من كبار علماء العصر ومدحه كثيرًا، كما جاء في كتابه "صوان الحكمة" الذي ألفه في حياة مِسْكَوَيْه عن رجال العلم والحكمة.

كان تعامل أبي حيان التوحيدي مع مِسْكَوَيْه، مثل تعامله مع سائر معارفه العلماء، متناقضًا، فمرة هو مسرور ومادح، وأخرى هو غير مسرور وقادح، متهمًا مِسْكَوَيْه بالتقلب والبخل... وفي الوقت نفسه يصف شعره بالجمال وألفاظه بالطهارة، ويعتبره «كنز العلوم العجيبة وأسرار الحكمة».

ومن المقربين إليه كان أبو بكر الخوارزمي. أما بديع الزمان الهمداني الذي خاصم معاصريه، بمن فيهم الخوارزمي، أحنى رأسه احترامًا لمِسْكَوَيْه وتعظيمًا ولم يهاجمه.

من معاصري مِسْكَوَيْه الآخرين في النصف الثاني من عمره كان ابن سينا، الذي ولد يوم كان مِسْكَوَيْه في الخمسين من عمره، يقولون: إن ابن سينا لم يجد مِسْكَوَيْه سريع الفهم، وفي يوم جمعهما مجلس حيث كان طلاب مِسْكَوَيْه حاضرين، فرمى ابن سينا جوزة نحو مِسْكَوَيْه وقال له: «احسب مساحتها!» فألقي إليه مِسْكَوَيْه رسالة له في الأخلاق وقال :

ابدأ أنت بتهذيب أخلاقك أولاً حتى أقوم أنا بحساب مساحة الجوزة، لأنك أحوج إلى تهذيب أخلاقك مني إلى استخراج مساحة الجوزة!

مؤلفاته:

يذكر المؤرخون أن له مؤلفات كثيرة تشمل الكتب والرسائل والمقطوعات الشعرية العربية والوصايا، ولكنها لم تصل إلينا جميعها.

المطبوع منها يشمل :

١ - تجارب الأمم، وهو أشهر كتب أبي علي التاريخية، وتوجد منه عدة نسخ، كما طبعت فصول منه.

٢ - ترتيب السعادات ومنازل العلوم. طبع هذا الكتاب في مصر تحت عنوان السعادة (١٩٢٨)، وطبع في طهران تحت عنوان ترتيب السعادات (١٣١٤هـ) في حاشية مكارم الأخلاق للطبرسي، وفي السنة نفسها طبع ملحقا بكتاب المبدأ والمعاد للملا صدرا.

٣ - تهذيب الأخلاق وطهارة الأعراق في فلسفة الأخلاق، وقد نشر مرات عديدة في الهند والقاهرة واسطنبول وبيروت. وهو يبين نظريات مِسْكَوَيْه في الحكمة العملية.

٤ - الحكمة الخالدة الذي ينسب إلى هوشنگ پيشدادي، وقد ترجمه حسن بن سهل إلى العربية، وأكمله مِسْكَوَيْه. ويشتهر هذا الكتاب باسم آداب العرب والفرس، ويدور حول حكمة الإيرانيين، والهنود، واليونانيين والعرب.

٥ - بعض الرسائل والمقالات القصيرة في الفلسفة، نشر بعضها في دمشق والقاهرة وليدن.

٦ - رسالة في دفع الغم من الموت (لماذا أخاف الموت) هذه الرسالة جزء من تهذيب الأخلاق لمِسْكَوَيْه، ولكن مرن نسبها إلى ابن سينا ونشرها ضمن مجموعة رسائل الشيخ الرئيس. وأشار شيخو إلى هذا الخطأ في مجلة المشرق. وقد نشر نص هذه الرسالة وترجمتها في قم سنة ١٣٢٧هـ.

٧ - الفوز الأصغر ويحتوي على ثلاث مسائل، ونشر في بيروت (١٣١٩ هـ) والقاهرة (١٣٢٥ هـ) ونشر في طهران مع فوز السعادة (١٣١٤ هـ).

٨ - فوز السعادة، وهو، كما يقول الشيخ آقا بزرگ في الذريعة، غير ترتيب السعادات.

٩ - لغز قابس (لوح قابس) هذا في الواقع جزء من كتاب الحكمة الخالدة، وقد طبع عدة مرات، منها في مدريد (١٧٩٣م) وفي باريس (١٨٧٣م) وفي الجزائر (١٨٩٨م).

١٠ - الهوامل والشوامل. (الهوامل) هي مجموعة أسئلة أبي حيان التوحيدي، والشوامل هي أجوبة مِسْكَوَيْه عنها. وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م في القاهرة برعاية أحمد أمين وأحمد صقر.

مؤلفاته الخطية:

١ - رسالة في ذكر الحجر الأعظم، في الكيمياء. توجد نسخة منه في مكتبة جامعة طهران.

٢ - رسالة في الكيمياء، توجد نسخة منه في مكتبة أصغر مهدوي الخاصة.

٣ - رسالة في ماهية العدل، النسخة الوحيدة لهذا الكتاب موجودة في مكتبة آستان قدس رضوي، تحت العنوان الكامل : رسالة الشيخ أبي علي أحمد بن يعقوب مِسْكَوَيْه إلى علي بن محمد أبي حيان الصوفي في ماهية العدل.

٤ - كتاب الأشربة، في العقاقير الطبية. مختارات منه موجودة في مكتبة صائب في أنقرة.

٥ - كتاب في ترتيب الباجات من الأطعمة (كتاب الطبيخ) توجد نسخة منه في مكتبة أحمد ثالث باسطنبول.

٦ - الكنز الكبير، في الكيمياء. توجد نسخة منه في مكتبة بشير آغا.

٧ - نديم الفريد (أنس الفريد) القندوزي الحنفي ينقل عن هذا الكتاب احتجاج المأمون في قضية ولاية عهد الإمام الرضا.

وهناك من مؤلفاته المفقودة التي لم يعثر عليها، منها:

١ - رسالة إلى بديع الزمان الهمداني، وهي نظم ونثر، جوابا عن رسالة بديع الزمان الاعتذارية.

٢ - مجموعة شعرية تضم أمثلة لشعر أبي علي.

٣ - عهد أبي علي مِسْكَوَيْه مع نفسه الذي يذكره الحموي تحت عنوان وصيته.

٤ - وصية مِسْكَوَيْه، وهي نصائح يقدمها للباحثين عن الحكمة، وهي موجودة في صوان الحكمة لأبي سليمان. كما أن أبا علي قد ذكرها في الحكمة الخالدة في فصل حكمة حكماء الإسلام، من دون ذكر اسمه.

ومن مؤلفاته المفقودة الأخرى كتاب الفوز الأكبر.

أفكاره الفلسفية:

بذل أبو علي جهوده في أكثر ميادين الحكمة النظرية والعملية، وخاصة في فن تهذيب الأخلاق، بحيث أن بعضهم وصفه بـ"المعلم الثالث". كان ينظر إلى التاريخ بصفته مختبراً للفلسفة العملية، وهو متأثر أكثر من غيره بأفكار أرسطو وأفلاطون، فهو مرة أرسطوي ومرة أفلاطوني، بحسب الموضوع والبحث الفلسفي. في كتابيه تهذيب الأخلاق والفوز الأصغر يشير أيضا إلى سقراط وجالينوس وفيثاغورس وفرفريوس وبرقلس وينقل عنهم وينقدهم، ولكنه كان قليل الاهتمام بالرواقيين.

وعلى صعيد الإسلام فقد عني بفلاسفة مثل الكندي وأبي عثمان الدمشقي وأبي الحسن العامري، كما كان يستند إلى القرآن والحديث. وفي الحكمة النظرية كتب كتابين: الفوز الأصغر والفوز الأكبر، وهذا الأخير مفقود، ولكن يظهر أنه كتِب على غرار الفوز الأصغر بتفصيل أوسع.

ويرى إقبال اللاهوري أن فلسفة ما بعد الطبيعة عند ابن مِسْكَوَيْه هي أكثر انتظاما من فلسفة الفارابي. فالقسم الأول من الفوز الأصغر في عشرة فصول يدور حول إثبات الصانع. والقسم الثاني أيضًا في عشرة فصول مختصرة حول معرفة النفس وفي المعاد. القسم الثالث من الكتاب في عشرة فصول أيضًا وتدور حول النبوة.

أما في الحكمة العملية فلمِسْكَوَيْه ثلاثة كتب مهمة: تهذيب الأخلاق وترتيب السعادات والحكمة الخالدة. إن الهدف من تهذيب الأخلاق هو الوصول إلى الإنسان الخير بالتعلم المستمر حتى يصبح ملكة من ملكات النفس.

إسهاماته في الطب:

من الميادين الأخرى التي ولجها أبو علي هو ميدان الطب. يقول الحموي: إن له كتابًا في هذا الباب باسم الجامع، ويعتقد آخرون أنه كتبه على غرار كتاب الجامع الكبير المعروف بالحاوي لمحمد بن زكريا الرازي. وله كتاب آخر باسم في الأدوية المفردة.

وكتابه الآخر هو تركيب الباجات من الأطعمة أو كتاب الطبيخ، وكتابه الثالث هو كتاب الأشربة.

إسهاماته في الكيمياء:

يقول أبو حيان التوحيدي: إن مِسْكَوَيْه قد بذل جهودًا كبيرة في هذا الباب واشتغل زمانًا طويلاً مع أبي الطيب الكيميائي الرازي. وله في هذا الميدان رسالة في الكيمياء، وذكر الحجر الأعظم، ولعله يقصد به حجر الفلاسفة أو الإكسير الأعظم. وثمة رسالة باسم رسالة الحكمة النادرة تنسب اليه أيضاً.

وفاته:

عاش مسكويه طويلاً حتى توفي في ٩ صفر سنة ٤٢١ هـ.

مصادر الترجمة:

إرشاد الأريب (المعروف بمعجم الأدباء) لياقوت، ج ٥، ص ٥ ١٩.

الأعلام لخير الدين الزركلي، ج ١، ص ٢٠٤.

الإعلان والتوبيخ للسخاوي، ص ٣٩ (مسكويه).

الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي، ج ١، ص ٣٢.

تاريخ آداب اللغة العربيّة لجرجي زيدان، ج٢، ص ٣٦٧.

تاريخ الأدب العربي لبروكلمن، ج ٦، ص ١١٩.

تاريخ حكماء الإسلام للقفطي، ص ٣٣١.

تاريخ فلاسفة الإسلام تأليف لطفي جمعه؛ ص ٣٠٤ ٣٢٠.

تاريخ الفلسفة في الإسلام، تأليف دي بور، ص ١٥٨ ١٦٣.

تتمة صوان الحكمة للبيهقي، ص ٢٨ ٢٩.

دائرة المعارف الإسلامية، تعريب محمد ثابت فندي وأصحابه، ج ١، ص ٢٧٧ (ابن مسكويه).

طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ج ١، ص ٢٤٥.

الفهرس التمهيدي، ص ٢٩١، ٤٦١.

فهرس دار الكتب المصرية، ج ٨، ص ٨٧.

فهرس المخطوطات المصورة لفؤاد السيد، ج ١، ص ٢٣٧.

كشف الظنون لحاجي خليفة:
ج١، ص ٤٣، ٥١٤.
ج٢، ص ١٣٠٣، ١٤٣٦، ١٩٣٧.
معجم أدباء الأطباء للخليلي، ج١، ص ٦٥، ٣٧.
منتخب صوان الحكمة، سلسلة جيب التذكاريّة، المجلد السابع، ص ٣٠.
معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ج٢، ص ١٦٨.
النثر الفني لزكي مبارك، ج٢، ص ١٤٥ ١٥٨.
هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي، ج ١، ص ٧٣ (ابن مسكويه).

وصف النسخ الخطية

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب الرائع على نسختين خطيتين:

النسخة الأولى: وهي نسخة محفوظة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية بالمملكة العربية السعودية برقم (٣٩٥٧)، وهي نسخة جيدة كتبت بخط نسخ عادي.

النسخة الثانية: وهي نسخة محفوظة في الفاتيكان برقم (٤٠٨ عربي) كتبت سنة ٧٤١ اسمه فيها "جاويذان خرد".

عملنا في الكتاب

سار عملنا في الكتاب وفق المنهج التالي:

١- نسخ المخطوط نسخًا علميًا دقيقًا من نسخة جامعة ميشيغان.

٢- مطابقة النص ومراجعته مرتين.

٣- التعليق على المواضع التي تحتاج زيادة إيضاح، أو بسط مسألة، أو بيان مشكل.

٤- ترقيم النص حسب قواعد الترقيم الحديثة.

٥- صنع ترجمة وافية للإمام الفيلسوف المؤرخ ابن مسكويه.

٦- صنع مقدمة حول آداب العرب والفرس، وإسهامات علماء فارس في الثقافة العربية.

٧- عمل فهارس تفصيلية لأبواب الكتاب.

وأخيرًا فهذا هو جهد المقل، والمرجو ممن يطلع على كتابنا فيجد فيه عيبًا أن يبادرنا بالنصيحة، والتصويب، فكلٌّ معرض للخطأ، ولا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المحقق

صور النسخ الخطية

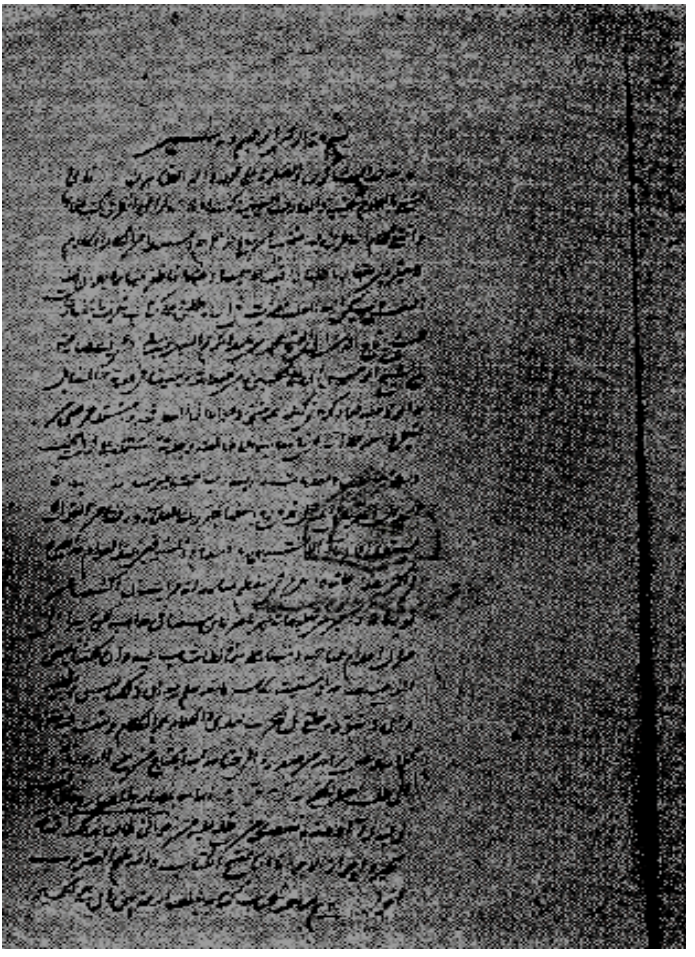

صور النسخ الخطية

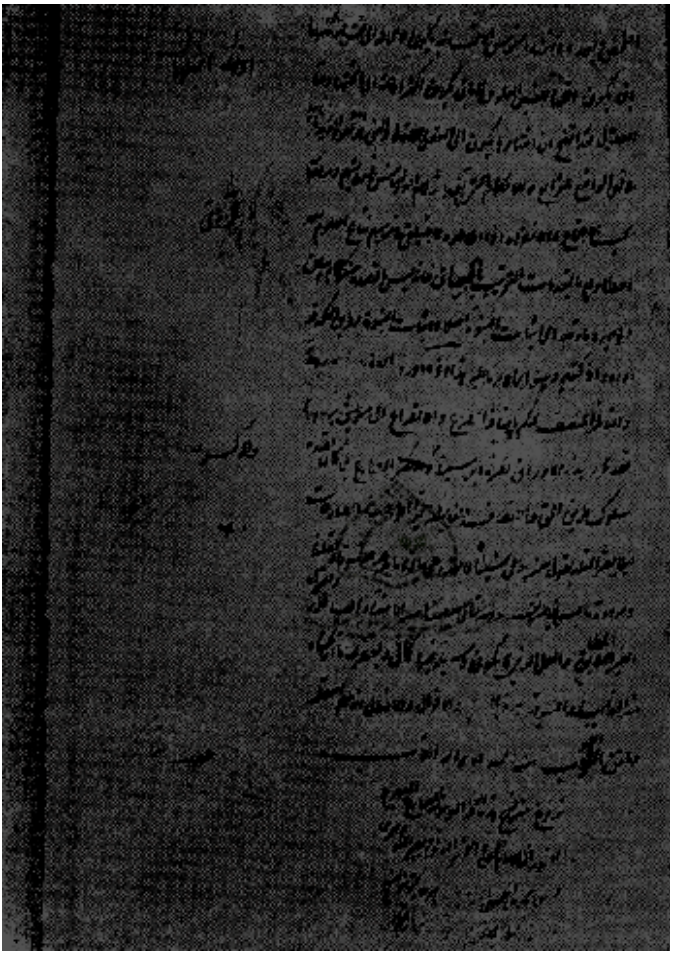

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه العون[١]

قال أحمد بن محمد بن يعقوب مِسْكَوَيْه:

بعد حمد الله والثناء عليه بما عليه هو أهله والصلاة على محمد النبي وآله الطيبين الأخيار:

إني كنت قرأت في الحداثة كتابًا لأبي عثمان الجاحظ[٢] يعرف بـ "استطالة الفهم" يذكر فيه كتابًا يعرف بـ "جاويدان خرد" ويحكي كلمات يسيرة فيه، ثم يعظمه تعظيمًا

---

(١) جاء في أول مخطوط الفاتيكان: (نقله أوشهنج الملك لخلفه كنجور بن إسفنديار وزير ملك إيران، من اللسان القديم إلى الفارسيّ، ونقله إلى العربية الحسن بن سهل أخو ذي الرياستين، وتممه أحمد بن مسكويه إذ أضاف اليه حكم الفرس والهند والعرب والروم).

(٢) عمرو الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ): هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، البصري، المعتزلي، المعروف بالجاحظ (أبو عثمان) عالم، أديب، مشارك في انواع من العلوم.

ولد بالبصرة، وسمع من ابي عبيدة والاصمعي وابي زيد الانصاري، واخذ النحو عن الاخفش ابي الحسن، واخذ الكلام عن النظام، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد، وتنسب إليه الفرقة الجاحظية، واقام مدة ببغداد.

من تصانيفه الكثيرة: الحيوان في سبعة اجزاء، البيان والتبيين، الطبائع، النبئ والمتنبئ، وسلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف.

وأما كتاب (استطالة الفهم) لم أقف له على عين ولا أثر في تآليفه التي صردها في مقدمة الحيوان ولا في الثبت الذي أورده ياقوت في الأدباءِ. بلى ذكره الخفاجي في طراز المجالس (ص ١٠٨) كما ذكر جاويذان خرد.

انظر ترجمته في: عيون التواريخ ٦: ١٨٢ / ٢ - ١٨٦ / ٢، تاريخ دمشق ١٣: ٢٠٢ / ٢ - ٢٠٥ / ٢، سير النبلاء ٨: ١٤٠، ١٤١، كتاب في الادب ٧٦ / ٢، عام ٤٣٠٠، ظاهرية، فهرس المؤلفين بالظاهرية، كتاب في التراجم ٨ / ٢، عام ٤٦١٦، ظاهرية (ط) تاريخ بغداد ١٢: ٢١٢ - ٢٢٠، وفيات الاعيان ١: ٤٩٠ - ٤٩٢، الكامل في التاريخ ٧: ٧١، معجم الادباء ١٦: ٧٤ — ١١٤، لسان الميزان ٤: ٣٥٥ -

يخرج فيه عن العادة في تعظيم مثله. فحرصت على طلبه في البلدان التي جلتُ فيها، حتى وجدته بفارس عند موبذان موبذ.

فلما نظرت فيه وجدت له أشكالًا ونظائر كثيرة من حكم الفرس والهند والعرب والروم، وإن كان هذا الكتاب أقدمها وأسبقها بالزمان - فإنه وصية أوشهنج لولده وللملوك من خلفه، وهذا الملك كان بُعيد الطوفان، وليس يوجد لمن كان قبله سيرة ولا أدب يستفاد.

فرأيت أن أنسخ هذه الوصية على جهتها، ثم ألحق بها جميع ما التقطته من وصايا وآداب الأمم الأربع، أعني: الفرس والهند والعرب والروم - ليرتاض بها الأحداث، ويتذكر بها العلماء ما تقدم لهم من الحكم والعلوم. والتمست بذلك تقويم نفسي ومن يتقوم به بعدي، وغرضي الأقصى فيه الأجر والمثوبة من الله - عز وجل - وهو ولي الخيرات، والمثيب على الحسنات، ولا قوة إلا بالله.

=

٣٥٧، نزهة الالبا ٢٥٤ - ٢٥٩، تذكرة الحفاظ ٢: ١١١، اللباب ١: ٢٠٢، البداية ١٢: ١٩، ٢٠، بغية الوعاة ٣٦٥، مرآة الجنان ٢: ١٥٦، ١٦٢ - ١٦٦، مختصر دول الاسلام ١: ١١٨.

[وصية أوشهنج[١] لولده وللملوك من خلفه]

قال أوشهنج:

من الله المبتدأ، وإليه المنتهى، وبه التوفيق، وهو المحمود.

من عرف الابتداء شكر، ومن عرف الانتهاء أخلص.

---

(١) أوشهنج ابن قيشداد بن كيومرث. أو هوشنغ أو هوشنج أو هوشنك أو أوشهنگ ويكتب في بعض الكتب هوشهنگ ويكتب في الكتب الفارسيّة هوشنگ وفي الكتب البهلوية هوشينكها وهو أوّل من لقب بشداد.(باللغة الفارسيه : هوشنگ پيشدادى) بن سيامك بن كيومرث كان ثاني الملوك البيشداديين وقد ذكر اسمه في الكتاب المقدس للديانة الزرتشتية القديمة الأفستا وفي الشاهنامة أيضاً.

وفي الناس من يزعم أنه أول ملك ملك من الفرس، وهو الذي جمع الأقاليم السبعة، ورتب الملك ونظم الأعمال، ولقب بقيشداد، وتفسيره بالعربية أول سيرة العدل. ويقال: إن أوشهنج هذا كان بعد الطوفان بمائتي سنة، وهو أول من قطع الحجر وبنى به، واستخرج المعادن، وبنى مدينتي بابل والسوس.

وكان فاضلاً حسن السياسة محمود الأثر. قال: ونزل الهند وتنقل في البلاد وعقد التاج وجلس على السرير. وكان من حسن سياسته أنه نفى أهل الفساد والدعارة من البلدان وألجأهم إلى رءوس الجبال وجزائر البحر، واستخدم منهم من كان يصلح للخدمة وسماهم الشياطين والعفاريت، وقرب أهل الخبر والصلاح. وكانت مدة ملكه أربعين سنة. انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب ١٠٤/٤.

و في الآثار الباقية أنه جعل لنفسه الملك والقيام بسياسة العالم وذلك هو الدهوفَذيّة، وجعل الدهقنة لأخيه« ويكرد» واحتفل الناس بهذه القسمة، وبقيت ذكراها في عيد« روز تير». ويقال أنه وأخاه ويكرد من الأنبياء. وقد بويع بالملك في اصطخر، وفي مروج الذهب أنه كان ينزل الهند. وينسب اليه بناء الكوفة لأوّل مره، وتُستر ودامغان، ومسلة عين شمس. وزاد في عمارة مدينة السوس واصطخر.

إن هوشنغ كان أول من اتخذ آلات الحديد من الفوس والمناشير حسب الشاهنامة وكان أول من زرع الزروع. وكان أول من اتخذ من جميع البهائم كل نوع يصلح للعمل من البقر والحمر وغيرهما. وكان أول من استلان جلود الثعالب والسنجاب والقاقم والسمور. وكان أول من استخرج النار والحديد من الحجر وأول من اتخذ النار قبلة وهو مبدأ تعظيم النار عند الفرس. فأتخذ هوشنغ الليلة التي استخرج النار عيداً يعرف بالسذق ويكتب في الكتب الفارسية سده، فبقي من ذلك الزمان آثارها يتوارثها من ملوك. وكانت مدّة ملكه أربعين سنة.

ومن عرف التوفيق خضع، ومن عرف الإفضال أناب بالاستسلام والموافقة - أما بعد:

فإن أفضل ما أُعْطِي العبد في الدنيا الحكمة، وأفضل ما أُعْطِي في الآخرة المغفرة، وأفضل ما أُعْطِي في نفسه الموعظة؛ وأفضل ما سأل العبدُ العافية، وأفضل ما قال كلمة التوحيد.

رأس اليقين المعرفة بالله.

ملاك العلم العمل، وملاك العمل السنة، وإصابة السنة لزوم القصد. الدين بشُعَبه كالحصن بأركانه: فمتى تداعى واحد منها تتابع بعده سائرها.

أعمال البر على أربع شعب: العلم، والعمل، وسلامة الصدر، والزهد. فالعلم: بالسنن، والعمل: بإصابة السنن، وسلامة الصدر: بإماتة الحسد، والزهد: بالصبر.

جماع أمر العباد في أربع خصال: العلم، والحلم، والعفاف، والعدالة.

فالعلم بالخير للاكتساب، وبالشر للاجتناب. والحلم في الدين للإصلاح، وفي الدنيا للكرم. والعفاف في الشهوة للرزانة، وفي الحاجة للصيانة. والعدالة في الرضا والغضب للقسط.

العلم على أربعة أوجه: أن تعلم أصل الحق الذي لا يقوم إلا به، وفروعه التي لا بد منها، وقصده الذي لا يقع إلا فيه، وضده الذي لا يفسده إلا هو.

العلم والعمل قرينان كمقارنة الروح للجسد: لا ينفع أحدهما إلا بالآخر.

الحق يعرف من وجهين: ظاهر يعرف بنفسه، وغامض يعرف بالاستنباط من الدليل. وكذلك الباطل أربعة أشياء يتقوى بها على العمل: الصحة، والغنى، والعزم، والتوفيق.

طرق النجاة ثلاث: سبيل الهدى، وكمال التقى، وطيب الغذاء.

العلم روح، والعمل بدن، والعلم أصل، والعمل فرع، والعلم والد، والعمل مولود. وكان العمل لمكان العلم، ولم يكن العلم لمكان العمل.

الغنى في القناعة، والسلامة في العزلة، والحرية في رفض الشهوة، والمحبة في ترك الطمع والرغبة.

واعلم أن التمتع في أيام طويلة يوجد بالصبر على أيام قليلة.

الغنى الأكبر في ثلاثة أشياء: نفس عالمة تستعين بها على دينك، وبدن صابر تستعين به في طاعة ربك وتتزود به لمعادك وليوم فقرك، وقناعة مما رزق الله: باليأس عما عند الناس.

أخرج الطمع من قلبك، تحل القيد من رجلك وترح بدنك. الظالم نادم وإن مدحه قوم، والمظلوم سالم وإن ذمه قوم.

المقتنع غني وإن جاع وعري، والحريص فقير وإن ملك الدنيا.

الشجاعة سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة.

والصبر احتمال الأمور المؤلمة والمكاره الحادثة.

والسخاء سماحة النفس لمستحق البذل، وبذلك الرغائب الجليلة في مواضعها.

والحلم ترك الانتقام مع إمكان القدرة.

والحزم انتهاز الفرصة.

الدنيا دار عمل، والآخرة دار ثواب.

وزمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب، وباب الأمن مستور بالخوف؛ فلا تكونن في حال من هذه الثلاثة غير متوقع لأضدادها؛ ولا تجعل نفسك غرضًا للسهام المهكلة، فإن الزمام عدو لابن آدم، فاحترز من عدوك بغاية الاستعداد وإذا فكرت في نفسك وعدوها استغنيت عن الوعظ.

أجل قريب في يد غيرك، وسَوْق حثيث من الليل والنهار. وإذا انتهت المدة حيل بينك وبين العدة - فاحتل قبل المنع، وأكرم أجلك لصحبة السابقين.

إذا آنستك السلامة فاستوحش من العطب، وإذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء: فإليه تكون الرجعة، وإذا بسطك الأمل فاقبض نفسك بقرب الأجل: فهو الموعد.

الحيلة خير من الشدة، والتأني أفضل من العجلة، والجهل في الحرب خير من العقل، والفكر هناك في العاقبة مادة الجزع.

أيها المقاتل! احتل تغنم، ولا تفكر في العاقبة فتهزم.

التأني فيما لا تخاف عليه الفوت أفضل من العجلة إلى إدراك الأمل. أضعف الحيلة أنفع من أقوى الشدة؛ وأقل التأني أجدى من أكثر العجلة؛ والدهاء رسول القضاء المبرم؛ وإذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد.

يحرم على السامع تكذيب القائل إلا في ثلاث هن غير الحق: صبر الجاهل على مضض المصيبة، وعاقل أبغض من أحسن إليه، وحماة أحبت كنة.

ثلاث لا يستصلح فسادهن بشيء من الحيل: العداوة بين الأقارب، وتحاسد الأكفاء، والركاكة في الملوك.

وثلاث لا يستفسد صلاحهن بنوع من المكر: العبادة في العلماء، والقناعة في المستبصرين، والسخاء في ذوي الأخطار.

وثلاث لا يشبع منهن: العافية، والحياة، والمال.

إذا كان الداء من السماء بطل الدواء. وإذا قدر الرب بطل حذر المربوب.

ونعم الدواء: الأجل، وبئس الداء: الأمل والمال.

ثلاث هن سرور الدنيا، وثلاث غمها: فأما السرور فالرضا بالقسم، والعمل بالطاعة في النعم، ونفي الاهتمام لرزق غد. وأما الغم فحرص مسرف، وسؤال ملحف، وتمني ما يلهف.

الدنيا أربعة أشياء: البناء، والنساء، والطلاء، والغناء.

أربعة من جهد البلاء: كثرة العيال، وقلة المال، والجار السوء، وزوجة خائنة.

شدائد الدنيا في أربعة: الشيخوخة مع الوحدة، والمرض في الغربة، وكثرة الدين مع القلة، وبعد الشقة مع الرحلة.

المرأة الصالحة عماد الدين وعمارة البيت وعون على الطاعة.

ليس بكامل من غزا ولم يبن على امرأة تزوجها، او بنى بناء لم يكمله، أو زرع زرعا لم يحصده.

ثلاث ليس للعاقل أن ينساهن: فناء الدار، وتصرف أحوالها، والآفات التي لا أمان منها.

ثلاث لا تدرك بثلاث: الغنى بالمنى، والشباب بالخضاب، والصحة بالأدوية.

أربع خلال إذا أعطيتهن فليس يضيرك ما فاتك من الدنيا: عفاف طعمة، وحسن خليقة، وصدق حديث، وحفظ أمانة.

ستة أشياء تعدل الدنيا: الطعام المري، والسيد الرؤوف، والولد البر، والزوجة الموافقة، والكلام المحكم، وكمال العقل.

صقلك السيف وليس له من سنخه جوهر خطأ. ونثرك الحب قبل أوانه في الأرض المسبخة جهل، وحملك الصعب المسن على الرياضة عناء.

الدليل الناصح غريزة الطبع، والقائد المشفق حسن المنطق.

العناء المعنى تطبع من لا طبع له.

الداء العياء رعونة مولودة.

الجرح الدويُّ المرأة السوء.

الحمل الثقيل الغضب.

ثلاثة أشياء حسنها في ثلاثة مواضع: المواساة عند الجوع، والصدق عند السخط، والعفو عند المقدرة.

العاقل لا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يسأل ما يخاف منعه، ولا يضمن ما لا يثق بالقدرة عليه.

ثلاث ليس معهن غربة: حسن الأدب، وكف الأذى، واجتناب الريب.

ثماني خصال من طبع الجهال: الغضب في غير معنى، والإعطاء في غير حق، وإتعاب البدن في الباطل، وقلة معرفة الرجل صديقه من عدوه، ووضعه السرّ في غير أهله، وثقته بمن لم يجربه، وحسن ظنه بمن لا عقل ولا وفاء، وكثرة الكلام بغير نفع.

من ظلم من الملوك فقد خرج من كرم الملك والحرية، وصار إلى دناءة الشره والنقيصة والتشبه بالرعية والعبيد.

إذا ذهب الوفاء نزل البلاء.

إذا مات الاعتصام عاش الانتقام.

إذا ظهرت الخيانات استخفت البركات.

الهزل آفة الجد، والكذب عدو الصدق، والجور مفسد العدل: فإذا استعمل الملك الهزل ذهبت هيبته، وإذا استصحب الكذب استخف به، وإذا ظهر الجور فسد سلطانه.

الحزم انتهاز الفرصة عند القدرة، وترك الونى فيما يخاف عليه الفوت.

الرئاسة لا تتم إلا بحسن السياسة، ومن طلبها صبر على مضضها.

باحتمال المؤن يحب السؤدد، بالأفضال تعظم الأخطار، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال.

إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه - ضاعت الأمور.

على الملك أن يعمل بثلاث خصال: تأخير العقوبة عند سلطان الغضب، وتعجيل مكافآت المحسن، والأناة في الذي يحدث. فإن له في تأخير العقوبة إمكان العفو، وفي تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة بالطاعة من الرعية والجند، وفي الأناة انفساح الرأي وإيضاح الصواب.

الحازم فيما أشكل عليه من الرأي بمنزلة من أضل لؤلؤة، فجمع ما حول مسقطها من التراب فنخله حتى وجدها - وكذلك الحازم جامع فنون الرأي في الأمر المشكل، ثم يخلصه ويسقط بعضه حتى يخلص منه الرأي الخاص.

لا ضعة مع حزم، ولا شرف مع عجز: الحزم مطية النجح، العجز يورث الحرمان.

أربع خصال ضَعَة في الملوم والأشراف: التعظم، ومجالسة الأحداث والنساء، ومشاورتهن، وترك ما يحتاج إليه من الأمور فيما يعمله بيده ويحضره بنفسه.

لا بكون الملك ملكًا حتى يأكل من غرسه، ويلبس من طرازه، وينكح من تلاده، ويركب من نتائجه.

إحكام هذه الأمور بالتدبير، ولاتدبير بالمشورة، والمشورة بالوزراء الناصحين المستحقين لرتبهم.

استظهر على من دونك بالفضل، وعلى نظرائك بالانصاف، وعلى من فوقك بالإجلال - تأخذ بوثائق أزمّة التدبير.

يجب على العاقل: في حق الله - عز وجل -: التعظم والشكر، وفي حق السلطان: الطاعة والنصيحة، وفي حقه على نفسه: الاجتهاد في الخيرات واجتناب السيئات، وفي حق الخلطاء: الوفاء بالود والبذل للمعونة، وفي حق العامة: كف الأذى وحسن المعاشرة.

لا يكمل المرء إلا بأربع: قديم في شرف، وحديث في نفس، وإعطاء عند مال، وصدق عند بأس.

من لم يبطره الغنى، ولم يستكن في الفاقة، وحديث في نفس، وإعطاء عند مال، وصدق عند بأس.

من لم يبطره الغنى، ولم يستكن في الفاقة، ولم تهدّه المصائب، ولم يأمن الدوائر، ولم ينس العواقب - فذاك الكامل.

الكامل في ثلاث: الفقه في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التقدير في المعيشة.

ويستدل على تقوى المرء بثلاث: التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا بما قد نال، وحسن الصبر عما فات.

ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص بالتوكل، والاستسلام للرب.

ليس للدين عوض، ولا للأيام بدل، ولا للنفس خلف.

من كان مطية الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر.

من جمع السخاء والحياء فقد استجاد الإزار والرداء.

من لم يبال بالشكاية فقد اعترف بالدناءة. من استرجع هبته فقد استحكم اللؤم.

أربعة أشياء القليل منها كثير: الوجع، والفقر، والعار، والعداوة.

من جهل قدر نفسه فهو لقدر غيره أجهل.

من أنف من عمل نفسه اضطر إلى عمل غيره.

من استنكف من أبويه فقد انتفى من الرشد.

من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند عن غيره.

اذكر مع كل نعمة زوالها، ومع كل بليّة كشفها، فإن ذلك أبقى للنعمة وأسلم من البطر وأقرب من الفرج.

إذا لم يكن العدل غالبا على الجور، لم يزل تحدث ألوان البلاء والآفات.

ليس شيء لتغير نعمة وتعجيل نقمة أقرب من الإقامة على الظلم.

الأمل قاطع من كل خير، وترك الطمع مانع من كل خوف، والصبر صائر إلى كل ظفر، والنفس داعية إلى كل شر.

باستصلاح المعاش يصلح أمر العباد، وبصدق التوكل يستحق الرزق، وبالإخلاص يستحق الجزاء، وبسلامة الصدر توضع المحبة في القلب، وبالكف عن المحارم ينال رضا الرب، وبالحكمة يكشف غطاء العلم، ومع الرضا يطيب العيش، وبالعقول تنال ذروة الأمور، وعند نزول البلاء تظهر فضائل الإنسان، وعند طول الغيبة تظهر مواساة الإخوان، وعند الحيرة تنكشف عقول الرجال، وبالأسفار تختبر الأخلاق، ومع الضيق يبدو السخاء، وفي الغضب يعرف صدق الرجال، وبالإيثار على النفس تملك الرقاب، وبالأدب الصالح يلهم العلم، وبترك الخطأ يسلم من العيب، وبالزهد تقام الحكمة، وبالتوفيق تحرز الأعمال، وعند الغايات تظهر العزائم، وبصاحب الصدق يتقوى على الأمور، وبالملاقاة يكون ازدياد المودات، ومع الزهد في الدنيا تثبت المؤاخاة.

ومن الوفاء دوام المواصلة، ومن قبول رشد العالم ركوب مطية العلم، ومن استقامة النية اختيار صحبة الأبرار، ومن مصافحة الغرر ركوب البحر، ومن عز النفس لزوم القناعة، ومن عز النفس لزوم القناعة، ومن سلطان اليقين التجلد على من يطمع في دينك، ومن الدخول في كامن الصدق الوقوع على ما لا تعرفه العوام، ومن حب الصحة الانقطاع عن الشهوات، ومن خوف المعاد الانصراف عن السيئات، ومن طلب الفضول الوقوع في البلايا، ومن لم يجد للإساءة إليه مضضًا لم يجد للإحسان عنده موقعا.

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.

الحسود لا يسود.

منازع الحق مخصوم.

أولى الناس بالفضل أعودهم بفضله.

أعون الأشياء على تزكية العقل التعلم، وأدل الأشياء على عقل العاقل حسن التدبير.

المستشير متحصن عن السقط، والمستبد متهوّر في الغلط.

من ألبسه الحياء ثوبه غطى عن الناس عيبه.

أحسن الآداب ألا يفخر المرء بأدبه، ولا يظهر القدرة على من لا قدرة له عليه، ولا يتوانى في العلم إذا طلبه.

ثلاثة ضروب من الناس لا يستوحشون في غربة ولا يقصر بهم عن مكرمة: الشجاع حيثما توجه، فإن بالناس حاجة إلى شجاعته وبأسه، والعالم، فإن بالناس حاجة إلى علمه وفهمه؛ والحلو اللسان الظاهر البيان، فإن الكلمة تجوز له بحلاوة لسانه ولين كلامه. فإن لم تعطوا في أنفسكم رباطة الجأش وجرأة الصدر، فلا يفوتنكم العلم وقراءة الكتب، فإنه أدب وعلم قد قيده لكم من مضى من قبلكم، تزدادون به عقلا.

اجعل الحلم عدة تدفع بها السفيه.

قال أبو عثمان الجاحظ:

قال الحسن بن سهل[1] أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل: فهذا ما تهيأ لنا ترجمته من الأوراق التي أخذناها من كتاب "جاويذان خرذ". على أنا أسقطنا الكثير منها، لانقطاع آخر الكلام عن أوله، لأن ذوبان لم تسمح نفسه بدفع الأوراق إلينا على الولاء والنظم والتأليف؛ وتركنا سائرها، إذ لم يكن لنا مطمع فيها. ومن لم يتعظ بالقليل لم ينفعه الكثير. وفيما أوردناه غنى وكفاية، وبلاغ لمن أراد الانتفاع به. والحمد لله وحده.

حكى أبو عثمان الجاحظ خبر هذا الكتاب في كتابه المسمى: "استطالة الفهم" فقال: حدثني الواقدي، قال: قال لي الفضل بن سهل: لما دعي للمأمون في كورخراسان بالخلافة جاءتنا هدايا الملوك، ووجه ملك كابلستان بشيخ يقال له: ذوبان، وكتب يذكر

---

(١) الحَسَن بن سَهْل (١٦٦ - ٢٣٦ هـ = ٧٨٢ - ٨٥١ م): هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، أبو محمد: وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات، والكرم.

وهو والد بوران (زوجة المأمون) وكان المأمون يجله ويبالغ في إكرامه، وللشعراء فيه أماديح. أصيب بمرض السويداء سنة ٢٠٣ هـ فتغير عقله حتى شد في الحديد، ثم شفي منه قبل زواج المأمون بابنته (سنة ٢١٠ هـ وتوفي في سرخس (من بلاد خراسان) قال الخطيب البغدادي: وهو أخو ذى الرياستين الفضل بن سهل، كانا من أهل بيت الرياسة في المجوس وأسلما، هما وأبوهما سهل في أيام الرشيد.

انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ١: ١٤١ وغربال الزمان - خ - وتاريخ بغداد ٧: ٣١٩وابن الوردي ١: ٢١٧.

أنه وجه بهدية ليس في الأرض أسنى ولا أرفع ولا أنبل ولا أفخر منها. فعجب المأمون، وقال: سل الشيخ: ما معه من الهدايا؟ فسألته، فقال: ما معي شيء أكثر من علمي. فقال: أي شيء علمك؟ فقال: تدبير ورأي ودلالة. فأمر المأمون بإنزاله وإكرامه وكتمان أمره. فلما أجمع على التوجه إلى العراق لقتال أخيه محمد، دعا بذوبان، فقال: ما ترى في التوجه إلى العراق لقتال محمد؟ فقال: رأى مصيب، وملك قريب، يناله أريب.

ثم حكى الجاحظ عن ذوبان بإسناده أنه كان يسجع سجاعة الكهان، ويصيب في كل ما يسأله المأمون. فلما ورد كتاب فتح العراق عليه، دعا بذوبان وأكرمه وأمر له بمائة ألف درهم. فلم يقبلها، وقال : أيها الملك! إن الملك لم يوجهني إليك لأنقصك؛ فلا تجعل ردي نعمتك تسخطا، فإني لست أردها عن استصغار لقدرها. وسوف أقبل منك ما يفي بهذا المال ويزيد، وهو كتاب يوجد بالعراق فيه مكارم الأخلاق وعلوم الآفاق من كتب عظيم الفرس، يوجد في الخزائن تحت الإيوان بالمدائن.

فلما قدم المأمون بغداد واستقرت به دار ملكه اقتضاه ذوبان حاجته. فأمر بأن يكتب الصفة ويذكر الموضع فكتبه ذوبان وعين الموضع، وقال: إذا بلغت الحجر ووصلت إلى الساحة فاقلعها تجد الحاجة ولا تعرض لغيرها فيلزمك غب ضيرها. فوجه المأمون في ذلك رجلًا حصيفًا، فوجد هناك صندوقًا صغيرًا من زجاج أسود، وعليه قفل منه فحمله، ورد الحفرة إلى حالها.

قال: فحدثني الحسن بن سهل، قال: إني عند المأمون إذ أدخل ذلك الصندوق. فجعل يعجب منه. ثم دعا بذوبان، فقال: هذه بغيتك؟ قال: نعم- قال: خذه و انصرف! لا تظنن أن الرغبة فيما لعله يوجد فيه تحملنا على مسألتك فتحه بين أيدينا. فقال: كلا، أيها الملك! لست ممن تنقض رغبته ذمام عهده. ثم فتح القفل وأدخل يده وأخرج خرقة من الديباج ونترها فسقط منها أوراق، فعدها فإذا هي مائة ورقة، ثم نفض الصندوق فلم يكن فيه سوى الأوراق، فرد الأوراق إلى الخرقة وحملها ونهض. ثم قال: أيها الملك! هذا الصندوق يصلح لخبيئات خزانتك. فأمر به فرفع- قال الحسن بن سهل: فقلت: يرى أمير المؤمنين أن أسأله ما في الكتاب؟ فقال: يا حسن! أفر من اللوم، ثوم أرجع إليه؟!

فلما خرج صرت إليه في منزله فسألته عنه، فقال: هذا كتاب "جاويذان خرذ" أخرجه كنجور وزير ملك إيرا نشهر من الحكمة القديمة. فقلت: أعطني ورقة منه أنظر فيها! فأعطاني. فأجلت فيها نظري، وأحضرت لها ذهني، فلم أزدد مما فيها إلا بعدا. فدعوت بالخضر بن علي، وذلك في صدر النهار، فلم ينتصف حتى فرغ من قراءتها بينه وبين نفسه. ثم أخذ يفسرها وأنا أكتب. ثم رددت الورقة وأخذت منه أخرى، والخضر عندي. فجعل يقرأ وأنا أكتب حتى أخذت منه نحوًا من ثلاثين ورقة وانصرفت في ذلك اليوم. ثم دخلت يوما عليه، فقلت: يا ذوبان! هل يكون في الدنيا أحسن من هذا العلم؟ فقال: لولا أن العلم مضنون به، وهو سبيل الدنيا والآخرة، لرأيت أن أدفعه إليك بتمامه. ولكن لا سبيل إلى أكثر مما أخذت. - ولم تكن الأوراق التي أخذتها، على التأليف، لأنها تتضمن أمورًا لا يمكن إخراجها.

فحدثني الحسن بن سهل، قال: قال لي المأمون يومًا: أي كتب العرب أنبل وأفضل؟ ـ فجعلت أعدد كتب المغازي والتواريخ حتى ذكرت تفسير القرآن، فقال: كلام الله تعالى لا يشبهه في شيء. ثم قال: أي كتب العجم أشرف؟ فذكرت كثيرا منها، ثم قلت: كتاب "جاويذان خرذ" يا أمير المؤمنين. فدعا بفهرست كتبه، وجعل يقلبه، فلم ير لهذا الكتاب أثرا ولا ذكرا. فقال: كيف يسقط ذكر هذا الكتاب عن الفهرست؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! هذا هو كتاب ذوبان وقد كتبت بعضه- قال: فائتني به الساعة. فوجهت في حمله، فوافاه الرسول وقد نهض للصلاة. فلما رآه مقبلًا والكتاب معي، انحرف عن القبلة وأخذ يقرأ الكتاب. فكلما فرغ من فصل، قال: لا إله إلا الله! فلما طال ذلك، قلت: يا أمير المؤمنين! الصلاة تفوت، وهذا لا يفوت. فقال: صدقت! ولكني أخاف السهو في صلاتي لاشتغال قلبي به. ثم صلى وعاود قراءته، ثم قال: أين تمامه؟ قلت: لم يدفعه إلي ذوبان. فقال: لولا أن العهد حبل طرفه بيد الله وطرفه بيدي لأخذته منه! فهذا، والله، الحكمة، لا ما نحن فيه من لَيّ ألسنتنا في فجوات أشداقنا.

قال أحمد بن محمد مِسْكَوَيْه:

فهذا آخر كتاب أوشهنج وخبره مع ذوبان. وقد سمعت شعف المأمون به وبخل الناس بما تضمنه، وستسمع – مما أضفناه إليه – مما لا تخفى زيادة حسنه عليه، من قرائح الحكماء ونتائج أفكارهم واتفاقهم مع تباعد أقطارهم.

وأبدأ بكلام أفتتح به لك دفائن الحكماء وأسرارهم وأغراضهم لتؤمه بقريحتك وتسلك طريقه، حتى يؤديك إلى مقصدك، ولا تعدل عنه فتفضل وتقع في التيه الذي لا آخر له، فإن الطريق إذا كان قصدًا سهل الوصول منه إلى الغرض الأقصى. وإذا كان غير قصد فكلما زاد إمعانًا فيه ازداد من غرضه بعدا.

وأسأل الله – الذي بيده مفاتيح الخيرات – العصمة والتوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل!

[آداب الفرس والهند والعرب والروم]

فأقول: كل إنسان يحب نفسه، وكل من أحب شيئًا أحب أن يحسن إليه. فليت شعري عمن لا يعرف نفسه كيف يحسن إليها! ومن لا يعرف طريق الإحسان كيف يسلكه!

ولقد سمعت وزيرًا من وزراء عصرنا، وقد أقام لنفسه وظيفة استفره فيها طباخه وصاحب شرابه، وزين كل يوم مجلسه بريحان الوقت وفاكتهه، وأحضر – اليوم الذي دعاني فيه – من أغانيه ما كان يعجبه ويطرب له، فقال في عرض كلامه: إن عشت فسأحسن إلى نفسي. فتدبرت كلامه وفعاله، وإذا هو لا يدري كيف يحسن إلى نفسه، ولا يفرق بين الإحسان إلى بدنه بركوب الشهوات، وبين الإحسان إلى نفسه بمعرفة الحقائق والتقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات. فكان من عاقبة أمره أن حسده نظراؤه فأزالوه عن موضعه، ونكبوه في نعمته، وأشمتوا به أعداءه، ثم وقع في أمراض لم يجنها عليه إلا انهماكه في مطعمه ومشربه وتمكنه من نيل لذاته.

ثم أقول أيضًا: لو كانت معرفة النفس أمرًا سهلًا ما تعبت لها الحكماء، ولا تبرمت بها الجهال، ولما أنزل في الوحي القديم: (يا إنسان! اعرف ذاتك)؛ وقد قال الله – عز من قائل –: ﴿يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] إلى آخر الآية. وروينا في الخبر الصحيح أن: "من عرف نفسه عرف ربه". وفي حديث آخر: "من عرف ربه لم يشْقَ". وقال المسيح – عليه السلام –: (بماذا نفع امرؤ نفسه باعها بجميع ما في الدنيا، ثم ترك ما باعها به ميراثا لغيره، وأهلك نفسه. ولكن طوبى لامرئ خلص نفسه واختارها على جميع الدنيا).

وفي الوحي القديم: (من لم يعرف نفسه ما دامت في جسده فلا سبيل له إلى معرفتها بعد مفارقتها جسده).

من لم يتفكر في كل شيء، خفي عليه كل شيء.

من لم يعرف معدن الشر، لم يقدر على النجاة منه.

اعلم أن الأفلاك المختلفة دائرة بالحركات المختلفة للعلل المعروفة عند الراسخين في العلم؛ فلذلك يقع التضاد بين الخلق في عالمنا هذا، ولا يقع هناك تضاد ألبتة. والكون والفساد لاحق بعالم النشوء والبلى، وليس هناك كون ولا فساد. فرياح الآفات

تهب عندنا بالهلكات، وتتبعها الزلازل والرجفات، ولا سبيل إلى الاحتراس منها إلا بالهرب منها إلى حيث لا يلحقنا شيء من مكروهها.

تميز الباقي من الفاني هو أشرف النظر.

اطراح المؤن أشرف قنية.

نظر النفس للنفس هو العناية بالنفس.

ردع النفس للنفس هو العلاج للنفس.

عشق النفس للنفس هو المرض للنفس.

النفس العزيزة هي التي لا تؤثر فيها النكبات.

النفس الكريمة هي التي لا تثقل عليها المؤونات.

لا تصدقن بما لا يرهان عليه.

الكذب فضاح، والكاذب يستشهد بالحلف أبدا.

لسان العلم الصدق.

من عدم الفهم عن الله - عز وجل - لم يجز أن يستمع موعظة حكيم.

فهذه جمل نحكمها قبل تفصيلها بالجزئيات، ولولا أنا قد أحكمنا لك الأصول كلها في كتابنا المرسوم بـ "تهذيب الأخلاق" لأوجبنا لك إيرادها ها هنا. ولكن هذا كتاب غرضنا فيه إيراد جزئيات الآداب بمواعظ الحكماء من كل أمة وكل نحلة، وتبعنا فيه صاحب كتاب "جاويذان خرذ" كما وعدنا به في أوله، ولأن الموضوع الأول كتاب فارسي، وجب أن نبدأ بآداب الفرس ومواعظهم، ثم نتبعها بآداب الأمم الآخرين.

آداب الفرس

فمن ذلك مواعظ أذرباذ- قال لابنه يعظه:

يا بني، اقتصد في القِرى تكن مضيافا؛ وتمسك بالقناعة، تكن رخي البال؛ واستشعر الرضا، تكن وادعًا؛ واجتهد في الطلب، تكن واجدًا؛ وتجنب الذنوب، تكن آمنًا؛ والزم القصد تكن أمينًا؛ وحالف الأدب، تكن عالمًا؛ وثابر على الشكر، تكن مستوجبًا؛ والزم التواضع، تكن كثير الإخوان؛ وكن لزوجك مصافيًا برًا طاهرًا.

لا تدعن، من أجل اكتساب المال، ما هو أفضل من المال. لا تتركن، من أجل حظوظ الدنيا الفانية، طلب الفوز بحظوظ الآخرة الباقية. وليكن العلم أحظى الأشياء وأكرمها عليك. أنعم الوعى عن العلماء؛ وأحسن الطاعة لأهل المقدرة. عاشر الأصدقاء بما لا تحتاج معه إلى حاكم. درب نفسك على التواضع للناس، فلن يضع ذلك منك، بل يرفعك ويزيد في مقدارك. لا تستعمل اليقين في الأمور التي يعرض فيها الشك. ليكن ذكر المعاد وخوف العقاب منك على بال. لا تثقن بالشفعاء. لا تستعمل الثقة بالنساء، ولا تفش إليهن سرا. ولا تهتم بما لا يحدث. لا تذكرن ما مضى لك من قول وعمل، واستعمل الرضا والتسليم لما حدث. لا تغرمن بافتتاح المنطق في المجالس قبل كل أحد. لا تداين الرجل القوي فيلحقك التعب عند محاولتك استرجاع ذلك منه. لا تنازع الأكفاء في المتكأ ولا في المراتب. لا تطلع الحسود على جدتك. لا تخاطرن أحدا. لا تثقن بشيء في عالم الكون والفساد أصلا. لا تطاعم الشره الوقح. لا تعاشر الرجل السكير السيئ الخلق. لا تنازع الأريب المفوه لا تماش الأثيم. استعمل الرجل العفيف بوابًا، والحر الذكي رسولًا، والحر الكريم صديقًا لئلا يخذلك ولا يخونك. لا تستعمل الغش والتمويه في شيء من أمورك.

تنكب البطر والاستكانة، فإن العالم الأديب لا تسكره النعمة ولا تكرثه النكبة. إذا رأيتم الأمر المنكر الغريب فلا يتداخلنكم الارتياب بربكم، ولا تندموا على ما قدمتم من الخير والبر. لا تأسفن على ما فاتك من الثراء، فإن المال شبيه بطائر ينتقل من نشر إلى نشر: فهو عند إقباله سريع الإقبال، وعند إدباره حثيث الانتقال. لا تؤانسن المعجب الكفور الذي يعيب الناس، فإنك منه بعرض غُرم مجحف، ثم لا تعدم على بابك شفعاء ممن يثقل عليك رده وتصعب مخالفته فيما يسألك. اجتنب الحلف في حال الصدق،

فأما الكذب فاجتنبه أصلا. لا تمار إخوانك، وإن كنت لسنا جدلا. وإن كان كنت جد ماهر بالسباحة، فلا تسرعن إلى تيار الوادي. وإن كنت حاذقًا بالرقى، فلا تبادرن إلى تناول الحيات. إذا شرعت في خير فلا تشك في ثوابه، وإذا حركت في شر فكن متوقعا لعقابه. تعهد مالك بالتثمير، وشدة التفقد وإنعام المحاسبة لئلا يلحقك المثل السائر: "حين حضر المال عزب العقل، وحين حضر العقل هرب المال".

ثابر على الاجتهاد في ادخار الحسنات لئلا تلحفك الحسرة والندامة وقت حاجتك إليها. ولا يخدعنك الشيطان العاتي بغروره وتمويهه فليستولي عليك، فإنه كما الناس ينصبون الفخ ويعمون أثره ويظهرون حبه ويعقدونه حيلة على الضير وذريعة إلى صيده، كذلك الشيطان يزين صنوف المهالك والمهادي للناس تطرقًا إلى التمكن من زمامهم، وتسببًا إلى أن يورطهم ويطبق الشفوة عليهم ، تنكّب الإكثار من ذبح السوائم ما استطعت وتوخ فيه القصد، فإن التبعة عليه في الآخرة شديدة؛ وتأمل سوء مغبته أيضًا في الدنيا، لأن كل مكان يكون القتل وسفك الدماء فيه أقل، يكون عدد الناس فيه أكثر، ولا يظهر الشر ظهورًا فاحشًا، وتكون سلامتهم أعم، وسلطان الآفات والعاهات أضعف، وفساد الشياطين والسحرة أقل وأوهن.

قدروا الأشياء على تقدير العقل وموافقة الروح، لا موافقة الهوى والبطن والفرج، بمنزلة البهائم. المجتهد هو الذي يبادر الفراغ من العمل الذي يحتاج إليه في حينه ووقته قبل أن يعجل عنه، ويكون كل حين على ثقة وبصيرة من أن نيته إن فاجأته لم يحتج إلى تأهب ولا رَمّ شيء من أسبابه وأحواله. استهن بالدنيا مع المعاد، وأنعم النظر والتفكر لمعاك، وكن على ثقة ويقين من أن ربنا قاهر حاكم عادل وأن الشيطان جاهل ليس بتام القدرة، وأنه غير عالم بحضور الأجل إذا اقترب، وتمام المدة إذا اقتربت – فهذا هو عين اليقين.

ما اخترته من آداب بُزُرْجمِهْر[١]

قال: رأيت الدنيا ذات تصرف وزوال، ورأيت أهلها رهائن مصائب ومنالف، ورأيت المتاع فيها قليلا والفناء كثيرا، ورأيت أن العيش زهيد والتبعة مخوفة، ورأيت أن

(١) هو بزرجمهر بن البختكان (فارسية: بزرگمهر بختگان) كان وزيرا لأنوشيروان. وكان هو رجلا حكيما عالما وقد ذكر اسمه في بعض الأعمال الهامة فى الأدب الفارسي، وعلى الأخص فى الشاهنامة. تنسب إليه الكثير من الحكم والأمثال.

وتزعم الفرس – كما ورد فى الشاهنامة أن أنوشروان رأى فى منامه كأنه يشرب خمرا فى جام ذهب وخنزير يكرع معه فى ذلك الجام فلما أصبح استفتى الموابذة فى رؤياه فلم يعرفوا تعبيره فأمر ثقاته بطلب من يعتبرها. فأتفق أن احدهم دخل مكتب مودب لهم وأستفتاه فى تلك الرؤيا فكانت حاله فى القصور عن تعبيرها كحال غيره فقام غلام من تلامذته يسمى بزرجمهر وقال ايها الأستاذ إن عندى تعبيرها. فدخل بزرجمهر فى قصر أنوشروان وقال له لا يجوز تعبير رؤياك الا فى خلوة. فأمر بإخلاء المكان. فقال بزرجمهر: ان فى جملة نسائك وجواريك رجلا. وكانت لأنوشروان امرأة من بنات الملوك تتعشق غلاما وتكسوه كسوة الجوارى وترتبطه فيهن على أنه جارية فلما مرت النساء والجواري متجردات وانتهت النوبة إلى الغلام علته الرعدة فايقن أنوشروان أنه غلام وأمر بقتله مع عاشقته وتعجب فى فطنة بزرجمهر على حداثته واستخلصه لنفسه.

مقتله: أمر كسرى الثاني حفيد أنوشروان بقتل بزرجمهر لان الوشاة حول كسرى لم يدعوه وشأنه. فأعدمه كسرى على مرأى من الناس وعلى مرأى من إبنته.

أقواله: نصحني النصحاء، ووعظني الوعاظ شفقة وتاديبا، فلم يعظني شيء مثل شيبي، ولا نصحني مثل فكري. ولقد أستضأت بنور الشمس وضوء القمر فلم استضيء بضياء أضوأ من نور قلبي. وكنت عند الأحرار والعبيد فلم يملكني ولا قهرني غير هواي. وعاداني الأعداء فلم أري أعدي علي من نفسي إذا جهلت. وزاحمني المضايق فلم يزاحمني مثل سوء الخلق. ووقعت في أبعد البعد وأطول الطول، فلم أقع علي شيء أضر علي من لساني. ومشيت علي الجمر ووطئت الرمضاء، فلم أر نارا أعلي حرا من غضبي. وتوحشت في البرية والجبال فلم أر أوحش من قرين السوء. وأكلت الطيب وشربت الهنيء، فلم أجد شيئا ألذ من العافية والأمن. وأكلت الصبر وشربت المر، فلم أر شيئا أمر من الفقر. وركبت البحار ورأيت الأهوال فلم أر هولا مثل الوقوف على سلطان الجاير. وقدت الجيوش وصارعت الأقران فلم أر قرينا أغلب من امرأة السوء. وعالجت الحديد ونقلت الصخر، فلم أر حملا أثقل من الدين.ولبست الكسي الفاخرة، فلم ألبس شيئا مثل الصلاح. وطلبت أحسن الأشياء عند الناس، فلم أجد شيئا أحسن من حسن الخلق... وسررت بعطايا الملوك ومواهبهم فلم ار اسر بشيء أكثر من الخلاص منهم.

الدنيا لو فتحت بأسرها لامرئ حتى يعطي من سرورها ونعيمها وما تشره إليه النفوس من كل مطلوب كان منافسًا فيها فأتاه من ذلك ما تمنى ورفع عنه الآفات والمخاوف ووقى المكاره والشرور والأذى، ورزق السعة من المال وقرة العين في الأهل والولد والمحبة في الناس والشرف من السلطان، ثم تمتع بما أعطى فطال به متاعه وفضل على نظرائه وعلى أعدائه، وغبطه الخاصة والعامة، وبقي مشرفًا مكرمًا قرير العين مسرورًا مملى – لكان أبعد غايته مائة عام حتى يبلى جسده ويفارقه جماله ويذل عزه وينمحق سلطانه، ثم أبعد ما يخلف بعده ثلثمائة عام حتى يصير جميع ما جمع متفرقًا، وما عمل منتشرًا، وما شيد خرابًا، فيصير اسمه مجهولًا وذكره منسيًا وحسبه خاملًا وشرفه حقيرًا وما نعم وبالًا وما كسب خبالًا، ويرث سلطانه ولاة الأمور بعده وتنساق الأرزاق والمواريث من الأول إلى الآخر. فلما رأيت كل مجموع متفرقًا، وكل مكسوب مستلبا إلا التقوى وعمل البر الذي لا يسلب عامله ولا يبلي ولا يهلك، رأيت عند ذلك أن أوجه رأيي وقولي وفعلي إلى عمل البر فيكون ذلك هو الكسب الذي اكتسب والعقد الذي اعتقد. فلم أزل أحب العمل بما قويت عليه من الخير، والاجتناب لما قدرت عليه من الشر مع التصديق بالله والإيمان بالبعث والمعاد والثواب والعقاب، فكان ما رجوت بقاءه أحرفا كتبتها في هذا الكتاب على طريق المسألة والجواب.

إن قيل لي: أي الناس أولى بالسعادة؟ قلت: أقلهم ذنوبا.

فإن قيل لي: وأيهم أقل ذنوبا؟ قلت: أقومهم بأمر الله على دينه الحق، وأبعدهم من أمر الشيطان.

فإن قيل: وما دين الله؟ قلت: دين الله الحسنات وحسن النية والقول والفعل.

فإن قيل: وما حسن النية؟ قلت: الاقتصاد فيها؛ وحسن القول: الصدق، وحسن الفعل: الجود والسماحة.

فإن قيل: وما سوء النية؟ قلت: إفراط الهمة؛ وسوء القول: الكذب، وسوء الفعل: البخل.

فإن قيل: وما القصد، وما الجور، وما الإفراط، وما البخل؟ – قلت: الاقتصاد في الهمة التذكر لزوال الدنيا وانقطاع أمورها وكف جامحات الهوى عن الأمور التي فيها البلاء في الدنيا والشقاء في الآخرة. والسخاء إعطاء الحسد حقه مع الدين موفرا.

والصدق هو ركوب الطريقة الواضحة، وصدق النفس عنها فلا يخادع المرء نفسه ولا يكذبها. وإفراط الهمة الإخلاد إلى الدنيا والطمأنينة إليها والطماح إلى الأمور التي عاقبها فساد، وثمرتها عقاب الآخرة. والبخل هو منع الحسد حظه والدين حقه. والكذب كذب المرء نفسه فلا يزال هواها مشفعًا ودينها مسوفًا.

فإن قيل: أي الرجال أفضل؟ قلت: أعملهم بالعقل.

فإن قيل: وأيهم أعقل؟ قلت: أنظرهم في العاقبة، وأبصرهم بخصمائه، وأشدهم منهم احتراسا.

فإن قيل: وما تلك العاقبة؟ ومن الخصماء الذين العاقل ويحترس منهم؟ قلت: العاقبة الفناء، والخصماء الطبائع والأهواء الموكلة بالإنسان.

فإن قيل: وما تلك الطبائع والأهواء الموكلة بالإنسان؟ قلت: الحرص والفاقة والغضب والحسد والحمية والشهوة والحقد والوسنة والرياء.

فإن قيل: فأي هذه الخصال أقوى في بابه وأمره، وأقل أن يسلم منه؟ قلت: الحرص أبعد رضا وأفحش غضبا، والفاقة أشد حزنا وأمرض للقلب، والغضب أجور سلطانا وأقل شكرا، والحسد أسوأ نية وأخلف ظنا، والحمية أشد لجاجا وأفلج مغالبة، والحقد أطول توقدا وأقل رحمة وأشد سطوة، والوسنة أشد كسلا وأرسخ بلادة، والرياء أشد خديعة وأحق اكتتاما، وهو أخفى وأكذب، والشهوة أغلب وأشد قهرا.

قال: أيها، إذا ظفر به الشيطان، كان أبلغ له في إهلاكهم؟ - قلت: تعميته عليهم البر والمأثم، والعقاب والثواب، وعواقب الأمور والأعمال، والقوة التي قوى الله بها العباد لمغالبة تلك الأهواء.

قال: وما هذه الأعمال والقوة؟ قلت: العقل والعفاف والصبر والرجاء والدين والنصيحة.

قال: وما عمل كل واحد من هذه الخلال؟ قلت: عمل العقل الخلاص من الخوف والخطايا، والنصب فيما لا عاقبة له، وإكثار التذكر لفناء الدنيا وقرب الأجل والاحتفاظ من أن ينتقص بما يفتن، وعمل العلم إيضاح الحق وتدبير الأمور واعتبار باقيها بفانيها والاحتفاظ من التصديق بما لا يعرف والتناول لما لا ينال. وعمل العفاف كف النفس عن السيئات وعن الشهوات المردية، والحمل لها – بالعادة الحسنة والخلق المحمود –

على البر والفضائل. وعمل الرجاء حسن الظن بما يرجي من الأمر في تقاربه، وأن يكون أمله بقدر سعيه حتى يبلغ غاية العمل بالخير. وعمل الصبر الرضا بما حضر، ولزوم الصدق والمعرفة مما في الشره من التعب، وما في الإقراط من الخوف، وحسن العزاء عما فات، وطيب النفس عنه، وترك معالجة ما لا يتم، والبصر بالأمر الذي إليه المرد، والإكرام له عن يباع بثمن أو خطر لغرض. وعمل الدين اختيار سبيل الرشد على سبيل الغي، وتوطين النفس على أن من يعمل خيرًا يجز به. والعمل بالتقوى والنصيحة كف الصاحب عن اتباع الهوى وركوب القبيح والعمل بالرأي والأخذ بالحزم. فإن أتاه البلاء أتاه وهو حذر غير لائم لنفسه ولا ملوم.

قال: أي الأخلاق أكرم؟ قلت: التواضع ولين الكلمة.

قال: أي العبادة أحسن؟ قلت: الوقار والتؤدة.

قال: أي السير أرضى. قلت: العدل.

قال: أي الأعوان أحضر نفعًا؟ قلت: الزهادة في الدنيا.

قال: أي الأمور أملك: الأدب، أم العفاف، أم الطبيعة؟ - قلت: الأدب زيادة في العفاف، والطبيعة معدنهما وحاملتهما، ولكل آفات: فأعظمها منفعة أسلمهما من الآفات.

قال: وكيف السلامة من الآفات؟ قلت: ألا يشوب العقل عجب، ولا العلم فجور، ولا النجدة بغي، ولا اللب زيغ، ولا الحلم حقد، ولا القناعة صغر خطر، ولا الأمانة بخل، ولا العفاف سوء نية، ولا الرجاء تهاون، ولا الجود سرف، ولا الاستقامة رقة، ولا الرقة جزع ولا الجزع محادة، ولا التواضع احتقار، ولا اللطف ملق، ولا صحبة السلطان رياء، ولا التودد سوء سيرة، ولا النصيحة غائلة، ولا حسن الطلب حسد، ولا الحياء بلادة، ولا الورع حب سمعة.

قال: أبقدر يصيب الناس ما أصابهم، أم بعمل؟ - قلت: القدر والعمل كالجسد والروح: فالجسد بغير روح لا حراك به، والروح بغير جسد لا تحس؛ فإذا اجتمعا قويا معا وصلحا. فكذلك العمل والقدر، لو لم يكن العمل لم يكن القدر يقع على العمل وكان شيئا لا يحس، ولو لم يكن العمل يوافق القدر لم يتم ولم يمض؛ ولكنهما باجتماعهما قويا.

قال: وما القدر؟ قلت: القدر علة ما هو كائن، والعمل علة ما لم يكن.

قال: أي شيء أشبه بالدنيا؟ - قلت: أحلام النائم.

قال: أي الناس أحق أن يغبط؟ - قلت: الملك الصالح المظفر- قال: أي الشقاء أشقى؟ - قلت: الفقر والإثم.

قال: أي الرجال أمقت؟ - قلت: القفيه الفاجر.

قال: أي الرجال أقل هما؟ - قلت: أفضلهم رضا.

قال: وأيهم أفضل رضا؟ - قلت: أقلهم غفلة عن ذكر الله تعالى وفناء الدنيا- قال: أي الرجال أعظم أمانة؟ - قلت: أعفهم- قال: وأيهم أعف؟ - قلت: أحياهم- قال: وأيهم أحيا؟ - قلت: من كان الذم أشد عليه من الفقر.

قال: وأي الرجال أحق بحسن الأمل؟ - قلت: المعذر الموفق- قال: ومن المعذر الموفق؟ قلت: إعذار الرجل إقباله على عمله وقلة فتوره عنه، والتوفيق موافقة القضاء.

قال: من أشد من تدبر الأمور تحيرًا فيها؟ - قلت: العاقل ذو التجارب- قال: ومن أقنع وأعدل؟ - قلت: من حياؤه يغلب شهوته، ووده يعلو حسده، وتخوفه يعلو حقده، وحلمه غضبه، ورضاه يعلو حاجته، والحق يعلو لحاجته وهواه.

قال: من أحق بحسن الثناء؟ - قلت: من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

قال: من أحق بالظفر؟ – قلت: المجاهد على الحق.

قال: أي الأشياء أقر للعين؟ - قلت: الولد النجيب والزوجة الموافقة.

قال: من أصبر على الأذى؟ - قلت: الحريص المحتاج إذا طمع.

قال: من أشد لجاجا؟ - قلت: الحقود الحنق القوي.

قال: أي الأذى ألزم؟ - قلت: الزوجة غير الموافقة والولد السوء.

قال: من أسوأ عهدًا؟ - قلت السلطان السفيه الغشوم.

قال: من أطول كآبة وحزنًا؟ - قلت: الفقير بعد الغنى، والذليل بعد العز، والبائس بعد النعمة، وتابع الهوى عند عواقب الأمور وخواتيم الأعمال.

قال: من أحق بالرحمة؟ - فقلت: الكريم يسلط عليه اللئيم، والعاقل يسلط عليه الجاهل، والبر يسلط عليه الفاجر.

قال: من أشد الناس سقوطا؟ - قلت: الجاهل المجازف.

قال: من أحق بالعذر؟ - قلت: الذكي المضطهد الذي قد ظلم وضيم.

قال: من أشد الناس ندامة؟ - قلت: أما عند الموت: فالعالم المفرّط، وأما عند الأعمال: فالعَجِل النّزِق الذي يدركه رأيه بعد فوت الأمور، والمدّخر الصنيعة عند من لا يشكرها.

قال: من أولى باللوم؟ - قلت: من كفر المعروف وأضاع الإخاء.

قال: من أحق بالذم وسوء الثناء؟ - قلت: من كان سعيه فيما يفسد الناس.

قال: أي الأشياء آثر عند الإنسان إذا أحصى الرغائب؟ - قلت: ثلاث: أما ما دام صحيحًا فعصيانه هوى النفس، وأما عند السقم فالصحة، وأما عند حضور الموت فالأمن من العقاب.

قال: أي شيء الناس عليه أحرص؟ - قلت: انبساط الهوى، ودرك ما يُشتهى، ووجود ما يلتمس، وسعة الغنى.

قال: أي شيء أحق أن يخاف؟ - قلت: زمان السوء، والصاحب المخادع، والمخادع، والعدو القوي الصؤول.

قال: أي الأشياء أحق أن يستأنس إليه؟ - قلت: الزمان الصالح، والعمل بالخير، وذو الود الوفي بالإخاء الموفق في الدين، والسلطان ذو الرحمة والعدل.

قال: أي الزمان أفضل؟ - قلت: ما لم تكن الغلبة فيه والاستئثار للأشرار واللئام.

قال: أي الملوك أفضل؟ - قلت: أرأفهم بالرعية، وأعظمهم عفوا، وأحرصهم على المعروف.

قال: أي الرجال أفضل؟ - قلت: أحسنهم في السراء والضراء خلة ومواساة.

قال: من أكثر صديقا؟ - قلت: المتواضع، اللين الكلمة، العظيم الخطر، الحمول للمؤونات.

قال: من أكثر عدوا؟ - قلت: الفاحش لسانًا، الصغير خطرًا، الشديد تكبرًا.

قال: أي الإخاء أدوم؟ - قلت: العمل الصالح.

قال: أي الخزائن أعمر وأبقى؟ - قلت: خزائن البر؟

قال: أي المساعي خير صحبة؟ - قلت: صحبة العلماء الأخيار.

قال: أي الأشياء أروح؟ - قلت: الأمن.

قال: أي الأمن أفضل؟ - قلت: صالح الزمان.

قال: أي السرور أفضل؟ - قلت: سرور العواقب.

قال: أي العيش أرغد؟ - قلت: رضا المرء بحظه واستئناسه بالصالحين.

قال: أي الأشياء أجفى وأصعب؟ - قلت: السلطان العاتب ذو القلب القاسي.

قال: أي الأمور أخبث عاقبة؟ - قلت: التماس رضا الأشرار- قال: أي التعب أدوم؟ - قلت: صحبة السلطان السيء الخليقة.

قال: أي شيء أنفذ في هلاك الإنسان؟ - قلت: الهوى المتبع.

قال: أي شيء أسرع تقلبا؟ – قلت: قلب الملوك.

قال: أي شيء أعجب؟ - قلت: الرقيق المحارف، والأخرق المصنوع له.

قال: أي شيء أسرع انقطاعا؟ - قلت: مودة الأشرار.

قال: فأي شيء أسرع إفسادا؟ - قلت: كلام النميمة.

قال: أي الرجاء أخبث؟ قلت: رجاء الأشرار.

قال: أي شيء أشد تهجينا للمروءة؟ - قلت للعالم: الصّلَفُ، وللشجاع البغيُ، والمملوك صغر الخطر، وللنساء قلةُ الحياء، وللفقيه اتباعُ الهوى، ولعامة الناس الكذبُ.

قال: أي شيء أكره إلى الملوك؟ - قلت: أن يلجأوا إلى ترك سنة، وألا تستقيم لهم الأمور إلا ببسط العقوبة.

قال: ما بال الحكماء لا يكثرون ملامة الجهال؟ - قلت: لأنهم لا يلومون العميان ألا يبصروا.

وقال بُزُرْجمِهْر: خمسة أشياء من سجايا العلماء: ألا يأسوا على ما فاتهم، ولا يحزنوا لما لم يصبهم، ولا يرجو ما لا يجوز لهم فيه الرجاء، ولا يستكينوا ويفشلوا في الشدة، ولا يبطروا في الرخاء.

وقال أيضًا: سبع خصال من طباع الجهال: الغضب في غير شيء، والإعطاء في غير حق، وقلة المعرفة بأنفسهم، ولا يفرقون بين عدوهم وصديقهم، والتصنع للأشرار، وكثرة الكلام في غير نفع، وحسن الظن بمن ليس لذلك بأهل.

وقال أيضًا: خمسة أشياء تقبح بأهلها: ضيق ذرع الملك، وسرعة غضب العلماء، وبذاءة النساء، ومرض الأطباء، وكذب القضاة.

وقال السائل: من أشد الأشياء مؤونة؟ - قلت: من تكلف إخفاء الفاقة. ومما يزيد الفاقة شدة على أهلها الاستكانة لمن لا يجبر فاقتهم.

قال: ما أشد الأشياء عن أهلها غنى؟ - قلت: النصيحة لمن لا يقبلها، والإشارة على المعجب برأيه، والمجادلة لكف حرص الحريص.

قال: أي السعادات أفضل؟ ـ قلت: موافقة القدر للهوى وللأمل، أي: البخت.

وقال: ثلاث خصال لا يؤمن ضرهن وإن قللن: حب اللهو، وسوء الخلق، ولزوم التواني.

وقال: أرجى علمائنا وأولادنا وفتياتنا أرغبهم في صالح الأدب، وأحذرهم للشر، وآخذهم بالسنن، وألزمهم للطبقة التي فوقهم في السن والحال.

وقال: من علامة الكبر ضعف ما كان قويًا من غير سقم ولا علة.

وقال: ثلاث خصال ينبغي للمرء أن يرغب فيهن: الدعة في غير تضييع، والنعمة في غير شين، واللذة في غير مأثم.

وقال: من الدليل على القدر أنه حق: تأتّي الأمور لأهل الجهل بجهلهم، وامتناعها على العلماء بعلمهم.

وقال: ينبغي للمرء أن يقي ماله بجاهه، وأن يقي جسده بماله، وأن يقي روحه بجسده، وأن يقي دينه بروحه؛ ولن تعدو أمور الناس بعض ذلك.

وقال: قوة الغضب الحقد، ومأواه اللجاجة والحرص. ومن ذخائر الشيطان اللجاجة والحقد.

وقال: مما تعرف به عزة العقل أنه لا يمكن أن يستفاد بالثمن ولا يغتصب من صاحبه.

وقال: إرادة الله من الناس أن يعرفوه؛ فإنهم إذا عرفوه أطاعوه.

وإرداة الشيطان من الناس أن يجهلوه، فإنهم إذا عرفوه هان عليهم فعصوه.

وقال: رفض الدنيا قبل الالتباس بها أهون من التخلص منها بعد الوقوع فيها.

وقال: من حزم الرجل ألا يخادع أحدًا، ومن كمال عقله ألا يخدعه أحد.

وقال: من صالح أعمال البر الجود في العسرة، والصدق في الغضب، وألا يتكبر على ذي ضرورة.

وقال: على كل امرئ أن يصلح من الأرض قدر باع، فإذا أصلحه فقد أصلح جميع الأرض ـ وذلك الباع بدنه.

وقال: كما ينبغي للمرآة أن تكون أضوأ من الناظر فيها، فكذلك الإمام المؤدب: يجب أن يكون أفضل ممن يؤم ويؤدب.

وقال: ثمانية رهط لا ينبغي لهم إذا أهينوا أن يلوموا إلا أنفسهم: الذي يأتي مائدة لم يدع إليها، والجالس المجلس الذي ليس له بأهل، وطالب الخير من أعدائه، ومهين رب البيت في بيته، والواقع في حديث بين اثنين لم يدخلاه فيه، والمتعرض للفضل في أيدي اللئام، والمتحمق في الدالة على السلطان، والمقبل بحديثه على من لا يسمع منه.

وقال: خصال يعرف بها إخوان العلانية: أن يستر الرجل منهم على أخيه ما يعرفه من عيب فيه؛ وأن يحضره بما يحب ويغيب عنه ما يكره؛ ولا يخذله عند الشدة؛ ولا يحسده في الرخاء؛ ولا يشمت به في المصيبة؛ ولا يكتمه سره، ولا يفشي عليه أسراره؛ ولا يفسده على أهله؛ ولا يحرشه على إخوانه؛ ولا يسأله ماله، ولا يضن عليه بما عنده.

وقال: مما يكرم به النساء على بعولهن: الكفاية والعفة والهيبة لأزواجهن، وحسن التبعل، وقله المعاتبة، والإحمال في الغيرة.

وقال: يجب على العاقل أن يحسن الثقة بالله تعالى في الحالات كلها، وبذوي القرابة في الشدائد، وبالمرأة الصالحة في المسكنة، وبأهل الصدق في العهود، وبالعمل الصالح عند الموت النازل.

وقال: إن أمر الدنيا كله مختلط العسر باليسر، فلست كائنا في حال يسر لا عسر معه، ولا في حال عسر لا يسر معه. فإذا كنت في حال الغالب فيها عليك اليسر، فاعرف ما يفضي إليك من لذته مع ما فيه من خلط العسر. واذكر أن يسر الآخرة هو الخالص

من كل عسر؛ وإن كنت في حال عسر فاعرف ما يفضي إليك من مؤونته مع ما فيها من خلط اليسر. واعلم أنه لم يصل إليك قط يسر لا عسر معه، ولا عسر لا يسر معه.

وقال: المرأة الصالحة تشبه الوالدة والأخت والصديق والأمة. والمرأة السوء تشبه الربة والعدو والسارق. فأما شبهها بالوالدة فلمحبتها لقربه، وكراهتها غيبته عنها، واحتمالها في جنبه كل ما أصابها: فهي تفرح لما يفرح وإن كان عليها فيه مؤونة، ويحزنها ما يحزنه وإن كان لها فيه بعض الراحة. وأما شبهها بالأخت فللمحبة المحلة القائمة عليه مقام الأخت على أخيها الأكبر منها. وأما شبهها بالصديق فلأنها تقنع منه بما أتاها وتعذره فيما زواه عنها، وتبذل ما لها له، وتوافقه على خلقه، وتعينه على زمانه. وأما شبهها بالأمة فلأنها تتذلل له وتتبذل في خدمته وتصبر على خلقه إن ساء، وعلى فضله إن قل، ولأنها تظهر فضله عند الناس فلا تمتن عليه، وتشكر ما أولاها وتقل معاتبته فيفيما تنكره منه أو ينكره منها.

والمرآة السيئة تشبه الربة والعدو والسارق. أما تشبهها بالربة فلكسلها وفحشها وكثرة تجنيها وغضبها، ولإغفالها ما يسر زوجها أو يسوؤه. وأما تشبهها بالعدو فلاستخفافها به وغلظها عليه وجحودها ما كان من إحسانه إليها، ولسرعة غضبها وطول حقدها وكثرة شكايتها. وأما تشبهها بالسارق فلخيانتها لزوجها في ماله ولسؤالها إياه ما لا حاجة بها إليه، ولاحتقارها إحسانه، ولأنها تتزين له من الود بما ليس في قلبها، ولأنها تلح عليه فيما يكره.

ما اخترته من حكم كسرى قُباذ

جوابات كسرى قباذ ملك الروم عما سأله عنه

وما أجاب به غيره من المسائل

سأله سائل: هل من أحد ليس فيه عيب؟ - قال: لا؛ لأن الذي ليس فيه عيب لا ينبغي له أن يموت.

وسأله: أي شيء يصيبه الناس هم به أسعد؟ - قال: من طلب حقًا فأدركه ثم وافق ذلك هواه.

قال: فمن يعد سعيدًا من الناس؟ - قال: ذو العقل الموفق.

قيل له: أي رجل أحمد عندكم بالعقل؟ - قال: البصير بقلة بقاء الدنيا، لأنه يجتنب الذنوب لبصره بذلك، ولا يمنعه ذلك أن يصيب من لذة الدنيا بقصد.

قيل له: أيحتاج مع الإيمان إلى العقل؟ - قال: نعم؛ لأن بالعقل يفصل بين الحق والباطل؛ والإيمان هو التصديق بما ينبغي أن يصدق به.

قيل: وكيف يفصل بينهما؟ - قال: لا يبحث العاقل عما استيقن به من الأمر، ولا يمتنع من البحث عما شك فيه.

قل: أي شيء أنفع للعاقل؟ وأي شيء أضر له؟ - قال: أنفع الأشياء له مشاورة العلماء والتجربة والتؤدة؛ وأضرها له الكسل واتباع لاهوى والعجلة في الأمور.

سئل: ما بال العلماء أكثر الناس فرحا وأقلهم حزنا؟ - قال: فرحهم لما قدموا لآخرتهم من الخير، وقلة حزنهم لصبرهم ورضاهم بما يصيبهم.

قيل له: أي شيء أزين بالناس؟ - قال: أما للعلماء فلزوم السيرة المرتضاة، وأما للشجاع فالظفر والعفو بعد الظفر.

سئل: أيغير المالُ العلماء؟ - قال: ليس بعالم من يغيره المال.

سئل: العلماء كانوا أحمد عند الأولين، أم الشجعان؟ - قال: بل العلماء؛ لأن منفعتنا اليوم بعلمهم كمنفعة الذين كانوا معهم في زمانهم.

سئل: بأي شيء يعرف العالم؟ - قال: بحسن عمله.

سئل: أي الملوك ترونه أفضل ملكا؟ - قال: الذين يسوسون بالخير، ويتقرر في زمان ملكهم العافية شاملة.

قيل: ما الذي ينبغي للملك أن يصنعه حتى يعم صلاحه أهل مملكته؟ - قال: يولي خيار أهل مملكته.

قيل: ما الذي ينبغي للملوك أن يسيروا به في رعيتهم؟ - قال: أربع خلال هن ملاك سلطانهم: الحيطة من ورائهم، والقيام بسنتهم فيهم، والإحسان إلى عامتهم، وإصلاحهم وكف الظلم عنهم.

قيل: وما ثمرة الشجاعة؟ وما ثمة العلم؟ - قال: ثمرة الشجاعة الأمن من العدو، وثمرة العلم الأمن من الذنوب.

سئل عن الفرق بين الفرح وبين اللهو واللعب - قال: الفرح يبقى، واللهو إنما يكون ما دمت فيه. قيل: ما معنى ذلك؟ - قال: لأن الفرح يبقى، وهو ما رجي خيره في الآخرة. فأما ما سوى ذلك فإنما يعد لهوًا لأنه يزول.

سئل: ما الذي ينبغي أن يعمل به لله تعالى وللنفس وللسلطان وللأقربين وللأصحاب؟ - قال: أما لله تعالى فالحمد والشكر، وأما للنفس فالاجتهاد علمًا وعملا واجتناب المآثم، وأما للسلطان فالطاعة والنصيحة وأما للأقربين فالمحبة والصلة؛ وأما للأصحاب فاللين والمواساة.

سئل: لم كانت الملوك تتطير من ذكر الموت عندهم وأنتم الآن تكثرون ذكر الموت؟ - قال: لأنهم كانوا يومئذ ينظرون في بقاء ملكهم وتدبيره، ونحن اليوم ننظر في فراق ملكنا وتدبير ما بعده.

سئل: لم لا يرى أثر الفرح والأمن الشديدين إذا أتياكم؟ - قال: لأنا نعلم أنا سنفارقهما ويفارقانا.

سئل: لم تفخرون بكثرة المال؟ - قال: لأنا نزداد به إفضالًا وإحسانًا إلى الناس وقوة على الأعداء.

سئل: أي السلطان ترونه أفضل؟ - قال: الذي يثق به البريء، ولا يامنه المريب.

قيل: سمعناكم تقولون: من لا يتيقن أن قتله لا يستطاع دون أجله فلا ينبغي له أن يعد نفسه من أهل القتال.

فلم قلتم ذلك؟ قال: إنما قلنا ذلك لأن الأساورة إذا تمهروا أدبناهم بقلة الخوف من الموت. فمن لم يتبقن أن أجله معلوم لم تشايعه نفسه.

قبل له: كنا سمعناكم تقولون: لا ينبغي لأحد أن يشك في أربع خصال ـ فما هي؟ - قال: أما واحدو ففي الله - عز وجل -، وأما الثانية ففي العمل بالخير، وأما الثالثة ففي أنه لا يستقيم ملك إلا بشريعة، وأما الرابعة ففي قضاء الملوك.

قال: فما معنى قولكم: اغبطوا الناس باجتناب الذنوب لا بالغنى، ونحن نرى كثيرا ممن يتجنب الذنوب في ضر وبلاء شديد، ونرى أهل الغنى في دعة وحسن معيشة؟ - قال: إن الغنى يصيب أهله منه فرحًا قليلًا وحزنًا طويلًا، وإن الاجتناب من الذنوب يصيب أهله منه نصب قليل وأمن طويل.

قيل: سمعناكم تقولون: إنما ينبغي الاجتهاد فيما يقلل الحزن عند الموت، لا في الذي يزيد في وجع الموت؛ فما الذي يزيد في وجع الموت شدة؟ وما الذي ينقصه؟ - قال: أما الذي يزيد في وجع الموت شدة فالعمل باللهو والباطل، وكثرة الأعداء، وقلة أدب الأولاد. وأما الذي ينقص من وجع الموت فالعمل الصالح والصديق الصالح وأدب الأولاد.

سئل: لم يسلم الإنسان نفسه للموت ولا شيء أعز عليه منها؟ - قال: ليس يفعل ذلك أحد إلا لأربع خصال: إم للشره، وإما لمخافة العار، وإما للدين، وإما للضرورة.

سأل رسول ملك الروم كسرى أن يوصي صاحبه مما ينتفع به، قال كسرى: مره أن يحافظ على الشكر، ويحرص على الإحسان إلى من أنس منه خيرًا. ومره أن لا يزال حذرا منشجعا. ومره ألا يثق بأمره الدنيا فإنه لا عهد لها ولا استقامة، ولا يعين أحدًا على إثم، ولا يضر الخير أصحابه ولا يخشع لضر إن نزل به. ومره فلا يجزع مما لا بد أن يصيب ـ ولا يرغب فيما لا ينبغي أن يرغب فيه. ومره أن يأخذ بسيرة لا يلجأ فيها إلى الحكام. ومره فلا يذم إخوانه على ما لا يذم عليه نفسه.

نسخة كتاب لبرزجمهر إلى كسرى لما سأله ذلك

اعلم أنه ما ظفر الناس ـ ملوكهم وسوقتهم ـ بشيء هم أحظى به وأسعد ولا هو لهم أزين وأحمل من التقوى لله – عز وجل – والتعظيم له، والتصغير لأنفسهم والإقرار له بالعزة ولأنفسهم بالذلة، واليقين بالفناء منهم والرجوع إليه، وأن تنصرم أعمارهم إلى غاية اجلهم في طلب الحق وما يجب عليهم معرفته وينبغي لهم أحكامه من العلوم والمعارف، والعمل بما توجبه عليهم فإنه بذلك يتم هم التوفيق وسلوك سبيل مراشدهم وبلوغ ما يحبون من دنياهم وآخرتهم، وهي السعادة المطلوبة والنعمة المحبوبة. فمن حسنت نيته وخلصت سريرته، ودامت طابته ظفر بمعرفة ما يحق عليه لله تعالى جده ولزم التقوى واتبع سنة الله في عدله وحكمته.

وإنما يصلح الملك لمن حسنت سياسته لرعيته وكان ما يصلحهم آثر عنده من بلوغ هوى نفسه وطلب النفع للخاصة والعامة. وخير الملوك أشكرهم لله تعالى وأقضاهم بالحق وأرأفهم بالرعية وأحسنهم نظرًا فيما يصلح البلاد ويعمرها؛ وليس يتم ذلك إلا بالعقل. وأنفع الملوك للرعية مُلكًا من عمل بالنسبة المعروفة فيهم، واستعمل خيارهم، وحقن دماءهم، ونفى العدو عن أرضه. وأسعدهم من ساس الناس في الزمان الذي قدر لهم بالرخاء والخير المشاع.

وأفضلهم سعادة من كثر علمه ووفق للعمل به. وأحق ما فرح به الخير الذي يصاب منه وما احتاط فيه للرعية بما يستوجب به منهم الشكر، ومن الله الأجر والمثوبة، ليثق به البريء ويخافه المريب. فإن ثقة البريء تزيده اجتهادا ومناصحة، وخوف المريب يزيده رعبًا وهيبة. ومع الاجتهاد بالمناصحة العافية، ومع الخوف والرهبة الاستقامة والطاعة. أحسن أخلاق الملوك أوقرهم عند الغضب وأكثرهم حلما ودعة؛ وأقبح أخلاقهم الحدة وضيق الذرع وقلة الفهم والفظاظة وغلبة البخل والقسوة وقلة الاهتمام بأمر العامة.

وينبغي لذوي السلطان أن يعلموا أنهم لا يقدرون على ألا تنطق العامة بعيوبهم، وألا يتعنوا في ألا يبصر الناس ما فيهم. وليكن اجتهادهم في ألا يكون لهم عيب ولا سبيل للقالة عليهم.

وينبغي ألا يسلط على الناس جهالهم، فإن الجهالة قائد الضلالة، والضلالة قائد البلاء والفتنة، وفي الفتنة الدمار والهلكة.

ويحق على الملوك أن يأخذوا للضعيف من القوى، وللفقير من الغنى بحصصهما من الحق ونصيبهما من العدل. وأن يكونوا للضعيف والفقير أشد نظرًا، وبهم أشد لطفًا، وعن أمرهما أكثر فحصًا، لأن القوي والغني يمتنعان من جل الظلم والضم. فأما الفقير والضعيف فإنما يكون امتناعهما بعز سلطانهما، وقرتهما بمعونته إياهما.

واعلم أن سلطان ملوك الدنيا إنما هو على أبدان ما ملكوا وعلى ما يبدو من ظواهر أمورهم. فأما نياتهم وما يغيب عنهم من أمورهم فلا سبيل لهم عليه لأنه غيب محجوب عنهم. فلا ينبغي للملوك أن يأخذوا الرعية إلا بما يظهر لهم منهم. ويتركون التظني، فإن التظني يدعو إلى التهمة، والتهمة تدعو إلى البلايا.

وأكثر ما ينفع به السلطان صحبة العلماء والاستكثار من العلم، فإن من فضيلة العلم أن صاحبه كلما استكثر منه أحب أن يزداد منه ـ وهذا هو الحرص المدوح.

وقد يلام الناس على شدة الحرص في طلب الدنيا والمال، ويمدحون على شدة الحرص في طلب العلم ومصاحبة العلماء. فازدد بما علمت من العلم ضنًا وابتهاجًا، وعليه حرصًا ودؤوبًا، ولا تحقرن أحدًا وصل إليك علمه فتدع قبوله لاحتقاره، فإن العلم نافع لك من حيث أصبته. واعلم أن لكل شيء عينًا، وعين العلم البيان الواضح. ولا يمنعنك من العلم تقادم السن والكبر، فإنك حقيق بطلبه ما قدر لك العمر، لأن العلم أكثر من أيام العمر. فأكثر قراءة الكتب والنظر فيها لتزداد بصيرة وانتفاعا به. وليس شيء أمر لأهل العلم ولا أشد جدلًا من العمل بالخير والإفشاء له جدًا والاستكثار منه والازدياد فيه. وهم أقل الناس حزنًا بحسن عزائهم عما فاتهم. وأحسن الناس تسميمًا لما ينزل بهم من الله – عز وجل –، فليس للعالم فراغ لغير طلب العلم والخير، وساعة فراغه أن يقدر على الخير ثم لا يفعله. وذلك غبن في رأيه، وزلل في حكمه وعقله. وفراغ العالم إنما يكون في إحمام نفسه إذا كل خاطره وذاق ذرعه بالفكر في استخراج دفائن الحكمة؛ فحينئذ يروح قلبه حتى يعود نشاطه ويجتمع رأيه ويصفو فكره.

شر الزمان زمان يخفى فيه العالم علمه خوفًا من الجهال وإشفاقًا من أن يعاب عليه. اعلم أن أحق من أكرمت وقربت، أيها الملك، من وعظك وقوّم أدبك. فأكْرِم العلماء، وصِلهم، واستمع آدابهم، واحفظ مواعظهم، واحذر من تشبه بالعلماء وليس منهم، فإن هؤلاء هم الأكثرون، فأبعدهم وتوق حديثهم وما يحامون عليه من رياستهم

المزورة. ولا تتبع الهوى، ولا تتعد الحق، ولا تغتم الراحة، ولا تسكن إلى التواني، ولا تستحي من استفادة العلم والتعلم، ولا تغير بدنيا أصبتها، ولا تندم على عرف صنعته، ولا تمل دراسة الكتب فإن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين والعلم بأخلاق ذوي الحكمة الماضين والنبيين وجميع الأمم وأهل الملل. إلا أن أكثر ما رسموه ودونوه فروع لم يبنوا أصولها وعللها، ولم يكشفوا عن أسبابها، وهي أمور محمودة إلا أنها كثيرة لا يضبطها حفظ ولا يحيط بمعرفة جميعها علم. وقد تعاطى الحكماء أصول هذه الفروع فدلوا على أسبابها وعللها، وحصروا الجزئيات في كلياتها. ومن أحكم تلك الأصول استخرج دفائن الصواب من كل مطلوب، واستكشف سرائر الحكمة عن كل مستور. ومن فعل ذلك كان عمره طويلا وإن قصرت أيامه.

حكم تؤثر عن أنُوشروان

كل شيء أنفقته في شهوتك وأصبته منها فاعلم أنك لم تصبه وإنما أصابك وهلك به بعضك. فالعاقل من ترك الهوى ليكون كتاركِ أكلة ليصل إلى أكلات، وكمجتنب فاحشة ظاهرة لتخفى عليه فواحش باطنة، فلا يحال بينه وبينها فتكون حياته فيها أطول وحاجته منها أنجح.

وقال: إذا غلب الهوى العقل صرف محاسن خصاله إلى المساوئ فجعل الحلم حقدًا والعلم رياءً، والجود سرفًا، والاقتصاد بخلًا، والعفو جبنًا فإذا بلغ الهوى من صاحبه ذلك المبلغ تركه لا يرى الصحة إلا صحة جسده ولا العلم إلا ما استطال به، ولا الأمن في قهر الناس، ولا الغنى إلا في كسب المال، ولا الثقة إلا في وجود الكنوز. وكل ذلك مخالف للقصد، مباعد للبغية، مقرب من الهلكة.

وقال: السكر في اثني عشرة منزلة، وليس ينتهي الشراب بالرجل إلى السكر إلا بمعاونة جميعها أو بعضها، وهي: سكر الشباب، وسكر البطر، وسكر الجمال، وسكر الشبق، وسكر الخمر، وسكر الهوى، وسكر القدرة. واعلم أن كظة الطعام سكر، وكثرة النوم سكر، واستعلاء الجهل سكر، واستلاء الهم سكر، وعادة السوء سكر.

وقال: من عدم العقل فلن يزيده السلطان عزًا، ومن عدم القناعة فلن يزيده المال غنى، ومن عدم الإيمان فلن تزيده الرواية فقها. وإنما الإنسان عقل في صورة: فمن أخطأه العقل ولزمته الصورة لم يكن إنسانًا تامًا ولم يكن إلا كتمثال لا روح فيه.

سئل: ما أغنى الغنى؟ قال: نزاهة النفس وملك الهوى.

سئل: أي هيبة تكون أنفع للسلطان في سلطانه وأعم نفعا في رعيته؟ قال: هيبة العدل والنزاهة وحسم بوائق الأشرار وأهل الريب.

قيل: هل السعادة أنفع للملوك، أم العقل؟ - قال: السعادة مقرونة بالعقل، وإنما تتبين آثاره بالدلائل.

سئل: أي الناس أحق بالملك؟ - قال: أشدهم محبة لإصلاح الناس وأعلمهم بالتدبير. قيل: ثم من؟ قال: أشدهم سلطانًا على هواه وأقهرهم له.

قيل: فما الذي يعرف به الوالي رضا الرب عنه؟ - قال: ما رضي الله عنه وال لا يدع لذاته وهواه ولا يترك شهواته في إصلاح رعيته وبسط العدل فيهم ورفع الظلم عنهم.

سئل: ما السرور الذي يغتبط به الملك؟ - قال: السرور للملك وغيره ما كان معه رجاء لحسن معاده. فأما ما سوى ذلك فهو مطرح عند ذوي الألباب.

قيل: وهل شيء من السرور توجد له لذة إذا كان مفردا من هذا الرجاء؟ - قال: لا أعلم شيئا أفرد من الرجاء له لذة إلا ما يجده أهل الشفاء من لذة التشفي من الأحقاد.

قيل له: ما القناعة، وما التواضع؟ - قال: أما القناعة فالرضا بالقسم، وسخاء النفس عما لا ينبغي الرغبة فيه. وأما التواضع فاحتمال الأذى من كل أحد، ولين الجانب لمن هو دونك.

قيل: وما ثمرة القناعة، وما ثمرة التواضع؟ - قال: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة.

سئل: ما العجب، وما الرياء؟ - قال: العجب أن يظن المرء بنفسه ما ليس عنده حتى يرى رأيه صوابا ورأى غيره خطأ. والرياء أن يتصنع للناس ويظهر لهم الصلاح وهو خلو منه. قيل: فأيهما أشد له ضررا؟ - قال: أما على نفسه فالعجب، وأما على خلطائه فالرياء لطمأنيتهم إليه في مهماتهم بما يظهر لهم من نفسه وليس تؤمن منه الخيانة.

قيل: ما الشره والبخل، وأيهما أعظم ضررا؟ - قال: الشره طلب العبد غير حقه، والبخل ضنه بالحقوق عن أهلها، والشره أضرهما، لأن الشره أصل الشر ومعدن الظلم. ومن الشره البخل؛ لأنه لا يشبعه من الدنيا شيء.

قيل له: ما بذر جميع الفضائل؟ - قال: العقل والعلم. قيل: فهل فوق العقل والعلم شيء؟ قال: التوفيق يزينهما، والخذلان يشينهما.

قيل: ما الصبر المحمود؟ - قال: الثبات على كل أمر كريم وذمّ الهوى عن كل أمر لئيم. قيل: ثم ماذا؟ قال: ألا تغيرك السراء ولا الضراء فتنقلك من حميد إلى ذميم. قيل: ثم ماذا؟ - قال: القوة على الهوى عند إسراف الطمع، والقهر للغضب في حال غليان الغيظ. قيل: ثم ماذا؟ - قال: احتمال كل كريهة فيما حيز به الفضل. والصبر له أربعة مواطن: ثبات، وكف، واحتمال، وإقدام: فالثبات: على الكرائم، والكف: عن المحام والمآثم، والاحتمال: للوازم فيما يوجب الفضل ويظهر المروءة، والإقدام: على الحلائل التي فيها النجاة والفوز.

وقال: الصبر من الشكر، والشكر من الفضيلة. وهما نوعان: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله تعالى. فالصبر على طاعة الله أداء الفرائض، والصبر عن معصية الله اجتناب المحارم.

سئل عن التدبير، قال: ما فيه طب العالم. قيل له: وما طب العالم؟ - قال: معرفة الدواء والداء في الكل. قيل: فهل فوق هذه الغاية غاية في التدبير؟ - قال: نعم؛ قيل: وما هي؟ - قال: بلوغك من جزئي العلم والعمل ما تتقوى به على استخراج الفضائل والمنافع في الأشياء حتى تبلغ الغاية منهما. وذلك غير يسير إلا بولايته ومشيئته.

قيل: وما علامة السعادة؟ - قال: من رضى بقضاء الله في المحبوب والمكروه، وقنع بالبلغة من الدنيا، وعلق قلبه بذكره، وأخرج مطامع السوآت من قلبه ـ فهي علامة السعادة.

قيل: ما محض الكرم؟ - قال: الوفاء بالذمم.

قيل: فما محض اللؤم؟ - قال: التجني، بمنزلة الذئب الذي هم بأكل السخلة لعامها فقال لها: أنت شتمتني عام أول.

قيل: فما الأدب النافع؟ - قال: أن تتعظ بغيرك ولا يتعظ غيرك بك.

قيل: ما توفير العقل؟ - قال: أن تطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر.

قيل: فما بالكم أكببتم على النظر في الكتب إكبابًا كاد الناس يردون جميع رأيكم إلى ذلك ويحيلون عليه تدبيركم؟ - قال: ذلك أنا لا نريد العلم للفخر بل نريده للانتفاع به.

قيل: ما بالكم تحملون على أنفسكم من مؤونة الشفقة ما كان ينغص عليكم ما أنتم فيه؟ - قال: ذاك لعلمنا أنه ليس من سرور الدنيا شيء يؤمن عليه الآفات والغير.

قيل: فما بالكم تطرحون من المدح ما لم يكن مطرحًا عند غيركم من الملوك؟ قال: لكثرة من رأينا من الممدوحين الذين كانوا بالذم أولى منهم بالمدح.

قيل: أي الأشياء أمر مرارة؟ - قال: الحاجة إلى الناس إذا طلبت من غير أهلها.

قيل: أي الأشياء أخلف؟ - قال: مشورة الجاهل.

قيل: أي التفريطات التي تبتلون بها أشد عليكم؟ - قال: أن نقدر على خير نعمله فنؤخره، وربما كانت ساعة فلا تعود.

قيل: فأي الحالات أنتم فيها أخوف لعدوكم؟ - قال: أشد ما نكون فيه ثقة بأنفسنا، وأقل ما نكون فيه ثقة بربنا واتكالا على ملكنا وجَدّنا.

قيل له: سمعناكم تقولون: العاقل يدع السعي فيما يصعب عليه الموت عند تزوله به، ويسعى فيما يهون عليه يوم حلوله، فأردنا أن نتعرف ذلك؟ قال: أما الذي يصعب الموت عند نزوله فالشهوات والأهواء التي يسلس المرء لقيادة فيها، وهو من الانتفاع بها في وقت حاجته إلى المنافع صفر. وأما الذي يهون عليه الموت وألمه فما قدم من عمل صالح تعود عليه منفعته يوم لا يأخذ بيد المرء إلى قرة عينه إلا العمل الصالح.

قيل: سمعناكم تقولون: ثلاثة أشياء لم نرها كاملة في أحد فقط؛ فما هي؟

قال: اليقين والعقل والمعرفة.

قيل: سمعناكم تقولون: أربعة أشياء ليس ينبغي للعاقل أن ينساهن على كل حال؛ فأحببنا أن نعلم ما هي؟

قال: نعم، سأخبركم بها فلا تغفلوها: فناء الدنيا، والاعتبار بها، والتحفظ بتصرف أحوالها، والآفات التي لا أمان منها.

قيل له: سمعناكم تقولون: من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به مكروه، فيكون هو الجاني فيه على نفسه؛ فأردنا أن نعلم تلك الأشياء.

قال: العجلة، والعجب، واللجاجة، والتواني. فثمرة العجلة الندامة، وثمرة العجب البغضة، وثمرة اللجاجة الحيرة والهلكة، وثمرة التواني الفاقة والضر.

سئل: هل يقدر الإنسان على عمل البر في كل حين؟

قال: نعم، لأنه لا بر أبلغ من الإخلاص في الشكر لله -جل ثناؤه- وتطهير النية من الفساد.

قيل: هل يقدر الإنسان أن يعم الناس بخيره ومعروفه؟

قال: أما بكثرة مالِه، فلا. ولكن إذا أحب لهم الخير بنيته وقلبه فقد عمهم بخيره.

سئل: كيف للمرء أن يعيش آمنا؟

قال: أن يكون للذنوب خائفًا، ولا يحزن من المقدور الذي لا بد أن يصيبه.

سئل: ما الرأي الجيد في أمر المعاش؟

قال: من كان يريد عيش السرور، فالقناعة؛ ومن كان يريد عيش الذكر، فالاجتهاد في الصلاح وعموم الناس بالخير. ومن أراد سعة الدنيا وفضولها، فليوطن نفسه على الإثم والغم والنصب.

قيل: فأي الاجتهاد أعون على اكتساب محمود الذكر؟ وأيه أعون على إصلاح المعيشة؟ وأيه أعون على الأمن؟

قال: أعونه على الذكر المحمود الانصاف من النفس، ثم اجتناب الظلم. وأعونه على الأمن ترك الذنوب. وأعونه على صلاح المعيشة الاجتهاد على الحق ورفض الشر والحرص.

قيل: أي الرجال العاقل؟ وأيهم الكيس؟ وأيهم الداهي؟

قال: العاقل هو البصير بما يحتاج إليه في أمر معاده، المنفذ لبصيرته بعزيمته. والكيس هو العالم بما لا بد منه ولا غنى عنه في أمر دنياه. والداهي ذو الفطنة في التلطف لما يحتاج إليه من أبواب المداراة فيما بينه وبين جميع الناس.

قيل: هل للهو وقت؟

قال: إن كان، فحين لا يشتعل به عن صلاح معاده وما فيه مصلحة معاشه.

قيل: أي الدعة أهنأ؟

قال: ما كان منها بعد إحكام المهمات.

قيل: أي الناس أكمل سرورا؟

قال: أما في الدنيا فمن لم يكن به حاجة إلى غيره فيما يعنيه، ولم يملك رقبته من غير ملك. وأما في الأخرى فأوفرهم حسنات.

قيل: أي الناس أسكن؟

قال: من لم يكن به إلى هلاك أحد ولا بأحد إلى هلاكه استعجال.

سئل: أي علم الوالي أنفع له؟

قال: أن يعلم أنه لا قدرة له على سد أفواه الناس عن عيوبه ومساوئه، فعند ذلك لا يلتمس إسكاتهم بالوعيد والغلظة، ولا يلتمس رضاهم وانتقالهم عن ذكر مساوئه وعيوبه إلا بإصلاح تلك العيوب عن نفسه ورأيه وأخلاقه.

سئل: ما ثمرة العقل؟

فقال: ثماره الشريفة الكريمة كثيرة. ولكن سأحصي لكم ما يحضرني منها. فمن ذلك أن يحرز الإنسان نصيبه بأن يعقد نيته على مكافأة كل ذي نعمة، ويبلغ من ذلك الفعل غاية القدرة. ومنها أن لا يضيع التحفظ والاحتراس من المعاصي. ومنها أن لا يسكن من الدنيا إلى حال، ولا يطمعها في التفريط من الاستعداد. ومنها أن لا يكون لشيء من الشر مقتنيا. ومنها أن لا يترك ألطافه لمبغضه. ومنها أن لا يقتدي بالجهال ولا في منفعة جسمية من منافع الدنيا؛ فأما منفعة الآخرة فلا حظ للجاهل فيها. ومنها أن لا يعمل عملا إلا بعد التثبت والرفق والأفاة. ومنها أن لا تبلغ السراء به بطرا ولا الضراء استكانة. ومنها أن يسير بينه وبين عدوه السيرة التي لا يخاف معها حكم الحاكم، وفيما بين صديقه وبينه بالسيرة التي لا يحتاج معها إلى العتاب.

ومنها أن لا يستصغر أحدا عن التواضع له، ولا ينقص أهل الفقر عن أهل الغني، إلا أن يكون الغني عالما والفقير جاهلا. ومنها أن لا يجل أهل الدعارة إذا كانوا قرباء أغنياء أو قرناء مداخلين. ومنها أن لا يكون مبتدئا بالأذى ولا مكافئا به، وإن انتصر لم يجاوز في الانتصار حد العدل والحق. ومنها أن يكون الهوى عنده في جنب العقل لغوًا. ومنها أن لا يستوطئ العجز، ولا يأنف من السعي في الرشد. ومنها أن لا يجرئه ماضي ذنب سلف وسلم من عاقبته على معاودة مثله. ومنها أن لا يغلب في شيء من حالاته على الحلم والوقار، وأن لا يفرح بمدح المادح بما يعلم أنه خلو منه. ومنها أن لا يحقد على من عابه بما يعرفه من نفسه. ومنها أن لا يقدم على أمر يخاف أن تعقبه ندامة. ومنها احتمال نصب البر، وإلحام النفس عن كل لذة تخالط مأثمًا.

سئل: ما الذي يجب على الملوك للرعية؟ وما الذي يجب للرعية على الملوك؟ قال: للرعية على الملوك أن ينصفوهم وينتصفوا لهم، ويؤمنوا سر بهم، ويحسوا ثغورهم. وعلى الرعية للملوك النصيحة والشكر.

سئل: ما السرور؟ وما اللذة؟ قال: السرور ما كان معه رجاء الآخرة، وما سوى ذلك من السرور لهو وزوال، وهو إلى الاضمحلال.

سئل: هل يكون لهو بلا إثم؟

قال: لا.

سئل: ما الزهو، وما الصلف؟

قال: الصلف قد يمدح به في بعض الحالات. وذلك أن صاحبه يأنف من الشيء الحقير ومن التعرض له. والزهو لا يمدح به لأن صاحبه يرفع نفسه فوق منزلتها، حتى ربما ترفع عن رد السلام على من دونه.

قيل: فما الرياء، وما التصنع؟

قال: الرياء أن يكون رديئًا ويظهر الخير والجميل. والتصنع أن يظهر من نفسه خلاف ما هو عليه. قيل: فأيها شر؟ قال: أما في نفسه فالتصنع، وأما في العمل فالرياء.

سئل: ما الذي يرد اشتعال الغضب؟

قال: ذكر الغضب من الرب - عز وجل - عند عصيان المربوب وتعاطيه الفواحش، وحلمه عنه.

قيل: ما أربع خلال: قتلم ليس ينبغي أن يرتاب بهن؟

قال: طاعة الله تعالى، وإيثار الآخرة على الدنيا، وطاعة الملك فيما يوافق الحق، وأن لا يشك في ثواب المحسن، ويفوض أمر المسيء إلى خالقه.

قيل: سمعناكم تقولون: هلاك الملوك في الدنيا والآخرة في خصلة لا ترتفع معها حسنة. فنحب أن نعرف هذه الخصلة حق معرفتها.

قال: استصغار أهل العلم والفضل.

قيل: سمعناكم تقولون: من كره العار فليجتنب خمس خصال؛ فما هي؟

قال: نعم، الحرص، والشح، واحتقار الناس، واتباع الهوى، والمَطْل بالعِدَة.

قيل: فما العار عندكم؟ وهل عار أشد مما وصفتم؟

قال: نعم! الكبائر.

قيل: وما الكبائر؟

قال: منع الواجد؛ وأشد منه أن يعد ويخلف. والموبقات وهي أن تمد عينك إلى ما لا تملك ولا حق لك فيه. ورأس الكبائر الاستهانة بحدود الله تعالى.

قيل: أي العيش أرغد وأنعم؟

قال: عيش في رخاء، وكفاف بلا فقر ولا غنى.

قيل: كيف للمرء أن يعيش آمنا؟

قال: يصبح مطيعا لله، ويمسي مجتهدًا في طاعته، راغبًا في عبادته.

سئل: كيف للمرء أن يكون في جميع حالاته ذاكرًا لله تعالى ولا يكون ساهيا؟

قال: ذاك إذا كان للإثم في جميع حالاته حذرا وجلا.

وكان يقول: البخل أحسن من المطل؛ لأن اليأس يقطع الأمل والطمع، والمطل يكدر العطاء وإن جلت منفعته.

سئل: ما الذي يحتاج إليه صاحب الدنيا؟

قال: السعة من غير تبعة، والسرور من غير مأثم، والدعة من غير توان ولا تضييع.

وقال: موت الأبرار راحة لهم، وموت الأشرار راحة للعالم.

سئل عن رجل يبلى بقطيعة إخوانه: ما علة ذلك؟

قال: ذاك من قلة وفائه وترك إيجابه لهم ما أوجبوه له، وقد يكون من قلة احتماله ذلة إخوانه.

سئل عن الذنوب والشكر - قال: من صح شكره لله تعالى برئ من الذنوب.

قيل: أي الذنوب أعظم على الإنسان؟

قال: أن يخفى عليه عيبه.

قيل: أي الأشياء أحق أن لا ينسى؟

قال: أما عند أهل العقل فاقترافهم الذنوب، أما عند أهل الجهل فالأوتار.

قيل: أي الأشياء أعون للحسود على ترك الحسد؟

قال: أن يعلم أن ذلك يحمله على نفسه، وأنه لا حجة له في نقله نعمة عن موضعها، وأنه لا ينتقص يحسده إلا نفسه.

قيل: فهل يقدر الحاسد أن يضر المحسود؟

قال: كيف يقدر على ذلك، وهو لا يصل إلى ذلك بشر يصل إلى نفسه؛ وإن زالت نعمة المحسود لم تصل إليه.

قيل: أي شيء يوسم به الملوك أزين؟

قال: التعفف.

قيل: عماذا؟

قال: عن الحرمات.

قيل: ثم من؟

قال: من يعف عما في أيدي الرعية.

قيل: ثم ماذا؟

قال: أن لا يعرف الحرص حتى ينسب إليه، ولا بالجمع حتى تذهب عنه بهجة الوقار.

قيل: فما الذي يجمع للموك الحمد؟ وما الذي يجمع لهم الحزم؟ وما الذي يجمع لهم الذم؟

قال: أما الأمور المحمودة ففي خصلة واحدة وهي إذا هموا بالخير أمضوه، وأما الحزم ففي خصلة واحدة وهي الاستظهار في الأمور. وأما الأمور المذمومة ففي خصلة واحدة: إذا غضبوا أقدموا.

قيل: فما الخصلة الواحدة الجامعة لنفي قالة الحسدة والأعداء عن الملوك؟ قال: أن يكون متعلقا بمجالسة العلماء وأهل الفضل، آخذًا بمحاسن أفعالهم.

قيل: فما الخصلة التي تلصق الباطل وما يلحق به من المساوئ؟

قال: مجالسة أهل الريب وأهل الدعارة والجهالة.

قيل: ما نهاية العقل الإنساني؟

قال: استصغار الدنيا وقدرها عندها يعاين من نفيس أمر الآخرة، ورفض ما فيها من الخدع باللذات التي لا يأمن فيها من التبعات.

قيل: فهل للملوك عبرة في أنفسهم ليست للسوقة؟

قال: نعم للتفكر في سرعة انقضاء دولتهم وقصر أعمارهم وإفراط رغبتهم في الأوزار.

قيل: فالتمتع والتلذذ بالملوك أقبح، أم بالسوقة؟

قال: بل بالملوك حين عرفوا قصر الاستمتاع ممن مضوا، وكثرة التنغيض والعوارض في نعمهم. قيل: أي مناقب المرء زين له؟

قال: الحلم عند الغضب، والعفو عند القدرة، والجود بغير طلب الثواب، والاجتهاد للدار الباقية لا للفانية.

قيل: أي الناس أحق بالاتقاء؟

قال: السلطان الغشوم، والعدو القوي، والصديق المخادع.

قيل: أي العيوب أعسر إصلاحًا؟

قال: العجب واللجاجة.

قيل: أي الأشياء أولى بالاجتناب؟

قال: أجلها نصيبًا من الهوى.

قيل: أي الأشياء أقل؟

قال: الوادُّ الناصح.

لما استتم أنوشروان كتاب "المسائل" قال في آخره: قد كنت للعقل في الحداثة مؤثرًا، وللعلم محبًا، وعن كل تعليم مفتشًا؛ فرأيت العقل أكبر الأشياء وأجلها، والخيم الصالح خير الأمور، والحلم أزين الخصال، والمواساة أفضل الأعمال، والاقتصاد أحسن الأفعال، والتواضع أحمد الخلال ـ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

حكم لبهمن الملك[١]

كان بهمن الملك مشغوفًا بمحاسن الكلام، يقدم به ويؤثر من أجله ندماءه وخلطاءه. فجمع علماء أهل زمانه وأهل المعرفة المشهورين بالحكمة والفهم، ثم قال لهم:

إني جمعتكم لمهمٍّ تفكرت فيه، ولأمور أحببت معرفتها وأنا سائلكم عنها، فليجتهد كل رجل منكم رأيه بالمبالغة من عقله وفهمه بلا عجلة، ولا مبادرة إلى الجواب بلا رواية. أخبروني عن أعز الأشياء وأرفعه لخساسة الخسيس الذي لم ينهضه قديم. فأجمعوا أنه الصلاح والعلم، وأنهما يزيدان في شرف الشريف، ويقعدان العبيد مقعد الملوك. فقال الملك: هذا رأس أمور الدنيا والدين إذا كان بمساعدة العقل، فإن البناء بأساسه؛ لأن الأساس الفهم، وقوامه الرأي الأصيل. ولا رأي إلا بمعرفة العلم، ولا أساس للعلم إلا بالعقل.

ثم قالوا: أقسام الأشياء مخلتفة: فمنها حارس، ومنها محروس، فالمحروس المال، والحارس العقل. ومنها مسلوب، ومنها محفوظ. فالمسلوب المال، والمحفوظ العقل. فالعقل يحرسك وأنت تحرس المال. والمال لا يحفظ من سرقة ومن خيانة ومن جور سلطان وآفات أخر كثيرة سريعة إليه، والعقل لا يناله شيء من هذه ولا يغلبه شيء، ولا يغضبه غاصب، ولا يضره كيد حاسد ثم إن صاحب العقل إن حرم المال عاش بعقله؛ وصاحب الجهل لا يعيش بماله. وذلك أن من لم يعش بعقله حرم معرفة الفصل بين الحسن والقبيح، والنظر في عواقب ما يجمل ويحل، وما لا يجمل ولا يحل. ولا خير في حياة من فاتته هذه الخصال، لا سيما الملوك، فإنهم إلى هذه الأشياء أحوج، إذ هم

---

(١) بهمن بن اسفنديار السادس عشر من ملوك الشاهنامه، والسادس من الملوك الكيانيين وذكر اسمه في الأساطير الإيرانية الدينية والتاريخية وفي بهمن نامه أيضاً.

و أصل بهمن في الأفستا قهو- مانو أى الفكر الطيب. وهو أحد القوى الست (أمِشَسپنتا) التي تلى إله الخير أهرامزدا. ويسمى اليوم الثاني من كل شهر من المشهور الفارسية باسم بهمن لأنه الملك المسيطر عليه. وفي الأفستا فصل مسمى باسمه. وله في أدعية الثلاثين يوما(سى روزه) دعاء أوّله : « نقرّب إلى بهمن، الأمشسپنتا، نقرّب إلى السلام الودود النفَس، والذي هو أقوى على الإهلاك من المخلوقات الأخرى كلها».

الساسة والرؤساء، وسائر الناس أتباع؛ وهم إلى إصلاح أنفسهم أحوج، إذ كانت الرعية إنما تصلح بصلاحهم؛ وفساد الناس يكون بفسادهم، فلا قوام للرعية إلا بالراعي، ولا قوام للبدن إلا بالرأس، ولا قوام للملك إلا بالهيبة، ولا هيبة للملوك إلا بالعدل.

وحاجة الأدب والمروءة إلى العقل كحاجة البدن إلى الغذاء، وحاجة البلد إلى العمارة والماء. فالآداب والمروءات محتاجة إلى العقل، والعقل غني عنها. ويدل على العقل حسن منافع العقل في اجتناب الخطايا. والسعادة مقرونة بالعقل: فمن رزق العقل دله على أسباب السعادة، ومن يرزق السعادة لم تبق له غاية يطلبها؛ لأن السعادة غاية كل مطلوب.

وقال رئيس القوم: علامة العقل أن يرى العبد حارسا لنفسه من نفسه، ولأناته من بادرته، ويروض صعب الهوى حتى يذله للعقل، فإن العقل والهوى مختلفان: اختلفا على هذه النفس في موافقتها ومخالفتها: فالعقل لها شجن، والهوى لها سكن. وذلك أن الهوى يهدي إليها الشهوات واللذات، والعقل يمنعها من ذلك إلا فيما يحل ويجمل، ويحذرها من العواقب. فالنفس إلى ما قارب الهوى أسرع، ومن كل ما يثقل عليها أجزع.

ثم قال لهم الملك: اتفقوا على كل تجمع المكارم في إيجاز وإحاطة بإرادة المريد ذلك. فابتدأ رئيس القوم، فقال: من استصغر كبير ما يؤتي من المعروف وستره، واستكثر قليل الشكر من المصطنع، فقد استوجب الثناء وأحسن مجاورة النعم.

وقال آخر: من ابتدأ المعروف من غير أن تبذل الوجوه، وإن لم يبتدئ به رد المتعرض بماء وجهه، فقد استحق الثناء.

وقال آخر: أيها الملك، الكلمة الجامعة للمكارم: من لم تبطره النعمة إذا أصابته، ولم يحسد عليها إذا أخطأته.

فقال لهم الملك: قد قلتم فأحسنتم. ولكن: من أخذ بمجامع المروءة واحتوى على الشرف فليترك الانتصار وهو قادر. وأبلغ من ذلك: احتمال الكلمة الموجعة عن أهل القلة، والحلم عن أهل الذلة، والعفو عند القدرة.

وقال آخر: إني لما فهمت أخبار زماني، ورعيت الآداب، وقاسيت طبقات الناس تنبهت على أمر عظيم، وأشرفت على سر من الأخلاق دفين، وصلت إليهما بفراغ من

القلب لهما، وعناية من الفكر بهما. وذاك أني كنت رجلا نجوت من واحدة، وذهبت إلى اثنتين، وكانت فيّ ست خصال: فأما التي نجوت منها فقلة الشهوة وحب الدنيا. وأما الخصلتان فإني وكلت نفسي بحفظ العير، وصرت من ممر كل يوم على وجل. وأما الخصال الست: فقمعي للحسد إذا انهض وتحرك، وقهري للشهوة إذا مالت إلى خلاف الحق، وإماتتي الضغائن والأحقاد، والصبر الجميل على ما له عاقبة جميلة عند الحوادث والنوازل، وسلامة طبعت عليها، وخفة مؤونة على الناس. وبعض هذه الخصال أعانتني على بعض: فمنها ما وجدته في الخلقة طبعًا من غير تكلف، ومنها ما أصلحته بقوة الله تعالى وتداركته بالرياضة والأدب.

وقال آخرُ وصية: خذ من نفسك عدة لما تريد دركه بعدل لا تشوبه خيانة، وصدق غير مدخول؛ ورُمّ مطلوباتك بالإنصاف، ثم أنا زعيمك بالانصاف، فإنما عوقب من عوقب في العاجل بطلبهم ما أحبوا واشتهوا بالجور، وسعيهم في جسيم الأمور بالباطل وكذلك لم ينجبوا فيما قصدوا ورجعوا خائبين. ثم حافظ على أحسن ما عرفت به عند أهل العقل والمعرفة، وتزيّد فيه؛ وإياك أن تتعرض لأمر مذموم بدالة ما سبق لك إلى الناس من محمود عمل، ويظن أن حسناتك تستغرق سيئاتك، فإن القليل من الإساءة في القول والفعل يمحق كثيرًا من الحسنات.

* * * * *

وكان من سيرة قدماء الفرس أن يكتبوا في نواحي مجالسهم أربعة أسطر: أولها عندنا: الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف؛ والثاني: المحسن يجازى بإحسانه والمسيء يكافأ بإساءته؛ والثالث: العطيات والأرزاق في حينها وأوقاتها؛ والرابع: لا حجاب عن صاحب ثغر ولا طارق ليل.

وكان قدماء الفرس لا يولون الثغور إلا من تكاملت فيه أربع عشرة خصلة من أخلاق الحيوانات، وهي: أن يكون أسمع من فرس، وأبصر من عقاب، وأهدى من قطاة، وأحذر من عقعق، وأجرأ من أسد، وأوثب من فهد، وأروغ من ثعلب، وأوقح من ذئب، وأسخى من لاقطة الديك، وأقدم من نمر، وأجمع من ذرة، وأحرس من كلب، وأصبر من حمار، وأطوع من جمل.

وفي عهد ملك من ملوك الفرس لابنه: لا تحقرن ذنبا، ولا تطلبن أثرا، ولا تمالئن عدوًا ولا حسودًا، ولا تصادقن نمامًا، ولا تعينن لئيمًا فيبطر، ولا تسلطن دنيئًا، ولا تفرطن في طلب الأجر، ولا تعينن غاويًا، ولا تركنن إلى شبهة، ولا تردن سائلا، ولا ترضين للناس إلا ما ترضاه لنفسك. واعلم أن للعمال جزاءً وللأمور تبعات، فكن على حذر؛ ولا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعرًا، ولا تعدن وعدًا ليس في يدك وفاؤه.

ولما جلس حمشيد على سرير ملكه في أول أيامه اجتمع إليه وجوه أهل مملكته ووقف وفود الملوك حوله وأرادوا ان يمتحنوا عقله وسيرته فقام الوزراء والعظماء، فقالوا: أيها الملك، عشت الدهر وملكت الأقاليم. إن رأيت أن تمثل لنا تمثالا نعمل عليه ونقتصر في إنفاذ الأمور عليه؟

فقال لكاتب رسائله: إن كتابك لساني والمخبر عن غائب أمري، فاختصر الطريق إلى الفطنة، وأحط بحدود الأمور، وابدأ بالأولى فالأولى. وقال لصاحبه خراجه: إنك عدل فما بيني وبين رعيتي، فأجرِ الأمور على مواردها، ولا تقصر عن إتقانها، ولا تكل إلى غيرك ما يحيط به نظرك ويبلغه علمك.

وقال لصاحب جيشه: إنك الحصن من العدو، والمؤتمن على عدة الملك، فاستدع المناصحة بالرغبة والطاعة بالرهبة، واحترس بالتيقظ، وعاجل مواضع الفرص.

وقال لصاحب حرسه: إنك جُنتي التي أجتن فيها، وعيني التي أنظر بها، فلا تدع لاتحفظ، ولا تكن أبدا إلا على أهبة، ولا تستبطن مريبا.

وقال لصاحب شرطته: إنك ظلي في رعيتي، والقائم بسوط أدبي. فألبسهم الأمن بالبراءة، واشعرهم المخافة بالريبة. ولا تخف في إيثار الحق لومة لائم.

وقال لحاجبه: إنك عدل على مراتب خاصتي، والحافظ لمكانتهم مني، فانظر إليهم بعيني، واجعلهم على قدر منازلهم عندي، وضعهم في كل حالاتهم في اللوم والإبطاء عن بابي؛ ثم ازرع في قلوب الحميع محبتي.

ثم قال لخادمه: إنك أمين على ما به حياة الرعية، وبصلاحه صلاح الملك والأجناد: فاحفظ الوارد، واستبطئ الغائب، وعجل الجاري اللازم، ووامر في غير اللازم.

وقال لصاحب الخاتم: إن التدبير إنما يصدر عنك، والأمر إنما ينفذ بك، فاقتصر بحدود كتبي على مواقع أمري، ولا تنفذ منها شيئا إلا عن علمي.

وقال لصاحب ديوان النفقات: إنك والي خاصة كل ما يعنيني، والقائم بما يعود نفعه وضره عليّ، فاحتط على أحكام ما تدعو إليه الحاجة في النفقة، واحذف نوازع ما تتوق إليه الشهوة.

وقال لصاحب الزمام: أنت مستودع سري، وذو أزمة أمري، وبمكان من رأيي - فأمت بالكلمات سرى، وتحمل ثقل مخالفتي، ولا تأخذك بأحد رأفة في حظي.

ثم قال لجميعهم: إني قد عرفت ما قد حاولتم بمساءلتكم إياي ما سألتموني وإن كنتم أظهرتم أنكم إنما أردتم أن أقفكم على مثال تحتذون عليه. وإنما أطلعتكم على علمي بدفائن قلوبكم لتعلموا أني لم أحقد عليكم إذ أظهرته لكم، ولتجددوا شكرًا على ما أنعم به عليكم من عفوي عنكم، واعلموا أنه لا يدرك بأعمال المذنبين ثواب المحسنين.

* * * * *

قال هرمز الملك لخرشيد - وكان عامله على الأهواز وأمينه على كور دجلة، والناظر في قضائهن -: ما أعرف لك عيبا غير العظمة، ولكن التعظم عيب واحد يقترن به عشرة عيوب- قال: وما هن أيها الملك؟ - قال: العجب: وعاقبته بعض الناس، والتفتيش عن الأحساب وتركه حسب نفسه: وعاقبته طلب الناس عيوبه، والاستحياء من التعلم: وعاقبته نقصان الأدب، وطلب الجلوس في المحافل للترتب: وعاقبته أن لا يبقى له صديق إلا صار له عدوًا يطلب عثراته ويفشي عليه لكي يعرف بالنذالة، وتجاوز قدره وتعدي طوره وجرأته على السلطان: وعاقبته جر الهوان على نفسه، وتركه حقوق الناس في العبادات والتسليم عليهم وما أشبه ذلك من الحقوق: وعاقبته المذلة ودعاء الناس إلى السخرية والاستخفاف به، وتركه الاستشارة: وعاقبته الندم بعد الفوت، وطلبه إلى الناس أن يعظموه: وعاقبته الاستهانة به، وبغضه أهل الفضل: وعاقبته التصير بنفسه وبغض أهل الفضل إياه.

* * * * *

وقال حكيم الفرس آذرباذ: أمور الدنيا مقسومة على خمسة وعشرين سهمًا: خمسة منها بالقضاء والقدر، وخمسة منها بالاجتهاد والعمل، وخمسة منها بالعادة، وخمسة منها بالجوهر، وخمسة منها بالوراثة، فأما الخمسة التي بالقضاء والقدر: فالأهل والولد والمال والسلطان والعمر. وأما الخمسة التي بالاجتهاد والعمل: فالعلوم - وأشرفها العلم بالله - عز وجل - وجوده -، ثم العمارات، ثم الصناعات وأشرفها الكتابة، ثم الفروسية والفقه. وأما الخمسة التي بالعادة: فالأكل والنوم والمشي والجماع والتغوط. وأما الخمسة التي بالجوهر: فالخيرية، والتواصل، والسخاء، والثقة، والاستقامة. وأما الخمسة التي بالوراثة: فالذهن، والحفظ، والشجاعة، والجمال، والبهاء.

وقال أيضًا: التأني فيما يخاف عليه الفوت أفضل من العجلة إلى إدراك الأمل.

وقال أيضا: أيها الشديد! احذر الحيلة. أيها العجول! خف التأني أيها المحارب! لا تفكر في العاقبة.

فصل من كلام حكيم آخر فارسي

قال: لكل شيء داعي وسبب، فسبب طيب العيش مداراة الناس، وسبب المداراة وفور العقل، وسبب السر الستر، وسبب المزيد الشكر، وسبب زوال النعمة البطر، وسبب العفة غض البصر، وسبب النشب الطلب، وسبب العطب الغضب، وسبب الزينة الأدب، وسبب الفجور الخلوة، وسبب البغضة الحدة، وسبب المحبة الهدية، وسبب الدعة الضعة، وسبب المودة والإخوة البشاشة والبشر، وسبب القطيعة كثرة المعاتبة، وسبب الفقر السرف، وسبب الثروة حسن التدبير، وسبب المقت الخلف، وسبب البلاء المراء، وسبب الهوان الطمع، وسبب الثناء السخاء، وسبب النجاة الصدق، وسبب النجاح الرفق، وسبب المذلة المسألة، وسبب الحرمان الكسل، وسبب الهلاك المداعبة، وسبب العلو حب الرياسة، وسبب الغدر الركون، وسبب النبل ترك المُزْرِية، وسبب الأموال الحلول بساحة الملوك، وسبب البغض الصلف، وسبب الميل الملق، وسبب الخير كله - ما قيل وما لم يقل - العقل.

* * * * *

وقال آخر: لا تستهن بالمال وتثميره، فإن المال آلة المكارم، وعون على الدهر، وقوة على الدين، ومتألف للإخوان. وفقد المال معه قلة الاكتراث من الناس؛ وتتبعه قلة الرغبة إليه والرهبة منه. ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استخف به الناس جدا.

* * * * *

وقال آخر لتلميذه: ضعوا مَن رفعته العامة، وارفعوا من وضعته، فإنهم لا يفعلون شيئا بعقول تامة ولا بأفهام راجحة ولا بعزائم صحيحة.

* * * * *

وقال آخر: لسنا بالكد في طلب المتاع الذي نلتمس به دفع الضر والعيلة بأحق منا بالكد في طلب العلم الذي نلتمس به صلاح الدين والدنيا. اعلم أن الواضعين أكثر من العارفين، والعارفون أكثر من الفاعلين. وليس كل ذي نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى لبيبا، ولا أن يوصف بصفات أولي الألباب. فمن رام أن يجعل لنفسه حظا منه فليأخذ أهبته، وليؤثره على أهوائه فإنه قد رام أمرًا جسيمًا لا يصلح على الغفلة، ولا

يدرك بالمعجزة، ولا يصبر على الأثرة، وليس هو كسائر أمور الدنيا وسلطانها ومالها وزينتها التي قد يدرك المتواني منها ما يفوت المثابر، ويصيب العاجز منها ما يخطئ الحازم. وليعلم أن العامل إذا ضيع ما عمله حكم عليه عقله بمقارنة الجهال؛ فعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون في الحب لما يوافق والبغض لما لا يوافق، وأن هذه منزلة استوى فيها الحمقى والأكياس، ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال هن جماع الصواب وجماع الخطأ، وعندهن تفرقت العلماء والجهال والحزمة والعجزة. فالأول من ذلك أن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره فيعلم أن أحق ذلك بالطلب، إن كان مما يحب، وأحقه بالاتقاء، إن كان مما يكره، أطوله وأدومه وأبقاه، فإذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا وفضل سرور العلم على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامع الذي يصلح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستمع به قليلا ثم يضمحل. وفضل الأكلات على الأكلة والساعات على الساعة. والثاني أن ينظر فيما يؤثره من ذلك فيضع الرجاء والخوف فيه موضعه، فلا يجعل اتقاءه المخوف ولا رجاءه في غير المدرك، فيترك عاجل اللذات طلبا لآجلها، ويحتمل قريب الأذى توقيًا لبعيده. فإذا صار إلى العاقبة بدا له أن فراره كان تورطًا، وأن طلبه كان شكًا. والثالث تنفيذ البصر بالعزم وبعد المعرفة بفضل الذي هو أدوم، وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف، فإن طالب الفضل بغير صبر تائه حيران، ومحصر الفضل بغير عزم ودون رصانة محروم.

وعلى العاقل محاسبة نفسه ومخاصمتها والقضاء عليها والإبانة لها ثم التنكيل بها. أما المحاسبة فيحاسبها بماله، فإنه لا مال له إلا أيامه المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف النفقة، وما جعل منها في الباطل لم يرجع في الحق فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال والشهر إذا انقضى واليوم إذا ولى. فينظر فيما أفنى من ذلك وما كسب لنفسه وما اكتسب عليها في أمر الدين وأمر الدنيا بحساب فيه إحصاء وجد وتذكير وتبكيت للنفس وتذليل لها حتى تعترف وتذعن. فأما الخصومة فإن من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدعي فيما مضى العذر، وفيما بقي الأماني، فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها.

فأما القضاء فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة أنها سيئة، والسيئة فاضحة مردية موبقة، وعلى الحسنة أنها زائنة وأنها مربحة منجية. وأما الإبانة والتفصيل فإنه يسر نفسه بتذكير تلك الحسنات، ويرجو عواقبها، ويأمل فضلها، ويعاتب نفسه على الحقيقة

غذا تذكر السيئات فاستبشعها واقشعر منها فحزن على ما ارتكبه منها، وعلم أن أفضل ذوي الألباب أكثرهم محاسبة لنفسه وأقلهم فترة فيها. وأما التنكيل بها فإنه يعاقبها إذا عصته في بعض الأوقات بإلزامها ما يشق عليها من الصوم والطي والعبادات الثقيلة والسعي الذي فيه طول ومشقة إلى المواضع التي يشرفها الناس.

وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مرارا؛ يباشر القلب ويقدع الطماح، فإن في كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر وأمانًا من الهلع. وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساوئها في الدين وفي الرأي وفي الأدب. فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب، ثم يكثر عرضها على نفسه ويكلفها إصلاحها، ويوظف ذلك عليها من إصلاح الخلة أو الخلتين أو الخلال في اليوم أو الجمعة أو الشهر. وكلما أصلح شيئا محاه، وكلما نظر إلى محو استبشر، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب. وعلى العاقل أن يتفقد محاسن الناس ويحصيها ويصنع في توظيفها على نفسه وتعهدها مثل الذي وصفنا في إصلاح المساوئ.

وعلى العاقل أن لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس - ما استطاع - إلا ذا فضل في الدين والعلم والأخلاق ليأخذ عنه، أو موافقا له على إصلاح ذلك فيؤيد ما عنده وإن لم يكن له عليه فضل، فإن الخصال الصالحة في المرء لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمؤيدين. وليس لذي الفضل قريب ولا حميم هو أقرب إليه ممن وافقه على صالح الأعمال فزاده أو ثبته. ولذلك قال بعض الأولين: إن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحب إليهم من صحبة لبيب ذكي نشأ مع الجهال.

وعلى العاقل أن لا يحزن على شيء من الدنيا تولى، وأن ينزل ما أصاب من الدنيا ثم انقطع عنه بمنزلة ما لم يصب، ولا يدع خطة من السرور بما أقبل منها من غير أن يبلغ به ذلك سكرًا أو طغيانًا، فإن مع السكر الطغيان، ومع الطغيان التهاون؛ ومن نسي وتهاون فقد خسر خسرانًا مبينًا.

وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجعلهم خزنة وحراسًا على أفعاله ثم على سمعه وبصره ورأيه، ويستنيم إلى ذلك ويستريح إليه قلبه ويعلم أنهم لا يغفلون عنه إذا غفل هو عن نفسه. وعلى العاقل ألا يشغله عن أربع ساعات: ساعة يرفع فيها حاجاته إلى ربه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه

وينصحونه في أموره، وساعة يصلح فيها أمر منزلته ومعاشه، وساعة يحلي فيها نفسه ولذاتها بما يحل فلا يعترض بينها وبينها، فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر، واستجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بُلْغة.

وعلى العاقل ألا ينظر إلا في ثلاث خصال: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم.

وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبسهم لهم لباسين مختلفين: فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز في كل كلمة؛ وطبقة من الخاصة يخلع عندهم التحرز ويلبس لهم لباس الأمنة واللطف والمفاوضة، ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحدًا من ألف ليكون كلهم ذوي فضل في الرأي وثقة في المودة وأمانة في السرور ووفاء بالإخاء.

وعلى العاقل إذا استشار عقله ألا يخالفه ولا يستصغر شيئا من الخطأ الذي يخالفه فيه إن كان في رأي وزلل في علم أو إغفال في أمر.

فإن من استصغر صغيرًا يوشك أن يجمع بينه وبين آخر صغير ثم صغير، فإذا الصغير قد صار كبيرا. وإنما هي ثُلَم يثلمها الجهل والعجز والإهمال، فإذا لم تسد أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق. ولم نر مستكثرًا مستعظمًا إلا وقد أُتي من جهة الصغير المتغاوي فيه المتهاون به. وقد رأينا الملك يؤتَى من جهة المحتقر، ورأينا الصحة تؤتَى من جهة المحتقر حتى يهجم منه على الداء الذي لا خلاص منه؛ ورأينا الأنهار تنبثق من الثقب الصغير اليسير المستهان به؛ ورأينا الحريق العظيم يكون من قبل الشرارة الصغيرة؛ ورأينا الأحقاد والعداوات من قبل الكلمة الحقيرة التي ربما كان سببها المزاح أو قلة التحفظ. وأقل الأمور احتمالا لصغير الخطأ والتضييع الملك، لأنه ليس شيء منه يضيع وإن كان صغيرًا إلا اتصل بآخر يكون عظيمًا.

وعلى العاقل أن يجبن عن المضي على الرأي الذي لا يجد عليه موافقا وإن ظن أنه على اليقين.

وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر أيهما الصواب أن ينظر إلى أقربهما إلى هواه مخالفة، فإن الهوى عدو العقل، فيحذره. ومن نصب نفسه إمامًا في الدين والحكمة فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ

والإخوان والمعاشرين ليكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه: فإنه كما أن كلام الحكماء يروق الأسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب. ومعلم نفسه ومؤديها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤديهم إذا لم يبدأ بنفسه.

ولاية الناس بلاء عظيم، فعلى الوالي أربع خصال هي أعمدة السلطان وأركانه التي يقوم بها وعليها يثبت: الاجتهاد في التخير، والمبالغة في التقدم إلى الوصية، والتعهد الشديد، والجزاء العتيد.

أما التخير فللعمال والوزراء فإنه نظام الأمر ووضع مؤونة المنتشر؛ فإنه عسى أن يكون بتخير رجلا واحدا قد اختار ألفا؛ لأنه إن كان من العمال خيار فسيختار كما اختير. ولعل عامل العامل عماله سيبغون عددًا كثيرًا. فمن ابتدأ بالتخير وسنه فقد أخذ بسبب وثيق. ومن أسس أمره على خلاف ذلك وجد الخلاف والوهن.

وأما المبالغة في التقدم والتوكيد فإنه ليس كل ذي لب أو ذي أمانة يعرف وجوه الأمور والأعمال. ولو كان بذلك عارفًا لم يكن صاحبه حقيقًا أن يكل ذلك إلى علمه دون توفيقه وتبيينه له والاحتجاج به عليه.

وما التعهد الشديد فإن الوالي إذا فعل ذلك كان سميعًا بصيرًا، وإن العامل إذا فعل ذلك وعمل هو به كان متحصنًا حريزًا.

وأما الجزاء العتيد فإنه يثيب المحسن ويريح من المسيء.

السلطان لا يستطاع إلا بالأمناء والنصحاء، والأمناء والنصحاء لا يوجدون إلا مع المودة؛ والمودة لا تتم إلا بمشاركة لا استئثار معها. ولما كانت أعمال السلطان كثيرة، لم يكن أن تستجمع هذه الخصال المحمودة عند أحد؛ وإنما الوجه والطريقة في ذلك والسبيل الذي به يستقيم العمل أن يكون صاحب السلطان عالمًا بأمور الدنيا وبأمور من يريد الاستعانة به حتى يندب لكل عمل من عرفه بالنفاذ والأمانة والرأي فيه. ثم على الملوك بعد ذلك أن يتعهدوا عمالهم ويتفقدوا أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة مسيء. ثم عليهم بعد ذلك ألا يتركوا محسنًا غير جزاء، ولا يقروا مسيئًا ولا عاجزًا على العجز. فإن هم تركوا ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفسد الأمر وضاع العمل.

وصية أخرى للفرس

كن صدوقًا لتؤمن على ما تقول. وكن ذا عهد ليوفي بعهدك. وكن شكورا تستوجب الزيادة. وكن جوادا لتكون للخير أهلا. وكن رحيما بالمضرورين لئلا تبتلى بالضر. وكن ودودًا لئلا تكون معدنًا لأخلاق الشياطين. وكن مقبلًا على شأنك لئلا تؤخذ بما لم تجترم. وكن متواضعًا ليفرح لك بالخير. وكن عالمًا لتقر عينك بما أوتيت. وسر للناس بالخير لئلا يؤذيك الحسد وكن حذرًا لئلا تطول مخافتك. ولا تكن حقودًا لئلا تضر بنفسك الفانية إضرارًا باقيًا. وكن ذا حياء لئلا تستذمَّ إلى العلماء، فإن مخافة العاقل مذمة العلماء أشد من مخافة السلطان. من العلماء أن تعلم أنك لا تعلم. أحسن تقدير معاشك ومعادك تقديرًا لا يفسد عليك أحدهما الآخر. فإن أعياك ذاك فارفضن الأدنى وآثر الأعظم. اعلم أنه ليس أحد تؤديه التوبة إلى النار، ولا أحد يؤديه الإصرار إلى الجنة، فتب من كل ما تعلمه خطيئة ولا تضر على ذنب وإن كان صغيرًا. أفضل البر ثلاث خصال: الصدق في الغضب، والجود في العسرة، والعفو في القدرة. ورأس الذنوب الكذب، وذاك أنه هو يوسوسها وهو يؤديها ويثبتها بالأيمان الفاجرة وبالجحود مع المكابرة بالجدل واللجاج فيه، فيبدأ صاحب بالأيمان الكاذبة فيما يزيد من الشهوات للسوْءات فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى عنه؛ فإذا ظهر كابره بالجحود فغلب بهما. فإذا أعياه ذلك ختمه بالجدل فخاصم عنه بالباطل ووضع له الحجج والتمس به التبيين وكابر به الحق حتى يكون شارعًا للضلالة، مكابرًا بالفواحش.

الرجال أربعة: اثنان يختبر ما عندهما بالتجربة، واثنان قد كفيت تجربتهما. فأما اللذان يحتاج إلى تجربتهما فإن أحدهما بَرٌّ كان مع أبرار، والآخر فاجر كان مع الفجار. فإنك لا تدري لعل البر منهما إذا خالط الفجار، والفاجر منهما إذا خالط الأبرار تبدل البر فاجرًا والفاجر برًا. وأما اللذان قد كفيت تجربتهما وتبين لك صور أمورهما فإن أحدهما فاجر كان في أبرار، والآخر برٌّ كان في فجار.

احذر خصومة الأهل والولد والصديق والضعيف. واحتج عليهم من غير غضب.

لا يوقعنك بلاء تخلصت منه في آخر لعلك لا تتخلصن منه.

على الرجل العاقل أن يعلم أنه إذا عمل بما يعلم أنه خطأ من الهوى، والهوى آفة العقل، وهو جالب كل فتنة، وتركه العمل بما يعلم أنه من الصواب تهاون، والتهاون آفة

الدين، وإقدامه على ما لا يدري أصواب هو أم خارج من الصواب جماح، والجماح آفة العقل.

وقّرْ مَن فوقك، ولِن لمَن دونك؛ وأحسن مواتاة أكفائك، وليكن أثر ذلك عندك مواتاة الأكفاء. فإن هذا هو الشيء الذي يشهد لك بأن إجلالك لمن فوقك ليس بخضوع لهم منك، وأن لينك لمن هو دونك ليس لالتماس أخذ شيء منهم.

خمسة مفرطون في خمسة أشياء وكلهم متندمون أبدًا: الواهن المفرط إذا فاته العمل، والمنقطع من إخوانه وأصدقائه إذا نابتهم النوائب، والمستمكن منه عدوه لسوء رأيه إذا ذكر حقده، والمفارق الزوجة الصالحة إذا ابتلي بالطالحة، والجريء على الذنوب إذا حضره الموت.

أمور لا تصلح إلا بقرائنها: لا ينفع العقل بغير ورع، ولا شدة البطش بغير شدة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا الحسب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن، ولا الغني بغير جود، ولا المروءة بغير تواضع، ولا الخفض بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق.

أمور تَبَع لأمور، والمروءات كلها تبع للعقل، والرأي تابع للتجربة. والغبطة تابعة لحسن الثناء، والقرابة تابعة للمودة، والعمل تابع للقدر، والإنفاق تابع للجدة.

لا تذكر الفاجر في العقلاء، ولا الكذوب في الأعفّاء، ولا الخذول في الكرماء، ولا الكفور بشيء من الخير. ولا تؤاخين خبا، ولا تستنصرن عاجزًا، ولا تستعينن كسلًا، ولا تفرح بالبطالة وإن كان فيها راحة، ولا تجبن من العمل وإن كان فيه تعب.

اغتنم من الخير ما تعجلت، ومن الأهواء ما سوفت. من حاول الأمور احتاج فيها إلى ست: الأدب والرأي والتوفيق والاجتهاد والفرصة والأعوان. وهن أزواج: فالأدب والرأي زوج لا يكمل أحدهما إلا بالآخر. والأعوان والفرصة زوج لا ينفع أحدهما إلا بالآخر. والتوفيق والاجتهاد زوج: فالاجتهاد سبب التوفيق. والتوفيق سبب نجاح الاجتهاد.

أمور يلزمها كل من استبصر في عقله: لا تجد عاقلا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد ما لا يثق بإنجازه. ولا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يقدم على مما يخاف العجز عنه. وهو يسخى بنفسه عما يغبط به القوالون خروجه من عيب

نفسه بالتكذيب. ويسخى بنفسه عن مراتب المقدمين بما يرى من فضائح المقصرين. ويسخى بنفسه عما يسأل السائلون سلامته من مذمة الذكر وخوفه الرد. خمول الذكر أجمل من النباهة بالذكر القبيح. لا يوجد الفجور محمودًا، ولا الغضوب مسرورًا، ولا الحر حريصًا، ولا الكريم حسودًا، ولا الشره غنيًا، ولا الملول ذا إخوان. قارب عدوك بعض المقارنة تنل حاجتك منه. ولا تقاربه كل الكقاربة فيجترئ عليك مع ما تذل به نفسك ويرعب ناصرك. والمثل في ذلك مثل العود المنصوب في الشمس: إن أملته قليلا زاد ظله، وإن جاوزت الحد في إمالته نقص الظل. الحازم لا يأمن عدوه على كل حال إن كان بعيدا لم يأمن من معرته بالكيد، وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته، وإن كان منكشفًا لم يأمن استطراده.

وإن كان وحيدًا لم يأمن مكره. الكريم يمنح أخاه مودته عن لقاءه واحدة أو معرفة يوم، واللئيم لا يواصل أحدًا إلا عن رغبة أو رهبة. وجدنا البلايا يسوقها إلى أهلها الحرص والشره. ليحسن اجتهادك لنفسك مما تكون به للخير أهلا، فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماءُ في السيل الحدورَ.

خمسة أشياء لا بقاء لها ولا ثبات: ظل الغمام، وخلة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والمال الكثير. ليس يفرح العاقل بالمال الكثير ولا يحزن لقلته، ولكن ماله وعقله وما قدم من صالح عمله، ولا يعد غنيًا من لم يشارك في ماله، ولا يعد نعيمًا ما كان في سوء ثناء، ولا يعد غنمًا ما ساق غرما، ولا يعد غرمًا ما ساق غنما، ولا يعد حياة ما كان في فراق الأحبة، فإن من المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الأخ أخاه إذا أفضى كل واحد إلى صاحبه ببثه، وإذا فرق بين الأليف وإلفه فقد حرم السرور وسلب الأنس وأفقد البهجة. من أتاه الله سعة في الفهم وقوة في العقل فقد أتاه السلطان الذي يملك به نفسه؛ ومن ملك نفسه بسلطان عقله قل أسفه على كل شيء فائت، وذاك أنه باليقين ما تبرم الشهوات، ويسوس نفسه بأن يقهرها على درك الخيرات. ومن لم يكن كذلك ملكته نفسه فأوردته الموارد المهلكة المردية. بحسبك مثقفا لعقلك ومهذبا لرأيك وهاديًا إلى مراشدك ما تراه في غيرك من سيرة حسنة يغبط بها وقبيح يذم عليه. فمن لم يفهم من أحوال الناس ما يصطفي منه الأفضل ويتجنب الأنقص، فلا حياة به ولا حيلة لمصلحته.

الدهر أفصح المؤدبين، وكفاك من كل يوم خبرٌ يورده عليك ويعلمك من أي ناحية أتى به وأين مصيره وما فيه من عبرة وتأديب. فمن فهم عن الأيام أورث زيادة، وسطع نور عمله. ولم يفتقر إلى غير نفسه. على أن للإنسان حالات في أيام عمره؛ وإنما ذلك بقدر عزته بأيامه وغفلته في زمانه وقلة تحفظه لما تفيده الأيام من تجاربه. فإذا فهم ما تملي عليه الأيام وحفظ أخبار الناس لم يلبث أن يصير محتنكًا نافذ البصيرة حازمًا فيما يحاول من الأمور كلها، مستشارًا فيما ينوب غيره من الحوادث.

وعلى حسب إحاطة عقله وإعانة فهمه له يكون إشرافه على الأمور. فأما ذو الغفلة فلو صحب الدنيا بعجائبها فيما تصرفت به على القرون لكان جذعًا في الغرة متدلهًا فيما يحدث؛ لأن الغفلة ظلمة راكدة، والمعرفة مصباح مضيء للخليقة. ولولا غيبة المخلوق وما يعرب من عقولهم عن عجيب فطرهم لكان فيما يقف عليه المرء من نفسه في رضاه وسخطه، وضيقه وسعته، وإمساكه وبذله، وسكونه وقلقه، وإسرافه وقصده، وجده وملاله وحزمه وتفريطه. ما يكفي ميزان عقله مشغله عن التعجب من غيره وتعرف أحواله من أحوال سواه. وذاك أن عنده وفيه ما يعرف به حال نفسيه وفضل إحداهما على الأخرى. فإذا مال إلى الأخس منهما – وقد تقدمت معرفته بشكوى عاقبته وخبرهما بندامتها في سالف أيامه – أما في هذا ما يمنع المنصف عن ادعاء الحكمة ويرده عن الاستطالة بالفطنة، ويوجب التقصير في الرأي؟ لكنه أبصر أمر سواه بعينه وفهمه، ونظر إلى نفسه بغفلته وسهوه، فثبت عنده ما عاين في غيره، وسقط عنه ما يليه من أمره.

ومن أعجب ما يوجد في الإنسان أنه لا يزال عائبًا على غيره ومستزيدًا له، كأنه قد كمل لمن عتب عليه ووفر لمن يستزيده. أما لو اعتاد قمع عوارض العدوان وإطلاقه العدل والإنصاف لم يعدم ما يحمد من رأيه وبلوغ ما يحب مما يتمناه لنفسه إذا سكن من هيجه. لكنه استثقل الحمية. ورق عن مخالفة نفسه الأمارة بالسوء في شهواته، ثم التمس بالتمني. والسلامة بغير احتمال مؤونة. هيهات! لا تصلح أرض للزرع بغير حرث وجذر، ولا تزكو خلقة حتى تحتمل مضض المشقة، ولن تحصل الفضيلة إلا بعد مغالبة النفس والهوى. فانظر ما تحمد من غيرك، فلا ترضين من نفسك إلا به ولا تأنسن ما خفي من عيوبك وإن لم ينتشر عنك ولم يظهر عليه سواك فإن أنسك بذلك ضراوة على المعاودة. وإذا تكرر القبيح دا وغلبت الشقوة على صاحبه.

اعلم أن قليل العيب يمحق كثير المحاسن؛ لأجل الحسد الموكل بأهل الفضل؛ فاحذر أن تُذْكر بأنواع من الجميل ثم يعترض حاسد واحد بقبيح واحد فيهدم ما شيده مادحك، فيكون ذلك مقرونًا بذكرك في كل موضع حتى يمسك المادح عما يريد من تبجيلك مخافة أن يجيبه حاسدك بما يكره عند ذكرك، مع أنه لا يسلم أحد من تهمة توجه نحوه وظن يرجم به ويقال فيه. وليس هذا أخاف عليك ولا هو الذي يفسد جميل فعلك، ولكن ما صح عندك وعرفته من نفسك وصدق فيه حاسدك. فمنه أشفق على صالح عملك وعلمك إن أردت زينة الدنيا وجمالا لا تهدمه الأيام، وطاعة فيما تسأل، وثناء فيما تباشر ينتشر في الآفاق، ومحبة ممن وصفت عنده على النأي. وعزًا لا يندك معه ضيم، وشرفًا تليدًا باقيًا. فاصحب العقل، واصبر على صيانة نفسك، فإن صاحبها على ذروة من الشرف وإن لم تكن له ثروة ولا عدد.

ولا تحسب الفضيلة التي تتم بها المروءة والإنسانية تمتنع على طالبها إلا ببذل الرغائب، وأنها تشتط في السوم. فإنها لو كانت كذلك وتنال بالمال، كانت لا تفيد أكثر من قيمة ما يبذل لها. ولو كانت لا توجد إلا في البلد النازح بالمؤن العظام، وجب على كل من يعرف قدرها وتحلى من الفضائل بها أن يلتمسها على كل حال. لكنها عندك محبوسة، وفي أخلاقك مستكنة، فاقدحها ينتشر عنك رونقها، وتظهر عندك جلالتها ونبلها، بأن تدع كا ما تكرهه من غيرك وترفض كل ما يشين أهله ولا تدع عليك حقًا إلا أديت فرضه بحسب الإمكان.

لا يقولن أحد: المروءة تكون بالمال، فإن المال يمحق المروءة والإنسانية ويعسر انقيادها على صاحبه لتوابع المال وغلبته على أهله. وربما أفسد الخلق الصالح وثلم في الكرم والحرية، وشروطه متشبعة، والفضيلة موجودة في كل طبقة، وليست تباع بالثمن: إنما هو حسن يفعله قولًا إن لم يكن ببذل، أو صمت إن ضر القول، وأنت تستحقها بهذا القدر إن لم تستطع أكثر منه. وعلى حسب التزيد فيما تجد السبيل إليه يجب عليك التزيد فيها.

داوِ الحسد، إن وجدت حسه، بقمعه بالتوبيخ. وصغّر قدر من عرف به فإنه لا يدفع النعمة عن المحسود ولا يوصلها إليه لو زالت عنه. وعلى كل مخلوق نعمة وإن خفيت عليه، والنعم أنواع وضروب. وما أعطى الله تعالى عبدًا في نفسه من السلامة ووهب له

من العافية في الجوارح أفضل من غرض الدنيا. ورب حاسد لمن هو أعظم في نعمته التي حسده عليها، فلو شغل بشكر ما أعطي كان أجدى عليه. وفي الحسد اثنتان: كمد عاجل يثلم العقل، وكدر حادث في العيش. تنكب القبائح التي تذمها من غيرك؛ واعلم أنك موصوف بكل ما تسمعه في غيرك من قبيح إذا فعلت فعله. احذر العجلة قولًا وفعلًا، واستفد من حريق الغضب بالأناة قبل أن تلتهب ناره في قلبك، فإن إطفاءه قبل انتشاره يسير، وإذا اشتعل قبَحَ محاسن كنت تتجمل بها وعسر إطفاؤها. اعلم أنه ليس في وقت الرضا وصف الحليم، ولا عند الإمساك حمد الجواد، وليس يذكر بالشجاعة إلا من مارس الحروب. اعلم أن الفرائض في الأموال أقل منها في الأخلاق؛ وإنما قدرك بالمال ما صحبك وكان لك، وجاهك بأخلاقك غير زائل ولا معصوب عليه. والمال يتلفه الزمان لا محالة، والفضيلة لا تبلى بهجتها أبدًا.

وقال: رأيت خلقًا في بعض العلماء ممن أوتى فهمًا وذكاءً وعلمًا بأمور الدنيا ولسانًا يعبر به عن الدهر وأحداثه، فعظمه كل من عرفه، وجل قدره عند الناس. وكان الذي زاده عندهم على نظرائه أنه لم يكن يفتخر ما يحسن ولا يعرفه به إلا من باحثه عنه وناظره فيه، وكان مع ذلك في كل طبقة مقاربًا لهم فيما يحتاجون إليه ويجرون فيه. لا يبذخ بلسانه، ولا يتطاول بمنطقه، ولا يخرجهم إلى ما لا يعلمون من القول. يفهم الغبي بقدر ما يدركه ذهنه، ويحقق المعاني عند الذكي بشرح غوامضها. فعظمه العلماء والأوساط، واجتمع له الحظان: من الخاصة والعامة.

ورأيت رجلًا يعذله على بذله العلم لطبقات الناس وقبوله كل من تعرض لمودته، فقال له: إن على حسب كثرة الرعية يعلو شأن الملك، وفي كل مخلوق آلة لما يحتاج إليه. والمقصر عن علمك إذا أفهمته قدر ما يحتمله عقله أسرع إلى تعظيمك. وكان أحوط عليك من نظيرك في مذهبك. ولو كنت ذا مال كان أكثر ما أصرفه فيه استعطاف الجمهور لأعز بهم وأسلم من مكروهم. من عظمك ليعلمك لم يحملك مؤونة في مالك، وليس يجد العالم في كل وقت مثله. فإن لم يعاشر إلا من هو نظير له في كماله لم يعش مغبوطًا، ولم تره إلا مستوحشًا، وذلك ما لا أراه تدبيرًا.

ورأيت رجلا يعذله على مخاطبة رجل نال منه ما يكره في محفل وقوبله العذر منه بعد ذلك وتسرعه إلى العفو عنه، فقال: إنما أظهر بنقصانه رجحاني، وبعداوته إنصافي،

وبنزقه ركانتي، وبعجلته وقاري. وذلك ما لم يكن عند القوم مني. ثم أتاني بعد ذلك يعثر في ذيل الندامة، ويبذل القصاص من نفسه، ويسألني كما يسأل العبد مولاه الصفحَ عن جرمه، فربحت قولًا حسنًا يبقى لي ذكره عند من شهد ما كان منه ولبس لي ذلا بخصومه، واستكانة بإقراره، وأوجب لي طَوْلًا عليه بالعفو عنه، وشكرًا ما بقيت. فلولا مخافة العجز عن احتمال الأذى سألت الله تعالى في كل صباح مثل ما اتفق لي منه.

ورأيت بعض الحكماء كثير المعاشرة بالمصافحة، قليل الثقة بالأنس فقلت له في ذلك، فقال: كنت امرءًا أوجب لمن صافيته أكثر مما كنت أجد عنده فتطول معاتبتي في ذلك فلا أجد ما أقنع به. فلما طال تصفحي للدهر وأهله، ودامت عشرتي للناس، علمت أني لا أجد كفئًا على مثل ما أنا عليه في الأخق، فرأيت ألا أتعب نفسي لمن هو في عزلة مما بي، وذلك لقلة اتفاق الأشكال. ورأيت أني إن كلفت أحدًا ما لا يجده في خلقته ظلمته فيما أحمله، فطرحت عن نفسي العناية بما أوجبه وأبذله لمن صافيته. فبذلت لهم لين الكنف وسلامة الغيب وحسن اللقاء وتحري ما يحبون، وسلامتهم ومسامحتهم فيما تعذر عليهم ومنهم، فإن في ذلك بُلغة ومتاعًا إلى حين. فاطرح عن نفسك طلب الوفاء من الناس، ولا تعلق قلبك بحفظهم لعهدك إن كبا بك دهر وعثر بك زمان، فقد صرحوا بذلك لمن حسن ظنه بهم قبلك. فاحسم هذا الطمع منك، وكذّب ظنك إن ضمنه لك عليهم. وبالحري إن استشعرت ما أمرتك به ألا تموت أسفًا عند إعراض الثقاة عنك وإفرادهم إياك بهمك. وانصرافهم عما بك إلى لهوهم، واختداع آخر بزخرف غرورهم حتى يحل محلك، فإنهم أبناء الدنيا الغرارة، وقد عاشروا النكث قديما.

فإذا تمكن يأسُك منهم ومن وفائهم فكن أنت على ما كنت تحبه منهم تصر حصنًا يلجأ إليه، وركنًا يعتمد عليه، ومفزعًا عند النوائب، وفخرًا للأعقاب. وإياك والاستنان بشيء من الأعمال وقبيح من الأفعال وإن كثر ذلك من الناس، فإن السيد الذي يستحق هذا الاسم إنما يستحقه بصبره على الجميل واحتماله فرائض المروءة وصيانة نفسه عن دنيء الأخلاق. ومن عرف نفسه بالكرم لم يستوحش ممن يأتيه عليه، وله الفوز بالسبق يوم الخصال، إنه ليس في عقل من عقول العوام محتمل، ولا مكان للأدب، فلا تحمل الناس فوق وسعهم فتثقل نصيحتك عليهم، فإن الطيب الحاذق إنما يأمر من الدواء بقدر احتمال النحيزة.

رأيت صلاح الأخلاق بمعاشرة الكرام وفسادها بمخالطة اللئام، ورأيت الخلق إنما يستمر ويجري على ما يساس به. ورب طبع صالح أفسدته منادمة الأشرار وعشرة السِّفْلة ومعاطاة أهل السخف. على أن الجوهر يعود إلى سِنْخه إذا كان صالحًا حتى يتنبه من غفلته، ويعالج نفسه من دون تلك الأعراض بلطف الأدب ورقة المواعظ والرفق في الرياضة.

* * * * *

وقال آخر: ذللوا أخلاقكم للمحاسن وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، وعودوها الجميل، واصبروا على الإيثار على أنفسكم فيما تحمدون غبه، ولا تداقوا الناس وزنا بوزن، وتكرموا بالغنى عن الاستقصاء، وعظموا أقداركم بالتغافل عن دني الأمور، وأمسكوا رمق الضعف بالمعونة، ولا تكونوا بحاثين عن مغيبات الأحوال فيكثر عتبكم.

* * * * *

وقال آخر: خرّجوا عقولكم بأدب كل زمان، واجروا مع أهله على مناهجهم يقل من يناؤكم وتسلم أعراضكم، وضعوا عنكم مؤونة الخلاف والمماحكة في المنازعة، فربما أورثت السخائم، ونقضت مبرم المودة المحكمة. اتسعوا لعشرة العوام، فإنه أكبر ما تدبرون به أموركم، وكل وصية فهمها المنصوح وقبلها من الواعظ ووفق للعمل بها فبعد احتمال المضض والصبر على فراق ما كان بألف حتى تنقاد له نفسه وتعتاد ما أمرت به.

فصل

ربما كان الفقر نوعًا من آداب الله تعالى وخيرة في العواقب. والحظوظ لها أوقات فلا تعجل على ثمرة لم تكن تدرك، فإنك تنالها في أوانها عذبة؛ والمدبر لك أعلم بالوقت الذي تصلح فيه لما تؤمل، فثق بخيرته في أمورك، ولا تجعل حوائجك طول عمرك في يومك الذي أنت فيه فيضيق عليك قلبك ويثقلك القنوط.

اجعل بينك وبين محبوباتك وقنياتك حجابًا من ترقب زوالها لئلا يفدحك فقد شيء منها إذا نقلته الحوادث، فإن من لم يتقدم بالتعزية قبل المصيبة جرح قلبه الرزء وتفاوت أمره إذا هجم عليه. وقد قسم الزمان النعم وجعل لها وقتًا وأجلًا، ولم يعد الخلود بها، وقد أخذها من قوم وتركها عند آخرين وكل متَبّر عنده لا محالة، وليس في شرطه حين أفادها ألا يعود على أخذها منهم ولا ذلك في أمل الآمل من العقلاء، وإنما هي متعة وأيام معدودة. وما كان لآخره نهاية وأمامه محصٍ فعن قليل نفاد عدته وفناء آخر مدته.

وقال آخر: اصحب الملوك بالهَيْبة وإن طال أنسك بهم، تتم لك موداتهم، فإنهم إنما احتجبوا عن العوام لتبقى هيبتهم عندهم، فلا تدع تعهد ذلك من نفسك إن اتصلت بواحد منهم، ولا تيأسن من الزمان وإن مطل أيامك، وانظر مع ذلك ما تمنته نفسك إذا وجدته عند غيرك كيف تناولته العواقب، وإلى أي شيء انتهت حاله.

فصل من كلام حكيم آخر

يا من مُحِضَ بقليل من البلاء فغمط كثير الرجاء، وامتحن بلذعة من المكروه فنسي متتابع النعماء! إني مخبرك عن نظير لك كان مثلك في بلوى الامتحان، وشريكك في تتابع الحدثان، تتخذه سلفًا وتقتدي به خلفا، فإن للأسلاف معونة للأخلاف، وفي السابقين عصمة للاحقين. وقد رفع الله تعالى لكل خلف أعلام سلف، وأيدهم من بعدهم بإخبارهم أن سلفًا كان لنا مُحن بضروب من البلاء، وكان ممن يفتقر الخمول ضنًا بالعافية وقصر الهمة وتفاديًا من خطر الصرعة ودناءة المكاسب محاذرة لسوء العاقبة، حتى إذا اشتملت الصنعة على محاسنه، وعفي الخمول على همممه، وشحذ ذلك من كهامة نفسه وأحدّ من من كلول نابه، فسمع بأذن غفلته، ونظر بعين أمنيته، وتكلم بلسان همته، ثم اعتلجت الخواطر على قلبه، وتزاحمت الأضداد على ضميره فاعتركن على محصوله، فإذا أوقد عز الحقد نارا خباها ذل التجاوز وتعده الأضغان لذاذة الظفر، وتزهده فيها مجاذرة الأيام. فإذا أشرعه الطمع شريعة وِرْدٍ حَلّأه عنها ترقب الشفقة، فتعاونت هذه الأضداد على قلبه وتناهت إلى تحكيم عقله، كل يدلي بحجته، فينتظر فصل قضيته، فأشار العقل بالصبر والحلم، وخوّفه الشر والإثم، وصار من القلب إلى قاض حيران، إذا هم بالاغتفار عارضته الأحقاد، وإذا استحسن الصفح أتيح له خوف الذل، وإذا رجا عاقبة الصبر عاجلته بوادر السفه، وإذا أشفق من خوف الآثام مثلت له رخص الإيهام. فلما طال اعتراك هذه الخصومة لديه وتنافرها إليه وإيراد حججها عليه:

كل يقدح بزنده، وينتصر بما حضره من ذلك فاستخلص العقل وزيرًا والعلم نصيحًا، فخوفاه عواقب الإثم وقربا له وقت الفناء، وأرياه غب المعاد، وأحضراه مكارع الأهوال، وكشفا له حجب الغيوب، وقللا عدته من الزاد، وحذراه إحباط المقبول، ثم عرفاه ما في التعجل إلى الشهوة من استنفاد المدة وما في قضاء الأوطار من الإزراء بالعدة، ثم ذكراه ظل عاقبة كان فيه، ومعقل كفاية كان يؤويه، بلا احتيال كان منه في إدامته، ولا تعرض لمكروه في كفايته، ورهباه من خروجه عن كنف الصنع إلى التغرير، ومن الغنى بربه إلى الفاقة إلى خلقه مع مقارعة الأحداث في حيلته. ومراهنة المنايا دون همته، وتعرض الفوت في استشهاده واستنفاد أكُله، فاستوعر مسلك الخذلان، واستوحش من مفارقة الثقة، وطامن من جأشه، وسكن من نفرته، وأطفأ نار شهوته،

ووضع من حميته، ورجع على نفسه بمخاصمته، وصاف بالعلم جنود شِرّته، واستظهر على الصبر بتقارب مدته. فتفرقت مكائد عدوه. وضلت خُدع مخادعه وانفضت جموح غوائله، فخضع للمذلة هيبة لمقاحم العزة، وادخر الصبر شفقة من الفتنة، فصار علمًا لمن بعده، وسلفا لمن اقتدى به، وعصمة لمن سلك مسلكه واعتد عدته، وحاسب على هذه العقائد نفسه. نفعنا الله وإياكم بأخبار الأبرار، ووفقنا وإياكم للاقتداء بالأولياء الأخيار.

حكم الهند

ومما يؤثر من حكم الهند:

اثنان من الناس ينبغي أن يتباعد منهما: أحدهما الذي يقول: لا ثواب ولا عقاب ولا معاد ولا بر ولا إثم، والآخر الذي لا يملك شهوته ولا يستطيع أن يصرف قلبه وبصره عن شهوة ما ليس له فيرتكب الإثم، ويقوده الحرص إلى الخزي والندامة في الدنيا مع المصير إلى الجحيم والعذاب الأليم في الآخرة.

ثلاثة يلقنون الجواب سريعًا: الملك الذي يأمر وينهى ويعطي ويقسم من خزائنه، والمرأة الجميلة التي تدِلّ على من يهواه من ذوي الثروة. والرجل العالم الموفق للخير بتعليم دين الله.

ثلاثة ينبغي لهم أن يحزنوا: الرجل الذي يملك فرسًا حسن المنظر سيئ المخبر؛ وصاحب القدر التي يكثر مرقها، فإذا أكل منها لم يجد لها طعما؛ والذي يتزوج المرأة الحسناء ذات الحسب ولا يستطيع أن يكون معها كما ينبغي فلا تزال تفحش عليه.

ثلاثة يضيعون ما أتاهم الله: الرجل الذي يلبس الثياب السرية ويجالس الصاغة والحدادين فيقرب من نيرانهم وكيرانهم ودخانهم، والرجل التاجر يتزوج المرأة الحسناء الشابة ثم يغترب عنها في أسفاره وتجارته؛ والرجل الفهم الذكي يجالس أصحاب الريب وأهل المكر والفواحش ومحبي الخداع والآثام.

ثلاثة ينبغي أن يعذبوا أشد العذاب: المحرم الذي بظلم من لا جرم له، والمتقدم إلى مائدة لم يُدْع إليها، والذي يسأل أصدقاءه ما ليس في وسعهم فإذا أخبروه أنه لا يمكنهم عاودهم المسألة ولم ينته.

ثلاثة ينبغي أن يُسفّهوا ويحكم عليهم بالحمق: المتطبب الذي يداوي المرضى من الكتب والدفاتر ولا يعرف الطبائع والقوى، وما الذي يضر وينفع، فيجرب على الأبدان ويهلك النفوس، والنجار الذي يأخذ القدوم فلا يزال ينحت الخشب حتى يملأ حانوته من الحطب ثم لا يبقى له موضع فيه فيخرج هو وامراته وولده إلى الشمس في الهاجرة وأيام الصيف، وإلى البرد والرياح والأمطار في الشتاء؛ والمفتي في الدين وهو لا يعرف الفقه ولا يقتبس العلم من موضعه.

ثلاثة ينبغي لهم أن يتأنوا ويثبتوا ويقدموا بعد تؤدة: الذي يرقي في الجبل الشاهق، والذي يهم بالأمر الجسيم من الدنيا، والذي يميز الحق من الباطل فيفتقد الصواب ويعمل به.

ثلاثة يتمنون ما لا يجدون ولا يقدرون عليه أبدًا: العاصي المصر على الخطايا ويتمنى الجنة؛ والرجل الحقود يتمنى أن يظفر بجميع من يعادي فلا يبقى منهم أحدا؛ ومتمني الخلود والبقاء في دار الفناء.

ثلاثة يجنون على أنفسهم ويؤلمون أبدانهم: الذي يأتي القتال بغير جنة فيقذف نفسه بين الصفوف ويقول: لن يصيبني إلا ما قُضي عليّ - فلا يخلو من ضربة أو طعنة أو رمية، وربما قتل؛ والرجل الموسر الذي لا ولد له ولا حميم فيقتر على نفسه، وربما قتل لماله، وإن عاش في ضر وبؤس؛ والشيخ الكبير الفاني ينكح المرأة الجميلة فلا تزال تسبه وتتمتع بكل شاب أجمل من الآخر وربما سعت في هلاكه.

أربعة هم الذين يستخفون بأنفسهم ويحقرونها: الذي يهذي ويعرف بالفرفرة ويتكلم بما لا يسأل عنه ويقول بما لا يعلم ويبادر بالكلام على ما خطر بقلبه؛ والذي يستلط على الناس من غير معونة لهم؛ والغلام الذي يغلظ القول لصاحبه ويرد عليه الصواب؛ والذي يدخل على القوم المتخلين لمهمّ من غير استئذان عليهم.

أربعة ينبغي أن يسخر منهم ويهزأ بهم الذي يقول شهدت الحروب وقاتلت وفتكت بالأبطال وركبت الأهوال ونازلت الفرسان ولا يرى في جسمه أثر شيء من الجراحات، والذي يخبر أنه من الزهاد والعباد وأنه ممن رفض الدنيا ويعمل للميعاد، وهو سمين ظاهر الدم عظيم الكتف فذاك أهل لأن يضحك منه ويتهم في جميع الأمور: وذاك أن من علامات الزهد أن يكونوا قليلي الطعام متغيري الألوان طائري القلوب وجلين خائفين منظرين لأمر الله أن يحل بهم بياتا أو صباحا، ومن كان كذلك لم يكن له لحم ولا شحم ولا نشاط ولا مرح، والمرأة التي تزعم أنها بكر عذراء، وهي ثيبة غير طاهرة ولا ممتنعة على الرجال، فتوهم أنها بكر وتعلم كيف هي، والرجل الذي يتحلى بمعرفة وبعلم وهو خال منه، فإذا سأل سائل عن مشكلة افتضح ودهش، وضحك منه.

ثلاثة يجوز عليهم أن يندموا: الذي يشير على السفيه بالحلم ثم يماريه إذا لم يقبل، فلا يزال معه في مراء حتى يخرج إلى ما لا ينبغي، ثم يندم على فعله؛ والرجل الذي

يهيج السفيه بالأذى ليضحك منه ويناديه بلقب ثم يحترس أن تناله يده ولا يقدر أن يحترس من لسانه وقذفه؛ والرجل الذي يفضي بسره إلى من لا يخبره بالأمانة ويأتمنه في الأمر العظيم ويثق به ثقته بنفسه.

ثلاثة هم الذين يجنون على أنفسهم المشفة والتعب الشديد: الذي يمشي إلى خلفه ناكصًا على عقبيه. فربما تردى في بئر أو مهواة، والذي يقول: لا يملأ قلبي شيء من الأهوال، ولست أتقي الأقران ويغر قوما بما يسمعونه منه. فإذا التقت الزحوف التفت يمينا وشمالا، احتيالا للهرب فيكون أول هارب؛ والرجل البليد البطيء الفهم يتعاطى العلوم اللطيفة والمعاني الدقيقة، فيكلف طبعه ما لا يطيق. فهو أبدا في تعب ولا يظفر بطائل.

ثلاثة لا يلبث ودهم أن ينصرم: الصديق الذي لا يقوم بحق صديقه عند النوائب، ويطيل غيبته عنه، ويتوانى عن زيارته، ولا يكاد يصير إليه إلا على كره، فإذا صار إليه ماراه في كل ما نطق به؛ والمداخل لأصدقائه في النعم والفرج، حتى إذا نابتهم نائبة قطعهم؛ والرجل يريدك لأمر حتى إذا وصل إليه استغنى عنك فزال وده بزواله.

ثلاثة يدعون المهارة وهم أغبياء: الذي لا يحسن اللحون ولا يعرف الاتفاقات والاختلاف فيتعاطى ضرب العود، والمصور الذي يزعم أنه ماهر وهو لا يحسن خلط الأصباغ ولا تأليف الأشكال ولا تأدية الحركات؛ والذي يزعم أنه لا يحتاج إلى علم شيء من الأعمال وأنه عالم بجميعها وهو لا يعلم مخارج الألفاظ، ولا حدود المنطق، وكيف ينبغي أن يتكلم، وأين يضع منطقه.

ثلاثة يعملون بغير الحق: الذي يعطي بلسانه، ولا يحقق بفعله؛ والسريع إلى الأكل، البطيء عن العمل؛ والذي لا يستطيع أن يسكن غضبه، ولا يملك هواه، وإذا هم بالأمر العظيم ركبه.

ثلاثة يعملون بالسنة فلا لوم عليهم: الذي يصنع الطعام وينظفه ويهيؤه قبل حينه حتى يقدمه إلى سيده في حينه؛ والذي لا يرضى سيرة الفساق ولكنه رضي بامرأة واحدة يملكها ولا يمد عينه إلى حرمه غيره؛ والذي يعمل العمل الجسيم بمشاورة العلماء.

أربعة أشياء ينبغي لكل كريم أن ينذر فيها النذور حتى لا تزول عنهم: الشهري الفاره الجواد الذي هو قُعدة مولاه وراكبه، والثور الحراث المجيب إلى ما يستعمل فيه،

والمرأة العاقلة المستجيبة لزوجها الموافقة له، والعبد الناصح المجتهد في الخدمة الصدوق في اللهجة الهائب لسيده.

أربعة لا ينبغي لهم أن يحزنوا: العاقل الذي يرميه الجاهل بما يكره ولا حقيقة له؛ والرجل الرغيب البطن إذا كان غنيًا كثير المال؛ والرجل المقتصد الذي لا عيال له؛ والعالم الذي لا يحتاج إلى السعي في الازدياد.

أربعة لا يكاد أحد أن يقدر عليها: المرأة التي قد ذاقت الأزواج وتمتعت بهم وتطعمت الرجال: أن ترضى برجل واحد؛ والرجل الذي عود لسانه الكذب: أن يصدق؛ والرجل التياه الصلف البطر العادي لطوره: أن يتواضع ويغير طباعه حتى يصير فاضلًا محبوبًا.

أربعة أشياء ينبغي أن تعمل قبل حينها ويتقدم فيها الرجل: المكايد لعدوه: في الذب عن الملك قبل حضور البأس، والخصومة في الحق: ينبغي أن يتقدم في ابتغاء حاكم عادل في القضاء، عفيف لا يقضي بلاهوى ولا يقبل الرشى ولا ينقض قضاءه ولا ينسى ما حكم به ولا يبدو له فيما يأتي به من الحق، ولا يميل مع كبير على صغير ولا مع غني على فقير؛ وتدبير الدهشة: ينبغي أن يتقدم في ابتغاء لبيب عالم يشير عليه في أمره وينفذ له أعماله؛ ـ وذو المروءة إذا دعا رجلًا شريفًا: ينبغي أن يتقدم في تهيئة طعامه وما يصلح له لئلا يعجل على أهله بالأذي عند حضوره.

أربعة لا يفكرون في بر ولا إثم: المريض الشديد الألم، والخائف ممن هو أقوى منه، والمكار لعدوه، والمظلوم الحقود الجريء على صاحبه.

أربعة ينبغي أن ترفض غاية الرفض: الذي يؤدي إلى الهم والندامة، والذي يقصر العمر ويقرب من الموت، ومعصية الله تعالى في مرضاة المخلوقين، ومساعدة الأصدقاء على ما يفسد الجسم والعقل.

أربعة لا ينبغي لأحد أن يثق بهم: الحية الماردة وكل سبع ضار، والأئمة الفجار من الناس، والمال المجتمع عند المسرف، والموت الذي لا يدري متى يهجم.

أربعة لا ينبغي أن يمازحوا ولا يضاحكوا: الرجل العظيم الشأن الجبار، والعالم الناسك، والدنيء الطبع اللئيم، والحزين الثاكل.

أربعة من الناس المال أحب إليهم من أنفسهم: الذي يفترض مع الأمير الخارج إلى الحرب. والتاجر الذي يركب البحر، واللص الذي ينقب البيوت فلا ينجو من صاحب البيت أو السلطان، والمرتشي الجائر فيما يدخله الله به نار جهنم.

أربعة يفسدون أعمالهم وحكمتهم: عامل الحسنات الذي ينشرها للناس فيقول: فعلت وفعلت كأنه بمن بها؛ وواضع المعروف عند السفل المصطنع من لا يستأهل الصنيعة، والمكرم للعبد المتواني الفظ الذي لا يرحمه، والمرأة التي تصنع الخير بولد السوء.

خمسة مفرطون في خمسة أشياء فهم أبدًا نادمون: المفرط في العمل إذا فاتته منفعته، والمنقطع عن أصدقائه إذا نابتهم النوائب، والمستمكن منه عدوه إذا عرف حقده، والمفارق الزوجة الصالحة إذا ابتلى بالطالحة، والجريء على الذنوب إذا حضره الموت.

سبعة لا ينامون: الذي يهم بدم يسفكه، وذو المال الكثير الحريص الخائف عليه، والمديون الفقير المأخوذ بما لا يقدر عليه، والمريض المدنف الذي لا طبيب له، وصاحب الزوجة الفاسدة، والجار السوء الحاسد لجاره، والمفارق للإلف الذي كان أحب الخلق إليه.

سبعة لا رحمة لهم: الرجل الحقود، وحامل الموتى بكراء، وقاطع الطريق. ومانع العطشان الماء، والجلاد الذي يجلد الناس فيموتون أو تنقطع جلودهم من غير ذنب منهم إليه، وصاحب المسلحة، والطامع فيما لا ليس له.

عشرة لا ينبغي أن يعمل معهم ولا يلابسوا: المشاور من لا علم له، والذي لا يتثبت في الأمور ويتلون في الرأي، والمعجب المنفرد برأيه، والذي يؤثر ماله على نفسه، والضعيف العقل، وراكب السفر البعيد على خطر، والعاتب على من يفشي سره ولا يتحفظ بعده - وهو أولى بأن يعيب نفسه ويعتب عليها إذ أفشى سره إلى من أفشاه عنه، والمجادل المخاصم الممارى فيما لا يعنيه، والغضبان على من لا يبالي بغضبه، والمتسرع إلى القتال.

عشرة لا ينبغي أن يسكن إليهم حتى يجربوا ويمتحنوا ثم يوصفوا: الشجاع المدعي للحرب واللقاء، والظريف المستعد للعشرة، والحليم عند الغضب، والتاجر عند

المحاسبة، والصديق عند الشدة، والسخي عند السؤال، والمستودع بالدراهم، والمحارم، والكريم عند الشكر، والحازم عند حلول المصيبة.

عشرة لا يزالون في سخط الناس: السريع الغضب الذي لا تؤده له ولا عفو، وصاحب المودة الذي ليس بماهر فيستعمل المودة في غير موضعها، والماهر الكامل الذي لا يريد الصلاح ويدبر البشر، والخبيث اللسان الذي لا ينجو من لسانه أحد، والمنحني المرائي الذي ليس الانحناء من شيمته والعاصي الشره والبخيل الجماع، وذو العلم الضنين بعلمه، والمتصنع المتشبه بالعابدين يريد بذلك الثواب في الدنيا، ومن يعمل الأعمال وهو آمن من الغير، والمتسلط بقوته على الضعفاء.

عسرة يعنّون أنفسهم وغيرهم: ذو العلم القليل يتكلف من العلوم ما لا يقوم به فيعني نفسه ويعني من يتعلم منه والذي يروم الممتنعات من الأمور ويطلب ما لا يلحق، والمتعاقل الذي لا ينظر لنفسه ولا يناظر الفيلسوفين؛ والفخور العادي لطوره وليس بذي فضيلة ويريد من الناس أن يمدحوه ويخضعوا له بلا إفضال منه عليهم؛ والمستغني برأيه عن المشاورة ثم يطلب الرأي فلا يجده؛ وصاحب السلطان العفيف الذي يعني نفسه في إصلاح من لا يحمده ولا يؤجر فيه ولا ينال منه خيرا ولا علما؛ والسفيه الطياش المغالب للناس ولا ظهر له ولا سند؛ والذي يطاول من هو أعظم منه شأنا؛ والذي يصحب الملوك بالغش لهم والخيانة؛ والقهرمان أو الخازن يصكّ عليه لإنسان بشيء فيردده ويؤخر أمره من غير أن ينفعه ذلك، وهو على حال لا بد أن يعطيه ما قد أمر به وهو غير محمود.

ستة لا تخطئهم الكآبة: فقير قريب العهد بالغني، ومكثر يخاف على ماله، وطالب مرتبة فوق قدره، وحسود على رزق غيره، وحقود على من لا ينتصر منه، وخليط أهل الأدب من غير أدب معه.

ستة يسلبون خصالا من الخير بخصال من الشر تكون فيهم: يُسلب الماجن المحمدة، والمخادع الإخوان، والسيء الأدب الشرف، والحريص الثناء، والشحيح النعمة، والكسل منافع العمل.

أربعة أشياء تعين على العمل: الصحة، والغنى، والعلم، والتوفيق.

وقال آخر: أحق الناس أن يحذر: العدو الفاجر، والصديق الغادر، والسلطان الجائر.

وقال: لهب الشوق أخف محملا من مقاساة الملالة.

وقال: بالعافية توجد عذوبة كل مطعم، فاطلب العافية قبل اللذة. الشماتة اغترار، والتواني فاقة، والحرض شقاء. الحريص إن وجد لم يسترح، وإن استفاد لم ينفق: فيجتمع في الحريص التعب والشره والبخل.

ذم العقلاء أشد من عقوبة السلطان، فإن هذا خذلان، وذلك تعزيز.

شرائط صحبة السلطان

النصيحة، وحفظ السر، وتزيين أمره، وإيثار هواه، وتقدير الأمور على موافقته في الكره والرضا، ومجانبة الغاش له، وصلة من وصل وقطع من قطع، وأن لا يخفى عنه سرا، ولا ينتقل له عن طاعة، ولا يرغب بنفسه عن شيء يوافقه، ولا يتسخط قليل عطيته، ولا ينظر كرامته، ولا يستعمل الدالة عليه، ولا يكذبه إذا سأل، ولا يستثقل ما حمله، ولا يسأله إذا جفاه، ولا يأمنه إذا أرضاه، ولا يعذر من لام، ولا يلوم من عذر. وأقلّ مماراته، ولا تظهر غناك عنه.

ستة تشتد عشرتهم على معاشريهم: الملك الفظ، والقاضي المرتشي، والخليط المخادع، والخادم الخب، والمرأة الورهاء، والعون المحب للبطالة.

وقال: لا تتودد على السلطان بالدالة وإن كان أخاك، ولا بالحجة وإن كانت لك دونه، ولا بالنصيحة وإن كانت له دونك: فإن السلطان يعرض له ثلاث دون ثلاث: القدرة دون الكرم، والحمية دون النصفة، واللجاج دون الحظ.

لا يجب للعاقل أن يزرع العداوة اتكالًا على قوته، كما لا يحب لصاحب الترياق أن يشرب السم اتكالا على أدويته.

من جمع لك إلى المودة رأيا حازما فاجمع له إلى المحبة طاعة لازمة.

شر ما شغلت به عقلك وضيعت به عمرك إشارة على معجب بنفسه.

حكم العرب

ومن حكم العرب:

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: المرء بأخيه.

وقال: الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى[١].

وقال: ابْدَأ بِمَنْ تَعُولُ[٢].

وقال: لا تجني يمينك على شمالك.

وقال: ما أملق[٣] تاجر صدوق[٤].

وقال: بطون الخيل كنز، وظهورها حرز.

وقال: خير المال عين ساهرة لعين نائمة.

وقال: النخل هي المطعمات في المحل، والراسخات في الوحل[٥].

وقال: الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ[٦].

وقال: النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً[٧][١].

---

(١) أخرجه البخارى (٥١٨/٢، رقم ١٣٦١).

(٢) أخرجه البخارى (٢٠٤٨/٥، رقم ٥٠٤٠)، ومسلم (٧١٧/٢ رقم ١٠٣٤)، والنسائى (٦٩/٥، رقم ٢٥٤٣).

(٣) "أملق": أى افتقر.

(٤) أخرجه الديلمى (٢٨٧/٥، رقم ٨٢٠٥).

(٥) أخرجه الرامهرمزى (٧٣/١، رقم ٣٤). وأخرجه أيضًا: القضاعى (٢٥٨/٢، رقم ١٣١٢).

(٦) أخرجه البخارى (١٠٤٨/٣ رقم ٢٦٩٧) ومسلم (١٤٩٣/٣، رقم ١٨٧٣)، والترمذى (٢٠٢/٤، رقم ١٦٩٤) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٢٢٢/٦، رقم ٣٥٧٤). وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (٤٤٣/٤، رقم ٧٢٥٧)، وابن قانع (٢٦٥/٢)، والطبرانى فى الكبير (١٥٥/١٧، رقم ٣٩٩)، وفى الأوسط (٢٥٩/٢، رقم ١٩١٩)، والبيهقى (١٥٦/٩، رقم ١٨٢٦٠).

(٧) الْمَعْنَى أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أَهْلُ نَقْصٍ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْفَضْلِ فَعَدَدُهُمْ قَلِيلٌ جِدًّا، فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الرَّاحِلَةِ فِي الْإِبِلِ الْحَمُولَةِ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، وَنُقِلَ عَنْ اِبْن قُتَيْبَةَ أَنَّ الرَّاحِلَةَ هِيَ النَّجِيبَةُ الْمُخْتَارَةُ مِنْ الْإِبِل لِلرُّكُوبِ فَإِذَا كَانَتْ فِي إِبِلٍ عُرِفَتْ.

وقال: مَا قَلَّ وَكَفَى ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَضَرَّ وَأَلْهَى[٢].

وقال: لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنمًا والصدقة مغرمًا[٣].

وقال: رأس العقل بعد الإيمان، مداراة الناس[٤].

وقال: رَحِمَ اللهُ امرءًا قَالَ خَيْرًا فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ[٥].

وقال: لا تجلسوا على ظهور الطرق، فإن أبيتم فغضوا الأبصار، وردوا السلام، واهدوا الضال، وأعينوا الضعيف[٦].

وقال: إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبله ولا تتفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه أموركم. ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال[٧].

=

وَقَالَ اِبْنُ بَطَّال: مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّاسَ كَثِيرٌ ، وَالْمَرْضِيَّ مِنْهُمْ قَلِيلٌ، وَأَشَارَ اِبْنُ بَطَّال إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ فِي الْحَدِيثِ: مَنْ يَأْتِي بَعْدَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ ، الصَّحَابَةِ ، وَالتَّابِعِينَ ، وَتَابِعِيهِمْ ، حَيْثُ يَصِيرُونَ يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ. فتح الباري (١٨/ ٣٣٥)

(١) أخرجه البخارى (٢٣٨٣/٥، رقم ٦١٣٣)، ومسلم (١٩٧٣/٤، رقم ٢٥٤٧)، والترمذى (١٥٣/٥، رقم ٢٨٧٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٣٢١/٢، رقم ٣٩٩٠).

(٢) أخرجه الطيالسى (ص ١٣١، رقم ٩٧٩)، وأحمد (١٩٧/٥، رقم ٢١٧٦٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٣٣/٢)، والحاكم (٤٨٢/٢، رقم ٣٦٦٢) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٩٧/٧، رقم ١٠٣٧٣). وأخرجه أيضًا: الطبرانى فى الأوسط (١٨٩/٣، رقم ٢٨٩١) قال الهيثمى (٢٥٥/١٠) : رجال أحمد، وبعض رجال أسانيد الطبرانى فى الكبير رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البزار (١٤٥/٢، رقم ٥٠٧).

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج (ص ٣٢، رقم ١٧).

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٦)، والصحيحة (٨٥٥).

(٦) أخرجه أبو داود (٢٥٦/٤، رقم ٤٨١٧). وأخرجه أيضًا: الضياء (٤٢٩/١، رقم ٣٠٨) وقال: إسناده حسن.

(٧) أخرجه مسلم (١٣٤٠/٣، رقم ١٧١٥). وأخرجه أيضًا: مالك (٩٩٠/٢، رقم ١٧٩٦)، والبخارى فى الأدب المفرد (١٥٨/١، رقم ٤٤٢)، وأبو عوانة (١٦٥/٤، رقم ٦٣٨٧)، وابن حبان (١٨٢/٨، رقم ٣٣٨٨)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٥/٦، رقم ٧٣٩٩).

وقال: لك من مالك ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وأعطيت فأمضيت[١].

وقال: أعوذ بالله من دعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع[٢].

وقال: تَهَادَوْا تَحَابُّوا[٣].

وقال: لو تكاشفتم ما تدافنتم.

وقال: ما هلك امرؤ عرف قدره.

وقال: لا يحسن الملق إلا في طلب العلم[٤].

وقال: علق سوطك حيث يراه أهلك[٥].

وقال: ارحموا عزيز قوم ذل وغنيًا افتقر ـ ثم قال عليه الصلاة والسلام: وعالما بين جهال[٦].

وقال: اخش الله في الناس، ولا تخش الناس في الله تعالى.

وقال: الولد مجبنة مبخلة[٧].

وقال: التهنئة على آجل الثواب أولى من تعزية على عاجل المصيبة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٧٣، رقم ٢٩٥٨)، والترمذى (٤/٥٧٢، رقم ٢٣٤٢) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٦/٢٣٨، رقم ٣٦١٣)، وابن حبان (٨/١٢٠، رقم ٣٣٢٧). وأخرجه أيضًا: الحاكم (٢/٥٨٢، رقم ٣٩٦٩) وقال: صحيح الإسناد وليس من شرط الشيخين.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/٢٩٣، رقم ١٠١٥)، والضياء (٦/١٥٦، رقم ٢١٥٣).

(٣) أخرجه البيهقى (٦/١٦٩، رقم ١١٧٢٦). وأخرجه أيضًا: البخارى فى الأدب المفرد (١/٢٠٨، رقم ٥٩٤)، وأبو يعلى (١١/٩، رقم ٦١٤٨) وابن عدى (٤/١٠٤، ترجمة ٩٥٣ ضمام بن إسماعيل مصري).

(٤) أخرجه ابن عدى (٦/٢٢٢، ترجمة ١٦٩٢ محمد بن عبد الله بن علاثة) وقال: هذا حديث منكر. والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/٢٢٤، رقم ٤٨٦٢)، والخطيب (١٣/٢٧٥). وأورده أيضًا: ابن حبان فى الضعفاء (٢/٢٨٠، ترجمة ٩٧٣ محمد بن علاثة)، وقال: يروى الموضوعات عن الثقات.

(٥) أخرجه الطبرانى (١٠/٢٨٥، رقم ١٠٦٧٢).

(٦) أخرجه ابن حبان فى الضعفاء (٣/٧٤، ترجمة ١١٢٩وهب أبو البخترى القاضى) وقال: كان ممن يضع الحديث على الثقات. وأخرجه أيضًا: ابن الجوزى فى الموضوعات (١/٣٨٦، رقم ٤٦٥).

(٧) أخرجه أبو يعلى (٢/٣٠٥، رقم ١٠٣٢). قال الهيثمى (٨/١٥٥) : فيه عطية العوفى، وهو ضعيف.

وقال: أَكْثِرُوا ذِكْرَ الْمَوْت هَادِمِ اللَّذَّاتِ[١].

وقال: طوبى لمن أنفق فضل ماله وأمسك فضل قوله[٢].

وقال: نهيتكم عن عقوق الأمهات[٣] ووأد[٤] البنات ومنع وهات[٥][٦].

وقال: المعدة بيت الداء، والحِمْية رأس الدواء، وعودوا بدنا ما اعتاد[٧].

وقال: اغْدُ عالمًا أو متعلمًا أو مجيبًا أو سائلا ـ ولا تكن الخامس فتهلك[٨].

وقال: يا عجبي للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور.

وقال: مَا نَحَل وَالِدٌ وَلَدًا أَفْضَل مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ[٩].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٢، رقم ٧٩١٢)، والترمذى (٤/٥٥٣، رقم ٢٣٠٧) وقال: حسن غريب. والنسائى (٤/٤، رقم ١٨٢٤)، وابن ماجه (٢/١٤٢٢، رقم ٤٢٥٨)، وابن حبان (٧/٢٥٩، رقم ٢٩٩٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/٣٥٤، رقم ١٠٥٥٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣/٢٠٢).

(٣) قِيلَ: خَصَّ الْأُمَّهَاتِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْعُقُوقَ إِلَيْهِنَّ أَسْرَعُ مِنْ الْآبَاءِ ، لِضَعْفِ النِّسَاءِ ، وَلِيُنَبِّه عَلَى أَنَّ بِرَّ الْأُمِّ مُقَدَّم عَلَى بِرِّ الْأَبِ فِي التَّلَطُّفِ وَالْحُنُوِّ وَنَحْو ذَلِكَ. فتح الباري (٧/ ٢٩٢)

(٤) الوأد: عادة جاهلية، كان إذا وُلِدَ لأحَدِهم في الجاهلية بنتٌ دفَنَها في التراب وهي حَيَّة. الأدب المفرد للبخاري – (١/ ٤٤٧)

(٥) " مَنْع " الْمُرَادُ: مَنْعُ مَا أَمَرَ اللهُ أَنْ لَا يُمْنَعَ ، وَ" هَاتِ " فِعْلُ أَمْرٍ مَجْزُومٌ وَالْمُرَادُ: النَّهْيُ عَنْ طَلَبِ مَا لَا يَسْتَحِقُّ طَلَبَهُ. سبل السلام – (٧/ ٦٦)

(٦) أخرجه الطبرانى (٢٠/٢٢٦، رقم ٥٢٧). قال الهيثمى (٨/١٤٧) : رجاله رجال الصحيح.

(٧) من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب: المعدة بيت الداء. وقد روي مرفوعاً انظر: السلسلة الضعيفة للألباني (٢٥٢)، وقال: لا أصل له، وهو من كلام الحارث بن كلدة ولا يصح رفعه إلى النبي صلى الشر عليه وسلم.

(٨) أخرجه البزار (٩/٩٤، رقم ٣٦٢٦)، والطبرانى فى الأوسط (٥/٢٣١، رقم ٥١٧١)، والبيهقى فى شعب الإيمان

(٢/٢٦٥، رقم ١٧٠٩). وأخرجه أيضاً: الطبرانى فى الصغير (٢/٦٣، رقم ٧٨٦)، قال الهيثمى (١/١٢٢) : رواه الطبرانى فى الثلاثة، والبزار، ورجاله موثوقون. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٧/٢٣٧). قال المناوى (٢/١٧) : قال الحافظ أبو زرعة العراقى: هذا حديث فيه ضعف، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وعطاء بن مسلم وهو الخفاف مختلف فيه.

(٩) أخرجه الترمذي (٤ ٣٣٨ ـ ط الحلبي)، وقال : هذا حديث غريب، وهذا عندي حديث مرسل.

وقال: لو كان العسر في كوة لجاء يسران حتى يخرجاه.

وكان يقول - صلى الله عليه وسلم -: تضايقي تنفرجي. وفي حديث آخر: اشتدي أزمة تنفرجي[(١)].

وقال: ما من آدمي إلا وفي عمله نقص من علمه، ضل خلاله! يسرّ بمال يزيد، وعمر ينقص.

وقال في كلام جرى له: إن لطالب الحق على الغاصب سوْرة تلحقه بالظلم.

وقال: من قال قبح الله الدنيا، قالت الدنيا له: قبح الله أعصانا لربه[(٢)].

وقال في كلام جرى بحضرته: وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟[(٣)].

وقال: بَشِّرْ مال البخيل بحادث أو وارث.

وقال: ما بعثت إلا لأتمم محاسن الأخلاق[(٤)].

وقال: من كان له صبي فليستصْبِ له.

وقال: صلة الرحم منماة للولد مثراة للمال[(٥)].

---

(١) أخرجه القضاعى (٤٣٦/١، رقم ٧٤٨)، والديلمى (٤٢٦/١، رقم ١٧٣١) قال العجلونى (١٤١/١) : رواه العسكرى والديلمى والقضاعى بسند فيه كذاب. والحديث موضوع كما قال الحافظ أحمد الغمارى فى المغير (ص ٢١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٤٨/٤، رقم ٧٨٧٠) وقال: صحيح الإسناد. والرامهرمزى (٦٠/١، رقم ٢٤). وأخرجه أيضًا: الديلمى (٢٦٩/٤، رقم ٦٧٩٤).

(٣) الحديث كاملا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟ "، قُلْنَا: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ (١) قَالَ: " وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟، بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ " وَكَانَ عَمْرٌو عَلَى أَصْنَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يُولِمُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا تَزَوَّجَ ".

أخرجه البخارى (١١٤٢/٣، رقم ٢٩٦٨). و أخرجه الطبرانى فى الكبير (٨١/١٩، رقم ١٦٣). وأخرجه أيضًا: فى الصغير (١٩٩/١، رقم ٣١٧) قال الهيثمى (٣١٥/٩) : رواه الطبرانى بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير شيخى الطبرانى، ولم أر من ضعفهما. والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٠/٧، رقم ١٠٨٥٧).

(٤) أخرجه الحاكم (٦٧٠/٢، رقم ٤٢٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقى (١٩٢/١٠، رقم ٢٠٥٧٢). وأخرجه أيضًا: الديلمى (١٢/٢، رقم ٢٠٩٨).

(٥) أخرجه الطبراني في الصغير (٧٠٨)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٤٦٤)، والضعيفة (١٨١): موضوع.

وقال: الشديد من غلب نفسه[١].

وقال: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

وقال: الْحَرْبُ خَدْعَةٌ[٢].

وقال: المؤمن مرآة أخيه[٣].

وقال: فضل العلم خير من فضل العبادة[٤].

وقال: الْيَمِينِ الْفَاجِرَةِ ، تَدَعُ الدِّيَارَ بَلَاقِعَ[٥][٦].

وقال: إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا[٧].

وقال: النَّدَمُ تَوْبَةٌ[٨].

---

(١) أخرجه هناد فى الزهد (٦٠٨/٢، رقم ١٣٠٢)، والبيهقى فى الزهد (١٦٤/٢، رقم ٣٧٠).

(٢) أخرجه البخارى (١١٠٢/٣، رقم ٢٨٦٦)، ومسلم (١٣٦١/٣، رقم ١٧٣٩)، وأبو داود (٤٣/٣، رقم ٢٦٣٦)، وابن حبان (٧٨/١١، رقم ٤٧٦٣)، والترمذى (١٩٣/٤، رقم ١٦٧٥) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (٢١٠/٤، رقم ٦٥٣٠)، والبيهقى (٤٠/٧، رقم ١٣٠٥٧)، والقضاعى (٤١/١، رقم ٩).

(٣) أخرجه الترمذى (٣٢٥/٤، رقم ١٩٢٩) وقال: يحيى بن عبيد الله ضعفه شعبة. وابن عساكر (٧/٥٠). وهناد فى الزهد (٢٧٦/١، رقم ٤٨٧)، وأخرجه أيضًا: ابن المبارك فى الزهد (٢٥٤/١، رقم ٧٣٠).

(٤) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٥٣/٥، رقم ٥٧٥١). وأخرجه أيضًا: ابن حبان فى الضعفاء (٢٦٩/٢، ترجمة ٩٥٥ محمد بن عبد الملك أبو عبد الله الأنصارى) وقال: كان ممن يروى الموضوعات عن الأثبات. وابن عدى (١٦٠/٦ ترجمة ١٦٤٩ محمد بن عبد الملك الأنصارى) وقال بعد أن ذكر الحديث وغيره: هذه الأحاديث عن الزهرى عن عروة عن عائشة بهذا الإسناد مناكير.

(٥) بلاقِع: جَمْعُ بَلْقَع ، وهي الأرضُ القَفْراء التي لَا شيء فيها.

(٦) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢١٧/٤، رقم ٤٨٤٢).

(٧) أخرجه الطيالسى (ص ٣٤٨، رقم ٢٦٧٠)، وأحمد (٣٠٣/١، رقم ٢٧٦١)، وأبو داود (٣٠٣/٤، رقم ٥٠١١)، والطبرانى (٢٨٧/١١، رقم ١١٧٥٨). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٢٢٠/٤، رقم ٢٣٣٢)، وابن حبان (٩٦/١٣، رقم ٥٧٨٠).

(٨) أخرجه أحمد (٤٢٢/١، رقم ٤٠١٢)، والبخارى فى التاريخ الكبير (٣٧٣/٣)، وابن ماجه (١٤٢٠/٢، رقم ٤٢٥٢) قال البوصيرى (٢٤٨/٤) : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وأخرجه ابن حبان (٣٧٧/٢، رقم ٦١٢)، والحاكم (٢٧١/٤، رقم ٧٦١٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٨٦/٥، رقم ٧٠٢٩).

وقال: حبك الشيء يُعمي ويُصم[١].

وقال: لَا يَشْكُرُ اللهَ ، مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ[٢].

وقال: لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ[٣].

وقال: إياكم والذلة؛ فإن الذلة مع القلة.

وقال: رضى الناس غاية لا تدرك.

وقال: لقاء الأحبة مسلاة للهمّ.

وقال: مَنْ أَبطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ[٤].

وقال: العلم خزائن ومفاتحها السؤال[٥].

وقال: الصحة والفراغ مغبون فيهما الناس[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٤/٥، رقم ٢١٧٤٠)، والبخارى فى التاريخ الكبير (١٧١/٣)، وأبو داود (٣٣٤/٤، رقم ٥١٣٠)، والحكيم (٢١٦/٤)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٦٨/١، رقم ٤١١). وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص ٩٩، رقم ٢٠٥)، والطبرانى فى الأوسط (٣٣٤/٤، رقم ٤٣٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٥/٢، رقم ٧٩٢٦)، والطيالسى (ص ٣٢٦، رقم ٢٤٩١)، وأبو داود (٢٥٥/٤ رقم ٤٨١١)، وابن حبان (١٩٨/٨، رقم ٣٤٠٧)، وأبو نعيم فى الحلية (١٦٥/٧)، والبيهقى (١٨٢/٦، رقم ١١٨١٢). وأخرجه أيضًا: البخارى فى الأدب المفرد (٨٥/١، رقم ٢١٨)، والقضاعى (٣٥/٢، رقم ٨٢٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥١٦/٦، رقم ٩١١٧).

(٣) أخرجه أبو داود (١١٥/٣، رقم ٢٨٧٣)، والبيهقى (٥٧/٦، رقم ١١٠٩١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٧٤/٤، رقم ٢٦٩٩)، وأبو داود (٢٨٧/٤، رقم ٤٩٤٦)، والترمذى (١٩٥/٥، رقم ٢٩٤٥)، وابن ماجه (٨٢/١، رقم ٢٢٥)، وابن حبان (٢٩٢/٢، رقم ٥٣٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٩٢/٣) وقال: غريب من هذا الوجه لم نكتبه إلا بهذا الإسناد. والرافعى (٤/٣). وأخرجه أيضًا: الديلمى (٦٨/٣، رقم ٤١٩٢) قال المناوى (٣٨٩/٤) قال الحافظ العراقى: ضعيف. قال العجلونى (٨٥/٢) : رواه أبو نعيم والعسكرى بسند ضعيف.

(٦) أخرجه البخارى (٢٣٥٧/٥، رقم ٦٠٤٩)، و الترمذى (٥٥٠/٤، رقم ٢٣٠٤) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٣٩٦/٢، رقم ٤١٧٠). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٨٢/٧، رقم ٣٤٣٥٧)، وعبد بن حميد (ص ٢٢٩، رقم ٦٨٤)، والطبرانى (٣٢٢/١٠، رقم ١٠٧٨٦)، والحاكم (٣٤١/٤، رقم ٧٨٤٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٧٠/٣، رقم ٦٣١٥)، وفى شعب الإيمان (١٢٩/٤، رقم ٤٥٤٣)، والقضاعى (١٩٦/١، رقم ٢٩٥).

وقال لعبد الله بن عباس: يا ابن عم؛ ألا أعلمك كلمات لعل الله ينفعك بهن؟ - قال ابن عباس: فقلت: نعم يا رسول الله - قال: احفظ الله يحفظك. تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة. إذا سألت فاسأل الله؛ وإذا استعنت فاستعن بالله؛ وإن استطعت أن تعمل لله بالصدق في اليقين فافعل؛ وإن لم تستطع ذلك فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا. واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج بعد الكرب، وأن مع العسر يسرًا[١].

وقال: ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات: فأما المنجيات فخشية الله في السر والعلانية. والاقتصاد في الفقر والغنى، والحكم بالعدل في الرضا والغضب. والمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه[٢].

وقال: أيها الناس، لا تخالفوا على الله أمره، فإن في الخلاف أن تسعوا في عمران ما قضى الله فيه بالخراب.

وقال: حصنوا أموالكم بالزكاة. وداووا مرضاكم بالصدقة، وردوا نوائب الدهر بالاستغفار[٣].

سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أن تدخل على أخيك سرورًا أو تكشف عنه غمًا أو تطعمه عن حاجة.

وقال: من رأى أنه مسيء فهو محسن.

وقال: سيئة تسوؤك خير من حسنة تعجبك[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩٣/١، رقم ٢٦٦٩)، والترمذى (٦٦٧/٤، رقم ٢٥١٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٦٢٣/٣ رقم ٦٣٠٢) وقال: عال من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس. والضياء (٢٥/١٠، رقم ١٥). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٤٣٠/٤، رقم ٢٥٥٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، والقضاعي في الشهاب (٣٢٥)، وانظر المجمع (١/ ٩١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٩).

(٣) أخرجه الطبرانى (١٢٨/١٠، رقم ١٠١٩٦)، قال الهيثمى (٦٤/٣) : فيه موسى بن عمير الكوفى وهو متروك. والبيهقى (٣٨٢/٣، رقم ٦٣٨٥)، والخطيب (٢٠/١٣)، وأورده ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٩٤/٢، رقم ٨١٥) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٩٩) وقال العقيلي (٤/ ٢٥٨) ت (١٨٥٨): مضر بن نوح السلمي: حديثه غير محفوظ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٧٨٧) رقم (١١٣٥): هذا حديث لا يصح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومضر لا يعرف ونقل كلام العقيلي. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٦١) والسلسلة الضعيفة (٣١٠٥).

وقال: إذا قال العبد: اللهم اغفر لي، قال له ربه - سبحانه وتعالى -: قد غفرت لك ولكنك لا تعلم.

وقال: من أذنب ذنبًا فأوجعه قلبه عليه غفر له ذلك الذنب، وإن لم يستغفر منه.

وقال: ما مست عبدًا نعمة فعلم أنها من الله تعالى إلا كتب له شكرها وإن لم يحمده.

وقال: يا ابن آدم، لست ببالغ أملك، ولا بدافع أجلك، ولا بمرفوع عن رزقك، فبماذا تشقى نفسك يا شقي، يا شقي!.

ما يؤثر عن أمير المؤمنين علي – عليه السلام –

قال: ما أخذ الله تعالى على أهل الجهل ان يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا.

وقال: وحشة الانفراد أبقى للعز من أنس التلاقي.

وقال: احذر من يطريك بما ليس فيك، فيوشك أن يبهتك بما ليس فيك.

وقال: البخل والجبن والحرص من أصل يجمعهن سوء الظن بالله تعالى.

وقال: نعمة الجاهل كروضة على مزبلة.

وقال جابر بن عبد الله: قال لي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – عليه السلام –: يا جابر، قيام الدنيا بأربع تبقى ما بقيت: عالم يستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني يجود بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم ويأخذ علمه؛ وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه ـ فإذا فعلوا ذلك تعسوا وانتكسوا؛ فهناك الويل لهم، ثم العويل عليهم.

وقال في آخر خطبة: أما بعد؛ فإن ذمتي رهينة، وأنا بها زعيم. لا يهيج زرع قوم على التقوى. وإن الخير كله فيمن عرف قدر نفسه. وكفى بالمرء جهلًا أن لا يعرف قدر نفسه.

وقال: إن البخيل فقير غير مأجور.

وخطب – عليه السلام –، فقال: احذروا الدنيا فإنها عدوة أولياء الله وعدوة أعدائه: أما أولياؤه فغمتهم، وأما أعداؤه فغرتهم.

وقال: تجنبوا الأماني فإنها تذهب بهجة ما خولتم وتصغر مواهب الله عندكم وتعقبكم الحسرات على ما أوهمتكم أنفسكم.

وقال: إنما زهد الناس في طلب العلم ما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، يقول: نعوذ بالله من علم لا ينفع.

وقال: كل شيء يعز حين ينزر، والعلم حين يغزر.

وقال: اطلب الرزق من حيث كفل لك به، فإن المتكفل لا يخيس به؛ ولا تطلبه من طالب مثلك لا ضمان له عليه إن وعدك أخلفك، وإن ضمن لك خاس بك.

وكتب - عليه السلام - إلى سلمان -رحمه الله- وهو بالمدائن واليا عليها: أما بعد؛ فإن الدنيا مثلها مثل الحية لين مسها، يقتل سمها. فأقلل ما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها. ودع غمك بهمومها لما أيقنت من فراقها، وكن آنس ما تكون بها أحذر ما تكون منها: فإن صاحبها كلما اطمان فيها إلى سرور أشخصته منه إلى مكروه.

ووصف جعفر بن يحيى البلاغة ثم قال: هو مثل كلام أمير المؤمنين - عليه السلام - حيث، قال: (أين من سعى واجتهد، وأعد واحتشد، وجمع ومدد، وبنى وشيد، وفرش ومهد). فاتبع كل لفظة لفظة تناسبها. ولو نقل بعض الألفاظ إلى بعض لكان كلامه مستويا، ولكن: أين سماء من أرض.

وقال: المسؤول حر حتى يعد.

وقال: الساعي ظلام لمن سعى به، خائن لمن سعى إليه.

وقال: رب حياة سببها التعرض للموت، ورب منية سببها طلب الحياة.

وقال: احموا النفوس والتمسوا لها طرف الحكمة. فإنها تمل كما يمل الجسد.

وقال: الفقيه الواعظ هو الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى، ولا يؤمنهم من مكر الله، ولا يوئسهم من روح الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله.

وقال: حسن الظن أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك.

وقال: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وسأله رجل عن الرجل يذنب ويستغفر، ثم يذنب ويستغفر، ثم يذنب ويستغفر، ثم يذنب ويستغفر، فقال - عليه السلام -: (يستغفر أبدا حتى يكون الشيطان الحسير).

وروى الحسن بن علي -عليهما السلام- عن أبيه أنه قال: يقول الله - عز وجل -: يا ابن آدم، إذا عملت بما افترضت عليك فأنت من أعبد الناس، وإذا اجتنبت ما نهيتك عنه، فأنت من أورع الناس، وإذا اقتنعت بما رزقتك فأنت من أغنى الناس.

سئل أمير المؤمنين علي - عليه السلام - عن النعيم، فقال: من أكل خبزًا لبر وشرب ماءً فراتًا وأوى إلى ظل، فهو في نعيم.

وقال: ألا إن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، ونزعت عنها لجمها، فأقحمت بهم إلى النار فهم فيها كالحون. ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها، ثم أنزلوا وفتحت لهم أبواب الجنة وقيل: ادخلوها بسلام آمنين.

وقال في خطبة له: أحسن الأمور عند الله أحسنها عند الناس، لأن الله لا يأمر إلا بالحسنى، ولا ينهى إلا عن القبيح؛ ولا تخافوا ظلم ربكم وخافوا ظلم أنفسكم.

وقال في خطبة أخرى: اللهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطى. ولك الحمد على ما تُبلي وتبتلي. حمدًا يكون أرضى الحمد لك، وأحب الحمد إليك، وأفضل الحمد عندك، حمدًا يبلغ ما أردت، وحمدًا لا يحجب عنك ولا يقصر دونك، ويبلغ فضل رضاك ثم قال: أوصيكم بخصال لو ضربتم إليها آباط الإبل كن أهلا لها: لا يرجونّ أحد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحيين إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحيين إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه.

وقال: من قوى فليقوَ على طاعة الله، ومن ضعف فليضعف عن محارم الله ـ فكان ابن المقفع يقول: ليجتهد البلغاء أن يزيدوا في هذا حرفا من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر. اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك. من أخافك حتى آمنك خير لك ممن آمنك حتى أخافك. لا تعدنّ شرا ما أدركت به خيرا. ما منعني رعاية الحق له من إقامته عليه.

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: للعبد بين يدي الله - عز وجل - خمسون موقفا كل موقف ألف عام فقال بعض المفسرين: هذا الخبر موافق لقول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء: إن عبدي يستخيرني في أمر، فإذا خِرتُ له لم يرْضَ به.

وقيل في قوله - عز وجل -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣] أذهب عنهم الشهوات.

وقيل في قوله - عز وجل -: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] - قال: بالشهوات. وقال بعض العارفين: نعم يا رب، قلت: إني غفور ـ أفلا أتقي الغفور وأعبده؟

وفي الوحي القديم: مسكين عبدي، يسره ما يضره.

وصى حكيم ابنه فقال: إذا أردت أن تؤاخي إنسانا فأغضبه قبل ذلك ثم عامله؛ فإن أنصفك، وإلا فاحذره.

وقال الحسن: ما كتمته من عدوك فلا تظهر عليه صديقك.

وقال آخر: هاجر إلى الراغب فيك.

سئل بعضهم عن المروءة فقال: إفاضة المعروف: إما بلسانك، وإما بمالك، وإما بجاهك.

وقال: حاجب الرجل عامله على عرضه. الجود حارس الأعراض. من رضي عن نفسه رأى في غيره ما لا يرى. المنتمون إلى العلم كثير، وإن حصلوا أفناهم التحصيل. أصاب متأنٍ أو كاد، وأخطا مستعجل أو كاد.

قيل لبعض العلماء: إن أبا ذر كان يقول: الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة. فقال: رحم الله أبا ذر، ولكني أقول: من توكل على الله حق توكله في حسن الاختيار له، لم يحب أن يكون في حال سوى حاله.

وقال: إذا أراد الله بعبد خيرًا آنسه بالوحدة.

وقال الربيع بن خيثم: تعلموا العلم، فإذا تعلمتم فاعتزلوا الناس. وقال آخر: لو لم تكن في الوحدة من الراحة إلا الخلاص من مداراة الناس والسلامة من شرهم، لكان كثيرًا طيبًا.

وقال بعض الأمراء لرجل زاهد مجتهد: ما رأيت أزهد منك ولا أصبر، قال: أما زهدي فرغبة كله، وأما صبري فجزع كله. فقال: فسر لي ما قلته، قال: أما زهدي فللرغبة فيما هو أعظم مما أنت فيه، وأما صبري فللجزع من النار.

لسان العلم الصدق. الكذب أكثر ما أنت سامع. لا تحدث الكذوب بالصدق فيشك فيك.

اللغة الحلّافة تدل على كذب أصحابها. اصبر على عمل لا بد لك من ثوابه، وعن عمل لا صبر لك عن عقابه. أعلُّ القلوب قلب حاسد. أنغض الناس عيشًا الحسود. خير الأمور مغبةً العفو.

قيل لبعضهم: لم تجمع المال وأنت حكيم؟ قال: لأصون به العرض، وأؤدي منه الفرض، وأستغني به عن القرض.

قيل لبعض الصالحين: فلان يشتمك - وكان صديقا له - فقال: هو في حل. فقيل له: ولم؟ - قال: ما أحب أن يثقل الله ميزاني بأوزار إخواني.

وقيل: ليس على المذنب أكثر من التوبة؛ فكيف يكون على من لا ذنب له أكثر من الاعتذار؟

وقيل لأعرابي: كم ولدا لك؟ - قال: لي عند الله خمسة، وله عندي ثلاثة.

وقال رجل لابن السماك: عظني، فقال: أحذرك أن تقدم على جنة عرضها السموات والأرض، وليس لك فيها موضع قدم.

وقال آخر: الويل لمن ضاقت عنه رحمة الله التي وسعت كل شيء.

وقال حكيم: لو رأيتم مسير الأجل لأعرضتم عن غرور الأمل.

سب رجل حكيما فأعرض عنه، فقال له: لك أقول. فقال: وعنك أُعرض.

كلم رجل بعض السلاطين بغليظ الكلام، فقال: لقد أقدمت علي بكلامك. فقال: لأني كلمتك بعز اليأس لا بذل الطمع. وقال آخر: عجبت لمن ظلم لغيره كيف ينصف من نفسه. وعجبت لمن أنصف من نفسه كيف يظلم لغيره.

وقال الحسن البصري: الدنيا جيفة والناس كلابها.

وقال: من لم يقف مواقف التهمة لم يكن له أجر الغيبة.

وقال الحسن بن علي -عليهما السلام-: الحمد لله الذي لو كلف الجزع على المصيبة لصرنا إلى معصيته، وآجرنا على الصبر الذي لا بد من الرجوع إليه.

وقال جعفر بن محمد لأصحابه: عليكم بالصبر؛ فإن به يأخذ الحازم وإليه يعود الجازع.

وقيل لحكيم: هل تعرف أجلَّ من الذهب؟ - قال: نعم، المستغني عنه.

تعزية: إن الماضي قبلك أنت المأجور فيه، وإن الباقي بعدك هو المأجور فيك.

وقال التيمي: إن الله تعالى أنعم على المخلوق بقدر قدرته، وكلفهم من الشكر بقدر طاقتهم.

وقال آخر: أفضل الناس من تواضع عن رفعة وتزهد عن ثروة، وأنصف عن قوة.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: نحن بخير ما أبقاك الله. فقال: أنت بخيير ما اتقيت الله تعالى.

تزوج بعض الصالحين امرأة صالحة فقال لها: إني سيء الخلق. فقالت له: أسوأ خلقا منك من يلجئك إلى سوء الخلق.

قال بعض العقلاء: أعقل الناس أعذرهم عند الناس.

وقال آخر: من لم يتحرز من علمه بعقله هلك من قبل علمه.

قيل للأعمش: يا أبا محمد، إنك لتحب الدراهم ـ فقال: إنما أحب الاستغناء عن مثلك.

من إشارات الصوفية

من عجيب إشارات الصوفية أن بعضهم سمع قومًا يقرءون القرءان، فقال: ويحكم! ﴿لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١].

وسأل بعضهم صديقًا له غنيًا المواساة، فقال: لك رب فاطلب منه. فقال الصوفي: إني لأستحي من ربي أن أطلب منه سواه.

وسئل عن قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: إذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت ـ فقال: قوتها معرفة الله - عز وجل - ـ وسئل عن الزاهدين من هم؟ فقال: كلكم زاهدون في الله - عز وجل -.

وسئل عن الأنس، فقال: وحشتك من نفسك.

وقال آخر: لو أن الدنيا مملوءة حيات وعقارب وسباعًا وأفاعي ما خفتها؛ ولو بقي فيها من البشر واحد لخفته لأن البشر شر منها.

وقال آخر: إلهي إن قصدتك أتعبتني، وإن هبت منك طلبتني؛ ليس معك راحة، ولا في سواك أنس، فالمستغاث بك منك ـ وهذا يشبه قول الآخر: يا عجبا كل العجب، أشكو إليه منه، وأهرب منه إليه. وأستعين به عليه، وأتوب منه إليه، وأطيعه به، فكله هو.

وقال آخر: من عرف مقدار ما يطلب هان عليه ما يبذل.

وسئل بعضهم عن قول الله - عز وجل -: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] ـ قال: هو سائل العلم. وفي القرءان مثله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١] وما يليه.

وسئل عن قول النبي - عليه السلام -: "إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا ربكم العافية"ـ فقال: هم أهل الغفلة عن ذكر الله تعالى.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤] فقال: أوجده الهمةَ ليذوق طعم العصمة.

نظر بعض الملوك إلى ملكه فأعجبه، فقال: إنه لملك لولا أن بعده لهلك، وإن لسرور لولا أنه غرور، وإن ليوم لو كان يوثق له بغد.

وقال بعضهم: أعظم حجاب العارفين الجنة. فقيل: ولم؟ فقال: لأن الاشتغال بها وبذكرها عن الحق نفسه هو المصيبة الكبرى. قيل له: ولم تكره الجنة؟ قال: لأنها خرجت من تحت ذلكن.

روي أن بعض الأنبياء أتاه ملك، فقال: قد جئتك بالعقل والدين والعلم فاختر أيها شئت ـ فاختار العقل. فقال الملك: الدين والعلم ارتفقا، فقالا: أمرنا ألا نفارق العقل. وقد أجمع العلماء على أن من لم يكن عقله أكمل ما فيه كان هلاكه بأكمل ما فيه.

يحكى أن أبا ربيعة النحوى، قال: حدثت بهذا الحديث الأصمعي، فقال: هذا حسن؛ وعندي آخر يشبهه: كانت العرب تقول: من كانت فيه خصلة هي أكمل من عقله فبالحري أن تكون سبب منيته. فحدثت بهذين الحديثين أبا عبيدة، فقال: هما حسنان؛ وعندي أحسن منهما: كانت العرب تقول: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه. فحدثت بهذه الأحاديث أبا دلف، فقال: هذه حسان، وعندي آخر يشبهها: كان العلماء، يقولون: كل شيء إذا كثر رخص، إلا العقل: فإنه إذا كثر غلا.

فاما حديث الخليل بن أحمد لما اجتمع مع ابن المقفع وما قال أحدهما للآخر فهو مشهور.

وأوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء: لا تسكر، فإن السكر يذهب عنك أحب خلقي إليّ وهو العقل.

وأوحى إلى بعض الأنبياء: إذا قصدني عبدي فقد وصل إلي.

وقال بعض العلماء: لأن يطلب الرجل الدنيا بأقبح ما تطلب به الدنيا أحسن من أن يطلبها بأحسن ما تطلب به الآخرة.

رأى محمد بن واسع رجلا يضحك، فقال له: لو رأيت في الجنة رجلا يبكي، ألست كنت تتعجب منه؟ قال: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى أين مصيره أعجب منه.

غاية البطل الرامي أن يقتل سهمه رجلا واحدا، لكن كيد العاقل يقتل برمية واحدة الجيش بأسره.

وقال بعض الأمراء لوزيره: مر جُباة الأموال بالرفق وترك الحرق، فإن العَلَقة تنال من الدم بغير أذى ولا سماع صوت ما لا تناله البعوضة بحَرّ لسانها وهول صوتها.

ألفاظ لبعض الملوك الأدباء

الحرص ينقص قدر المرء ولا يزيد في حظه. الحسد والكذب والنفاق أثافي الذل. الجزع أتعب من الصبر. عود الحياة كل يوم يعتصر. من أرخى عنان أمله عثر بأجله. المقتصد أطول أكلا وأدوم فضلا. شر السلاطين من خافه البريء. إصلاح المال خير من طلبه. الأمل سلطان الشيطان على قلوب الغافلين.

* * * * *

مكتوب في التوراة: "أطعني فيما أمرتك، فما أعرفني بما يصلحك".

يقال: إن أول حرف كتب في الزبور: "طوبى لرجل لم يسلك طريق الخطائين، ولم يعمل أعمال المذنبين" ـ وأول حرف كتب في الألواح من التوراة: "ويل للظلمة".

ومما يؤثر في الوحي القديم: يقول الله تعالى: يا ابن آدم، لو أن لك الدنيا كلها لم يكن لك منها إلا القوت. فإذا أنا أعطيتك القوت منها وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن.

وقال بعضهم: أعيا ما يكون الكريم إذا سأل حاجة لنفسه، وأعيا ما يكون الحكيم إذا خاطب سفيهًا.

وكانوا يقولون: الصبر صبران: صبر عما تهوى، وصبر على ما تكره. ثم اختلفوا: فقال بعضهم: الصبر عما تهوى أفضلهما، وقال آخرون: الصبر على ما تكره أفضلهما.

أتى رجل مطيع بن إياس، فقال: جئتك خاطبًا مودتك ـ فقال له مطيع: فاجعل المهر أن لا تقبل فيَّ قولَ الناس.

وقال عبد الله بن صالح: دخل عليّ طاووس وأنا مريض، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، ادع الله لي، فقال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

وقال الأحنف: الشكر في ثلاثة منازل: محبة في القلب، وثناه باللسان، ومكافأة بالفعل.

وقال محمد بن الحنفية في قول - عز وجل -: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا﴾ [المعارج:٥] - قال: صبرًا لا يشوبه الشكوى إلى الناس. فقال: ومن شروط الصبر أن تعرف كيف تصبر، ولمن تصبر، وما تريد بصبرك، وإلا كنت كالبهيمة تصبر أو تضطرب من غير معرفة بحقوق الصبر ولا وضعه في موضعه.

جعل لرجل جُعْلٌ على أن يُسفه الأحنف. فأتاه، فقال له: يا أبا بحر، لا حياك الله، فضحك، وقال: هل لك في طعام أو شراب؟ فإنك تحدو بحمل ثقا، وجعل لآخر شيء على أن يستخفه؛ فأتاه فأوسعها شتما، فتبسم، وقال: ما أعلمهم أين وضعوا خطرهم.

وعابه رجل بالدمامة، وقال: لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ـ فقال: لقد عبتني بما لم أوامر فيه.

كان أكثم بن صيفي يقول: من إكرام الرجل نفسه ألا يتكلم بكل ما قد أحاط به علما. والعرب تقول: رب كلمة تقول: دعني.

وكان في محراب عمدان مكتوبا بالسند: في صدره: سلّط السكوت على لسانك إن كانت العافية من شأنك، وفي الجانب الأيمن منه: السلطان نار فانحرف عن مكافتحها؛ وفي الجانب الأيسر منه: ولِّ الثكل أمَّ غيرك.

وقيل لعيسى - عليه السلام -: دلنا على صالح عمل نستحق به الثواب. فقال: لا تنطقوا أبدا، فقالوا: وكيف نستطيع ذلك؟ فقال: فلا تنطقوا إلا بخير.

وقال حكيم: إنما حمد الناس السكوت لأنه وعاء الأخبار، وتأولوا قولهم: لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب: إن الكلام لو كان في طاعة الله من فضة لكان السكون والإمساك عن معاصيه من ذهب.

وحكى الخليل بن أحمد عن بعض الملوك ممن طال عمره في ملكه، قد جرى بين يديه ذكر الندم، على أي شيء أندم؟ قال: على اجتهادي في رضا من لا شكر له.

وكان المأمون يقول: إنما يراد الملك لنفاذ الأمر، وإنما يراد نفاذ الأمر لتحاز به الدنيا، وإنما تحاز الدنيا لتعطي المستحقين؛ وإلا، فما قدر حظك منها؟

وقال بعض الصحابة: ما كذبت منذ أسلمت، إلا أن الرجل يدعوني إلى طعامه، فأقول: ما أشتهيه.

وقيل لرقبة بن مصقلة: إنك لتكثر الشك في الحديث. فقال: نشك محاماة على اليقين.

وقيل لبعضهم: ما أحسن بالإنساك أن يصبر عما يشتهي، فقال: أحسن ألا يشتهي إلا ما ينبغي. وقد قيل: إن من العصمة أن لا تجد.

وقال عبد الله بن مسعود: اجعلوا بينكم وبين الحرام حاجزا من الحلال.

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي، وهو والي البصرة يعظه: لئن كنت إذا عصيت ربك ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن ظننت أنه لا يراك لقد كفرت.

قرأت في بعض الكتب المنزلة أنه: ليس بنافعك ما تعلم إذا لم تعمل بما علمت، مثل ذلك مثل رجل حزم حزمة حطب فأراد حملها فلم يطق فوضعها وجمع إليها.

وقال المسيح - عليه السلام -: أبغض العلماء إلى الله - عز وجل - الذي يحب الذكر وأن يوسع له في مجالس العظماء ويدعى إلى الطعام. وحقا أقول: لقد تعجلوا أجورهم في الدنيا.

وقيل: أشد الناس عند الموت ندامة العلماء المفرطون.

وقالوا: تعلم قول: (لا أدري) فإنك إن قلت: (لا أدري) علموك حتى تدري؛ وإن قلت: (إني أدري) سألوك حتى لا تدري. وما أحد من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: اسألوني، إلا علي بن طالب - عليه السلام -.

قال سهل بن أسلم العدوي في قول الله - عز وجل -: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] إنه ليس سائل طعام ولكنه سائل علم.

وقال أبو الدرداء يوما: يا أهل دمشق، أما تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون!، قد كانت الملوك قبلكم يجمعون فيوعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بورا، وأملهم غرورا، وبيوتهم قبورا. هذه عاد قد ملأت، ما بين عدن إلى عمان، أموالا وأولادا، فمن يشتري من تركه عاد بردهمين؟

وكان يقول: من لم يكن غنيا عن الدنيا فلا دنيا له.

وقيل لمحمد بن سيرين: كيف أصبحت؟ ـ فقال: كيف يصبح من يرحل في كل يوم إلى الآخرة مرحلة؟

وقال والي البصرة لمالك بن أنس: ادع الله لي، قال: بالباب مظلوم يدعو عليك.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] - قال: هم ذوو العقل.

وقال معاوية: ما غضبي على من أملك وما غضبي على من لا أملك.

أثنى رجل على محمد بن واسع، فقال له محمد: يا هذا، إن الذنوب لو كان لها ريح لما استطعت أن تدنو مني.

وقال ابن السماك: إن أناسًا غرهم الستر وفتنهم الثناء، فلا يغلبن عليك جهل غيرك بنفسك.

وقال آخر: ما أحب أن يعرفني بطاعة الله غيره.

وقال أيوب السختياني: ما صدق الله عبدٌ إلا سره ألا يشعر بمكانه.

وقال آخر: اعتزل الشر يعتزلك الشر، فإن الشر يسرع إلى الشر.

جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس. ليس بين الجنة والنار منزل ينزله العبد، فرحم الله امرءا اختار لنفسه أفضلهما.

ما اخترته من وصايا لقمان لابنه

اغلب غضبك بحلمك، ونزقك بوقارك، وهواك بتقواك، وشكك بيقينك، وباطلك بحقك، وشحك بمعروفك.

كن في الشدة وقورا، وفي المكاره صبورا، وفي الرخاء شكورا، وفي الصلاة متخشعا، وإلا الصدقة متسرعا.

لا تهن من أطاع الله، ولا تكرم من عصى الله، ولا تدع ما ليس لك، ولا تجحد ما عليك.

لا تعترض بالباطل، ولا تستحي من الحق، ولا تقل ما لا تعلم، وتتكلف ما لا تطبيق، ولا تتعظم، ولا تختل، ولا تفخر، ولا تضجر، ولا تقطع الرحم، ولا تبلينّ الجار، ولا تشمت بالمصائب، ولا تذع السر، ولا تغتب، ولا تحسد، ولا تنبز، ولا تهمز. وإن أسيء إليك فاغفر، وإن أحسن إليك فاشكر، وإن ابتلبت فاصبر. احفظ العبر واحذر الغبر. انصح المؤمنين، وعد مرضاهم، واشهد جنائزهم، وأعن فقراءهم. أقرض خلطاءك، وأنظر غرماءك، والزم بيتك، واقنع بقوتك. تخلق بأخلاق الكرام، واجتنب أخلاق اللئام.

اعلم يا بني أن المقام في الدنيا قليل، والركون إليها غرور، والغبطة فيها حلم. فكن سمحًا سهلًا، قريبًا أمينًا، وكلمة جامعة: اتق الله في جميع أحوالك، ولا تعْصه في شيء من أمورك.

* * * * *

كان الحسن البصري، يقول: ذكر النعمة شكر.

كان يزيد الرقاشي يعظ إخوانه ويقول: إنه ليخيل إلي أن كلامي لو نجع في قلبي لنجع في قلوبكم. لكن كيف بالقائل إذا كان مدخولا! خذوا الذهب من الحجر، واللؤلؤ من البحر، والكلمة الطية ممن قالها وإن لم يعمل بها.

وقال خالد بن صفوان: رأيت رجلا شتم عمرو بن عبيد فما بقّى شيئا، فلما سكت قال له عمرو: آجرك الله على الصواب، وغفر لك الخطأ، قال خالد: فما حسدت أحدًا حسدي له على حلمه وكلمته.

وقال بشر بن الحارث: من سأل الدنيا فإنما يسأل طول الوقوف.

وقال سفيان: إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي. وقال آخر: ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة.

وسئل الحسن عن قول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا﴾ [آل عمران: ٧٧] ـ ما الثمن القليل؟ قال: الدنيا بحذافيرها.

وقال: الدنيا تطلب الهارب منها، وتهرب من الطالب لها. فإن أدركت الهارب منها جرحته، وإن أدركها الطالب لها قتلته.

ويحكى أن بعض أهل البطالة مر بالمسيح - عليه السلام -، وقد توسد حجرًا، فقال: يا عيسى، قد رضيت من الدنيا بحجر! فقذف به إليه، وقال: هذا لك مع الدنيا لا حاجة لي فيه.

وقال آخر: اعمل للدنيا على قدر مكثك فيها، وللآخرة كذلك. ويحكى عن الوحي القديم أن الله تعالى يقول: إذا أحب العالم الدنيا نزعت لذة مناجاتي من قلبه.

مر عبد الله بن المبارك برجل واقف بين مقبرة ومزبلة، فقال: يا رجل، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا، بينهما معتبر: كنز الأموال، وكنز الرجال.

وتحدث إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: قال لي حمزة القارئ: يا إسحاق، إن لي فيك رأيا: أترضى ـ مع فهمك وأدبك ورأيك ـ أن يكون عوضك من الآخرة فضل مطعم على مطعم؟ وقال الحسن البصري: رب هالك بالثناء عليه، ومغرور بالستر عليه، ومستدرج بالإمهال له.

وقال آخر: من ذا الذي بلغ جسيمًا فلم يبطر، واتبع الهوى فلم يعطب، وجاور النساء فلم يفتن، وطلب إلى اللئام فلم يهن، وواصل الأشرار فلم يندم، وصحب السلطان فدامت سلامته؟

وقال: أسوأ الرجال حالًا من لا يثق بأحد، ولا يثق به أحد، لسوء فعله. وقال أمير المؤمنين علي - عليه السلام -: إن أخيب الناس سعيا وأخسرهم صفقة رجل أتعب بدنه في آماله، وشغل بها عن معاده، فلم تساعده المقادير على إرادته، وخرج من الدنيا بحسرته، وقدم على آخرته بغير زاد.

قيل لبعض الصحابة: ما فعل أهلك وعشيرتك؟ فقال: أكلهم الدهر الذي لا يشبع.

وقال: قبح الله الدنيا؛ فإنها إذا أقبلت على إنسان أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

وقال المسيح - عليه السلام - لقوم غلوا فيه: إني أصبحت لا أملك نفع ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أحذر، وأنا مرتهن بعملي، والخير كله بيد غيري: فأي فقير أفقر مني، وأي عبد أحوج إلى مولاه مني.

أسمع رجل الأحنف فأكثر؛ فلما سكت، قال الأحنف: يا هذا! ما ستر الله أكثر.

وقال الأحنف: العجلة في خمسة أشياء محمودة: في الكريمة إذا خطبها كفؤ أن تزفها، وفي الميت حتى تخرجه، وفي عيادة المريض حتى تخرج من عنده، وفي الصلاة إذا دخلتها حتى تؤديها، وفي الضيف إذا نزل حتى تدني إليه الطعام.

وقال آخر: الفاضل يجنب مجلسه ثلاثا: الدعابة فإنها تحدث الإحنة، وذكر النساء فإنه سخف في المروءة، والإفاضة في ذكر الطعام فإنه يخبر عن نفسه بالدعابة.

وقال الحسن: لله يوم الحكم فيه بالقسط، والجزاء عن الأعمال، والقصاص من الحسنات.

قال رجل لوزير: لئن أصبحت الدنيا بك مشغولة، لتمسين منك فارغة.

وقيل لأعرابي: بم ساد فلان قومه؟ - قال: بحسبٍ لا يطعن عليه، ورأي لا يستغن عنه.

أتى عمر بن الخطاب - رحمه الله - بنائحة قد بلبلت، فقال: أبعدها الله إنه لا حرمة لها، ولا حق عندها، ولا نفع معها، إن الله تعالى أمر بالصبر وهي تنهى عنه، عن الجزع وهي تأمر به. تريق دمها، وتبكي شجو غيرها، وتحزن الحي، وتؤذي الميت.

وقال الحسن: إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى.

وقال: العادات قاهرات: فمن اعتاد شيئا في سره وخلواته فضحه في علانيته عند الملأ.

وروي أن عيسى - عليه السلام - قال لرجل لا يستحق: "حفظك الله" فقيل له: أتقول: هذا لمثل هذا؟ فقال: لسان عُوّد الخير فهو ينطق به لكل أحد. وقيل للحصين: ما

السرور؟ - قال: عقل يقيمك وعلم يزينك، وولد يسرك، ومال يسعك، وأمن يريحك، وعافية تجمع لك المسرّات. فقيل له: ما اجتمعت لأحد. فقال: ولو اجتمعت ما دامت.

وقال بكر بن عبد الله المزني: إن أالله أمر بطاعته وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذرًا، ونهى عن المعصية وأغنى عنها ولم يجعل في ركوبها عذرًا. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " فضل العلم خير من فضل العبادة ".

وقال: خُيّر سليمان بن داود بين الملك والمال والعلم، فاختار العلم. فأعطي العلم والمال والملك باختياره العلم.

وقال ابن عباس: يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات على الذين آمنوا.

ويحكى في مناجاة موسى أنه قال: رب من أعلم خلقك؟ فقال: العالم الذي يبتغي إلى علمه علمًا.

سمع أمير المؤمنين علي - عليه السلام - رجلا يغتاب رجلا عند ابنه الحسن - عليه السلام -، فقال: يا بني، نزه نفسك وسمعك عنه؛ فإنه نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك.

وقال سفيان الثوري: إذا لم يكن لله في العبد حاجة خلى بينه وبين الدنيا.

وقال هشام بن عبد الملك لبعض نساك الشام: عظني، فقرأ عليه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] هذا لمن طفف في المكيال والميزان، فما ظنك بمن أخذه كله.

وصف بعض النساك رجلًا مسرفًا على نفسه، فقال: ما أطول سكر كأس شربها فلان، ولما أخاف عليه من عاقبة خُمارها أشد من سكره بها، حيث لا ترجى له أوبة ولا تقبل منه توبة؛ وما ذلك منه ببعيد. ها هو.

وقال آخر: لا شيء أمنع جانبًا من العلم: وذلك أنه لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك. وأنت إذا أعطيته الكل كنت من إعطائك البعض على خطر.

قال سفيان: ما عالجت شيئا أشد عليّ من نفسي.

وقال إبراهيم بن أدهم ـ لما قيل له: لم لا تصحب الناس؟، فقال: إن صحبت من هو دوني، آذاني بجهله؛ وإن صحبت من هو فوقي، تكبر علي، وإن صحبت من هو

مثلي، حسدني؛ فاشتغلت بمن ليس في صحبته ملال، ولا في وصله انقطاع، ولا في الأنس به وحشة.

وقال أويس القرني: ما سمعت كلمة للحكماء كانت أنفع لي من قوله: صانع وجهًا واحدًا يكفك الوجوه كلها ـ وأويس هذا من سادات الأبرار الزهاد والعلماء الأمجاد.

وذكر ابن أبي ليلى الفقيه أنه وجد في قتلى رجّالة علي بن أبي طالب - عليه السلام - يوم صفين.

وقال ابن السائب: زارني صالح المري، فقلت: يا أبا بشر من أين أقبلت؟ ـ قفال: من منزلي. وما زلت أخوض المواعظ إليك، ومررت بدار فلان ودار فلان ـ حتى عدد كثيرا من الخرابات ثم قال: فكل دار تناديني: يا صالح، خذ موعظتك مني! نزلني فلان ثم ارتحل عني ـ حتى عددت خلقا ثم قالت: ارتحلوا بأسرهم ثم ارتحلنا في آثارهم.

وقال بعض الزهاد: الوحدة رأس العبادة.

وقال ذو النون: من أنس بالوحدة كان الحق مؤنسه.

وقال آخر: من أنس بالوحدة فقد اعتقد الإخلاص.

شكا رجل إلى الحسن بن صالح حاجة وضرا وبكى. فقال الحسن: والله ما الدنيا كلها عوضًا من بكائك، هب الجوع نوعا من أنواع الموت الذي يموت به الإنسان فمت.

قال الحجاج لأهل مكة: بم سودتم فلانا؟ ـ فقالوا: كان يواسي عائلنا، ويصدق قائلنا، ويعود مرضانا، ويصلي على موتانا، ويدعونا بكُنانا.

وقال بعض العلماء: النعمة الصافية الهنيئة هي التي ليس عيها ثائر يغتالها، ولا ذو حسد يحتال لها، ولا سلطان يتحكم فيها - يعني العلم.

وقال: أمر لا تدري متى يفجؤك لم لا تستعد له قبل أن يغشاك؟ وقال أعرابي: ما بال قوم حطوا ركابهم في غير منازلهم يظنون أن يتخلفوا عن السفر الذي أمامهم هيهات! أنى ذلك.

وقال أعرابي: لا تكلف راجيك خدمة المطالبة.

وقال يونس بن حبيب النحوي: العرب لا تقول: "تزوجت بامرأة"، إنما تقول: "تزوجت امرأة"، فقال الله - عز وجل -: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤] المعنى: قرناهم، فهناك ازدواج ما واقتران، وليس كما تذهب إليه العامة.

وقال آخر: دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره؛ فما كل من أنكر نكرا تطيق أن توسعه منك عذرا.

وقال آخر من الصالحين: إني لأستحي من الله أنه يراني مشغولا عنه وهو مقبل عليّ.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا والآخرة إلا بالله. وما أوحش ساعة تغيب فيها عن ذكر الله ـ وهذا قريب من قول آخر: إن من مرت له ساعة في غير ما خلق له لجدير أن يطول عليها حزنه.

سمع بعض العارفين معاذة العَدَوية - وهي نظيرة رابعة العدوية - وهي تقول في صلاة الليل وكانت تحييه عبادة: يا نفس، النوم أمامك لو قد مت لطالت رقدتك. فقال العارف: هذا كلام امرأة لا تعرف الحياة ولا الموت، فاتعظ بكلامها، وتذكر الحياة لتعرف الموت.

وكانت سعيدة بنت زيد ـ وهي أخت حماد بن زيد ـ تقول: من فكر في نعم الله ثم فكر في تقصيره في الشكر استحيا من السؤال.

وقال عاصم الجحدري: سمعت أم طلق تقول: ما ملكت نفسي ما تشتهي منذ جعل الله لي عليها سلطانا. وأم طلق هي التي تقول: النفس ملك إن تبعتها، ومملوك إن أتعبتها، تعني النفس الشهوية.

وقاتل بعضهم: من اشتاق خدم، ومن خدم اتصل، ومن اتصل وصل، ومن وصل عرف.

وقال أحمد بن حنبل يوما لأصحابه: من أحب أن يعرف بعده من طريق العارفين فليدخل إلى زبْدة أخت بشر الحافي؛ إني دخلت إليها، فقالت: يا أحمد، إنك لا تهتدي إلى الله عز سلطانه وأنت تطرق إليه.

وقالت أم كلثوم العابدة لمن قال لها: لو خرجت وتفرجت، فقالت: إن رؤية القادر تشغلني عن رؤية القدرة.

وقال بعض العارفين: كل الناس أمروا بقول: "لا إله إلا الله" إلا النبي - صلى الله عليه وسلم -، فإنه أمر بالعلم، وذلك قوله - عز وجل -: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ـ لعلو حاله وعظم محله.

وقال بعض الملوك لولده: لذة العفو يلحقها حميد العاقبة؛ ولذة التشفي يلحقها ألم الذم والندامة.

وقال: الحقود لا ينال شرفا ولا يفارق أسفا.

وقال: كل صانع يصنع إلى نفسه، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيته إلى نفسك، ووقيت به عرضك.

وقال قيس بن عاصم: السؤدد هو بذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجيل القِرى.

تحدث قوم في مجلس الأوزاعي ومعهم أعرابي من بني عُلَيم لا يتكلم، فقالوا له: بحقٍ ما سميتم خُرْس العرب. فقال: إن الحظ للمرء في أذنه وحظ غيره في لسانه. فذكرنا ذلك للأوزاعي، فقال: وأبيه لقد حدثكم فأحسن.

وقال طبيب الحجاج تياذوق: ولدك ريحانتك سبع سنين، وخادمك سبع سنين، وعدوك بعد ذلك.

وكان يقول: من سعادة المرء أن يتفق له ولد نجيب، وطعام هنيء، وامرأة موافقة، وخادم بصير بخدمته.

تزوج أعرابي امرأة جميلة ـ وكان الأعرابي دميما ـ فقالت له يوما: إني أرجو أن أكون أنا وأنت من أهل الجنة، قال: ومن أين حكمت لنا بها؟ ـ

قالت لأنك أعطيتَ مثلي فشكرت، وأُعطيتُ مثلك فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة.

وقال بعضهم: من قبل معروفك فقد باعك مروءته.

وقال من قلت مداراته جفاه الحمد، وأعرضت عنه المحبة، واستباحت محاسنه المتعة، وأنهك فضله العذل، وأقام في صغار وندم.

وقال: كن مشاركًا لأهل زمانك في مجالس، مفارقًا لهم فيما يكون الاشتغال به أكثر منفعة لك.

وقال: إن التواضع يرفع، كما أن الكبر يضع؛ وهو بعد في أمان من المعصية، وحمى من اللائمة، وحرز من المقت.

وقال في آخر كتاب كتبه إلى صديق له يعظه: لو نطق الكتاب لقال: أنا رهن لمن استرشد بدلالتي، وانقاد لإجابتي بالنجاة من الحيرة والندامة، كفيل بالغبطة والسلامة.

وقال آخر: إن الله تعالى جعل رضاه عنك في حسن نظرك لنفسك، وجعله عليك في سوء نظرك لها. فانظر كيف يكون قيامك بشكره.

وقيل لبعض فلاسفة الإسلاميين: لم لا ترغب في المال؟ - قال: ولم أرغب في شيء يجيء بالاتفاق لا بالاستحقاق، والجود يأمر بإتلافه، والزهد يأمر بترك التعرض له، والشره يأمر يجمعه، والبخل يأمر بحفظه.

وكان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول: إلى الله أشكو بلادة الأمين ويقظة الخائن.

وقال قيس بن عاصم: من خاف إساءتك اعتقد مساءتك، ومن خاف صولتك ناصب دولتك.

وقال آخر: من خلا بالعلم لم توحشه حلوة، ومن أنس بالكتب لم تفته سلوة.

وقالوا: من فعل ما شاء لقي ما شاء.

وقيل: من أمرت حياته حلت وفاته.

وقال: ليس من شريطة العقل أن يتعجل الإنسان عمّ ما لم يحبه فجعل ساعة السرور غمًا، وساعة الراحة تعبا، فيضاعف بذلك على نفسه الغموم أعني أنه يتعجل ما لم يقع ولعله ألا يقع، فإن وقع اتصل عمره بما موقع فصار زمان العمر والغم بذلك متصلا. فإن لم يقع أفسد على نفسه حال السرور من غير تحصيل درْك فيما اجتلبه إلى نفسه. وإنما فضيلة الرأي في تقصير مدة الغم لا في تطويلها، والذي يشغل نفسه بغم المتوقع هذه حاله، لأنه يطول مدة الغم من غير أن تلزمه حاجة إلى ذلك أو يوجد له طائل أو جدوى.

وسئل بعضهم: من الحكيم؟ ـ فقال: من عرف معايب الدنيا، وذلك أن من عرف معايبها لم يغتر وبها ولم يركن إليها، لأن مثله في رغبته عنها مثل من تعرض عليه سلعة مغشوشة، فإنه إذا عرفها بعيوبها منعه ذلك من الرغبة فيها، وإنما تروج السلعة المغشوشة على من تخفى عليه عيوبها المطوية المستورة عنه.

وكان الأحنف يقول: أنا للعاقل المدبر أرجئ مني للأحمق المقبل.

وقال: لك من دنياك ما أنفقته على أخراك.

لقي عمر بن الخطاب ناسًا يشبهون صوفيتنا اليوم، فقال: من أنتم؟ - قالوا: نحن المتوكلون. فقال: بل أنتم المستأكلون. ألا أخبركم بالمتوكلين؟: من ألقى حبة في بطن الأرض وتوكل على ربه.

وقال عمرو بن العاص: ما استبطأني أحد قط، قيل: وكيف؟ قال: لأني لا أعد حتى أعد إنجازا، ولا أمنع حتى أعد عذرًا مقبولا.

خطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني نظرت في معادكم فوجدت المصدق به أحمق، ووجدت المكذب به هالكًا، والسلام عليكم ورحمة الله.

أوحى الله إلى نبي: لو لم تطلب نفسك أن تكون كالمضغة في أفواه الآدميين لم أكتبك عندي في الصالحين.

وقال بعضهم ـ وكان مر بباب دار وأهلها يبكون ميتا، فقال: عجبا لقوم يبكون مسافرا قد بلغ منزلته.

وقيل لزاهد: من الزاهد في الدنيا؟ قال: الذي لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود.

وقال آخر: يا ابن آدم، لا تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت، ولا تفرح بموجود لا يتركه عليك الموت.

أوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام -: بشر المذنبين وأنذر الصديقين، فكأنه عجب، وقال: أبشر المذنبين وأنذر الصديقين، فقال: نعم بشر المذنبين لأنه لا يتعاظمني ذنب أغفره، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم.

وقال بعضهم: جعل الله تعالى الرحمة عمومًا والعذاب خصوصًا، لأنه قال: عذابي به من أشاء، ورحمتي وسعت كل شيء.

وقال أبو سليمان الداراني: اجتماع الصوفية بالليل بدعة؛ لأنهم يهربون من العمل.

وقال آخر: العابد الأحمق والعالم الفاجر فتنة كل مفتون.

وقال آخر: أربعة أشياء لا ينبغي أن يستقل قليلها: الذنب الصغير، والدين اليسير، والعدو الحقير، والحرص القليل.

وقال آخر: الحزن لا يكفي من الهم وهو يفرح العدو، والجزع لا يرد المصيبة وهو يرزء العقل، والغيط لا ينفع في الدنيا وهو يؤثم في الدين.

ليس الجسم يحمل النفس، بل النفس تحمل الجسم. اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء، ففرغه للمهم، وأن مالك لا يغني الناس كلهم، فاخصص به أهل الحق، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوخ به أهل الفضل وأن الليل والنهار لا يستوعبان حاجتك فبادر بأجداهما عليك.

أوحى الله تعالى إلى داوود - عليه السلام -: طهر ثيابك الباطنة، فإن الظاهرة لا تنفعك عندي. يا داود، لو رأيت الجنة وما أعددت فيها لقل نظرك إلى الدنيا؛ وأفضل من الجنة أن أرفع حجتي عنك، وأقول: "أين المشتاقون"؟

وقال بعضهم يعظ: يا قوم، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فهو أيسر عليكم وأرفق بكم غدا. وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فهو أثقل لميزانكم.

قلة معرفة الإنسان بعيوبه أكبر ذنوبه.

خطب أبو بكر رحمه الله، فقال: اعلموا عباد الله أنكم تعدون في أجل قريب قد غيب عنكم علمه. فإن استطعتم ألا ينقض إلا وأنتم في عمل لله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله تعالى، فسابقوا في مهل، فإن أقوامًا جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم فاحذروا أن تكونوا أمثالهم.

وخطب أمير المؤمنين علي - عليه السلام -، فقال: أما بعد؛ فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع. ألا وإن المضمار اليوم، وغدًا السباق. ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن قصر في أيام عمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله. ألا فاعملوا عباد الله في الرغبة كما تعملون في الرهبة. ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هار بها. ألا وإن من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى جار به الضلال. ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل.

خطب الحجاج، فقال: من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استعجل أجله فعلي أن أعجله. إن الحزم والحد قد استلبا مني سوطي، وجعلا سوطي سيفي، فنجاده في عنقي، وقائمه بيدي، ذبابه قلادة لمن اغتر بي.

وقال غيره: من عذُب لسانه كثر إخوانه. العقل صديق مقضوع، والهوى عدو متبوع. مِحَن القدر تسبق الحذر. البلاء رديف الرخاء، ذو النجح لا يستبعد المسافة. لا تطمع في كل ما تسمع.

وقال أمير المؤمنين علي - عليه السلام -: من بالغ في الخصومة ظلم، ومن قصر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من يخاصم.

وقال آخر: التواضع مع السخافة والبخل أحمد عند العلماء من الكبر مع السخاء والأدب، فأعظم بحسنة عفت على سيئتين، وأفظع بسيئة عفت على حسنتين.

العجز عجزان: التقصير في طلب الأمر وقد أمكن، والمد في طلبه وقد فات.

وعقب أحمد بن أبي خالد على أحمد بن هشام في شيء، فاعتذر أحمد بن هشام، فقال أحمد بن أحمد أبي خالد: لا أقبل عذرك حتى أسيء إليك. فقال: والله لئن فعلت لا استعديت عليك إلا ظلمك، ولا أطمعني فيك إلا بغيك.

قيل لميمون بن مهران: إن رقية امرأة هشام، أعتقت عند موتها كل مملوك ومملوكة لها. فقال يعصون الله مرتين: يبخلون بالشيء وهو في أيديهم، حتى إذا صار لغيرهم أسرفوا فيه.

وقال ابن شُبرمة: ليس الإغراق في علم واحد من شأن العلماء والحكماء ولا السراة والرؤساء، بل الأخذ من كل فن. وإنما ينفرد بعلم واحد من يحب المراء والتكسب.

وقال وهْب بن منبه لرجل: لا تسب إبليس في العلانية وأنت صديقه في السر.

أخذ رجل على عالم خطأ، فقال: يا هذا من لا يعلم شيئا لا يخطئ في شيء. وقال ابن السماك للصوفيين: لئن كان لباسكم هذا وفقا لسرائكم، لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، وإن كان مخالفا لقد هلكتم.

قيل لمِسْعر: أتحب أن تهدى إليك عيوبك؟ - قال: أما مِن محب ناصح فنعم، وأما من مبغض شامت فلا.

وقال أحمد بن عيسى: كفى بالسعاية عيبا أن أحسن الأشياء، وهو الصدق، يقبح فيها.

وقال: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كاذب حتى أعلم صدقه، فإذا علمت صدقه فهو عندي أحمق.

وكان الأصمعي يقول: أحضر الناس جوابا من لم يغضب من شيء.

قال بعض النساك: أسكتتني كلمة سمعتها من ابن مسعود: من عشرين سنة سمعته يقول: ما لم يكن كلامه موافقا لفعله فإنما يوبخ نفسه.

وقال جعفر الصادق - عليه السلام -: إياك وسقطة الاسترسال، فإنها لا تستقال.

وقال - عليه السلام -: العافية موجودة مجهولة، والعاقبة معدومة معروفة. ما تثبت الدنيا إلا على بني العم المتعاطفين بالبر، المتعلقين بالأدب، المجتمعين على التناصر، الحاضرين بالاتفاق، الغائبين بلا اغتياب. بمثل هؤلاء تطول أعمار الدول، وتدعم الممالك. وما ذل قوم بعد العز حتى ضعفوا، وما ضعفوا حتى تفرقوا، وما تفرقوا تباغضوا، وما تباغضوا حتى تحاسدوا، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض.

اجتمعت الحكماء على أن أوضع الناس من عمل على الرهبة، واجتمعت على أن من عاتب ووبخ فقد استوفى حقه، واجتمعت على أن خير الناس من نفع الناس، وأذل الناس من تاه على الناس وأعلم الناس أقلهم تعجبا من أحداث الدهر، وأكثر الناس غمًا من طلب رتبة فوق رتبته، وأعقل الناس من أطاع العقلاء، وأضعف الناس من لا يحمل الغنى، وأقوى الناس من غلب الهوى وقدر على السكون.

قيل لبعضهم: ما أحسن الكلام؟ - قال: ما لا يحتاج معه إلى الكلام.

وقال آخر: لا يقوَّم عز الغضب بذلّ الاعتذار.

وقال: توصل إلى بقاء عزك بالوحدة.

ومما حفظ عن الحارث بن كَلَدة، طبيب العرب: دافع بالدواء ما وجدت له مدفعا، ولا تشربه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئا إلا أفسد مثله.

وبلغ المنذر أن شيخًا في بعض الأحياء أتت عليه مائة وعشرون سنة في اعتدال من جسمه ونضارة في لونه، وقوة في نفسه، مع نشاط وشهوة. فبعث إليه وأحضره ثم سأله عن سيرته، فقال: ما احتملت هما تبعد عليّ مدافعته، ولا طاولت قرينة أكرهها، ولا

اجتمع في جوفي طعامان، وإذا أردت شرب شراب شربته رقيقًا طيبًا لا أثمل منه، وإذا اجتمع في بدني خِلط استفرغته. وخلة واحدة وجدته من أنفع الخلال في صحة البدن: ما استدعيته الباه بحركة إلا أن تهيج به الطبيعة؛ فإذا كان ذلك، أقللت الحركة بقية يومي وأخذت من الغذاء والنوم بحظ.

وقيل في حفظ الصحة: لا ينبغي أن تأكل إلا عن نقاء تام وجوع صادق من طعام موافق، وتكف عن الطعام وأنت تشتهيه، ولا تبادر إلى شرب الماء حتى تستوفي غذاءك وتصبر بعده ساعة وترتاض قبله بحركات معتدلة، ولا تأكلن في ظلمة، ولا تنم تحت شجرة مجهولة، ولا تطعم ما لا تعرفه ولا من طعام محترق ولا حار جدا ولا دسم جدا. وليكن طعامك خبز البُر واللحم الرخص، وشرابك ماء الكرْم الرقيق الصافي، وجماعك للشابة، خدمك الولدان، ورفقاؤك المساعدون من أهل الفضل.

كان بختيشوع يأمر بالحقن والقمر متصل بالذنب فيحل القولنْج من ساعته، ويأمر بشرب الدواء والقمر على مناظرة الزهرة فيصح العليل من يومه.

وقال الفضل بن يحيى: صاحب الجماعة يدرك أرْشه في الحدشة والشجة، وصاحب العرفة يذهب حقه في النفس والحرمة. واجتماع الضعيفين قوة تدفع عنهما، وافتراق القويين مهانة تمكن منهما وغافل الجماعة لا تضره غفلته لكثرة من يحفظه، ومتيقظ الفرقة لا ينفعه لكثرة من يطلبه. ولم يجتمع ضعفاء قوم إلا قووا، ولم يفترق أقوياء إلا ضعفوا.

وقال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قيل لبعض العلماء إن الناس قد أظهروا بغضك، وأكثرت العامة من الطعن عليك ـ فقال: نحن كالشوك في أعينهم، ولاكقرح في أكبادهم، ولا ذنب لنا إلا ما يرون من أثر نعمة الله علينا التي لا سبيل لهم إليها. فهم الحساد الذين لا شفاء لهم، ولا خلاص منهم.

لا ينتفع بالماء الساكن في قرار الأرض ما لم يسِحْ، ولا بالذهب في معدنه ما لم يستخرج، ولا بالعلم ما دام مكتوبا ما لم يفض.

من لم يلزم الحادة خبط، ومن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سقط.

عقول البشر تحتاج إلى مادة من خارج، أعني الإلهام النبوي والتأييد الإلهي. والطباع تحتاج إلى قمع تدبيري، والشهوات تحتاج إلى ردع حكمي.

جهل الكتاب أثبت من حفظ اللسان، فإن القلم أبقى أثرا؛ فإن جعلت لاكتاب جليسك فاحذر معه آفة الخلوة.

أنفاس المرء خطاه إلى أجله، وأمله خادع له عن عمله.

الوعد مرض المعروف.

تركة الميت عز لورثته.

إذا ادزحم الرأي حفي الصواب.

دعوا الرأي يغب.

قال معاوية للأحنف: صف لي الناس، فقال: رءوس رفعهم الحظ، وأكتاف عظمهم التدبير، وأعجاز شهرهم المال، وأذناب ألحقهم الأدب. ثم الناس بعدهم أشباه البهائم: إن جاعوا ساموا، وإن شبعوا ناموا.

وقال لصعصة بن صواحن: صف لي الناس، فقال: فارس يذب عن البيضة، وزارع يسعى في العمارة، وعالم يشتغل بالديانة، ورجرجة بين ذلك تكدر الماء وتغلى السعر.

وقال أمير المؤمنين علي - عليه السلام -: عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع.

وقال مطرَّف بن عبد الله لإنسان يتكلم بما لا ينبغي: يا هذا! إنما تملي على كاتبيك كتابا إلى ربك.

قيل لبعضهم: من أبعد الناس سفرا؟ ـ فقال: من كان سفره في طلب أخ صالح.

قيل: اعرف أخاك بأخيك قبلك.

وقيل: لو صُوّر العقل لأظلمت عنده الشمس، ولو صور الجهل لأضاءت عنده الظلمة.

كانت ليحيى بن خالد صحيفة يدفعها إلى معلم أولاده ويأمره بتعليمهم ما فيها واخترت منها:

"الحمد مفتاح المواهب. الذم قفل المطالب. الصبر ثوب التسلي. الجزع بيت الهم. البر يستعبد الحر. من عزت لديه المعصية هانت عليه الطاعة. من استعان بالدنيا أسلمته إلى النوائب. العجز المفرط ترك التأهب للمعاد. القلب العليل تسرع إليه الأباطيل".

كان الحسن البصري يقول: رحم الله أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة إلى من ائتمنهم عليها وراحوا خفافا.

وقال: قد رأينا من أُعطي الدنيا بعمل الآخرة، وما رأينا من أُعطي الآخرة بعمل الدنيا.

سأل إبراهيم بن أدهم راهبا: من أين تأكل؟ ـ فقال: ليس لهذا جواب عندي؛ ولكن سل ربي من أين يطعمني.

وقال آخر: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما تخاف من الفقر لنجا منهما جميعا، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لوصل إليهما جميعا، ولو خاف الله تعالى في الباطن كما خاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين.

وقال شقيق البلخي: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة: أما الفقراء فاختاروا اليقين وفراغ القلب وخفة الحساب. وأما الأغنياء فاختاروا تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب.

قال يحيى بن معاذ الرازي: إن العالم إذا لم يكن زاهدًا فهو عقوبة لأهل زمانه. شرار الأمراء أبعدهم من القراء، وشرار القراء أقربهم من الأمراء.

قيل لابن المبارك: لو أن الله – سبحانه وتعالى – أوحى إليك أنك ميت العشية: ما كنت صانعا اليوم؟ قال: أقوم أطلب فيه العلم.

قال قتادة: عجبت للتاجر كيف يسلم وهو بالنهار يحلف، وبالليل يحسب.

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "ما أُوحي إلي أن: اجمع المال من التاجرين، ولكن أُوحي إلي أن: سبح بحمد ربك وكن من الساجدين"[1].

وقال بعضهم: لا تنظروا إلى من قال، ولكن انظروا إلى ما قال.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٣١/٢).

وقال بشر بن الحارث: الحكمة كالعروس تريد البيت خاليا.

وقال: كيف ينصحك من يغشُّ نفسه؟

وقال يحيى بن معاذ: عجبت ممن يبقى له مال ورب العزة يستقرضه.

وقال: من لم يكن مستعدا لموته فموته موت فجاءة وإن كان صاحب فراش سنة. فليكن عملك عمل المقبوض عملك عمل المقبوض في كل ساعة.

وقال: ترك الدنيا شديد، وترك الجنة أشد منه؛ ومهر الجنة ترك الدنيا.

وقال آخر: طلب الخير شديد، وترك الشر أشد، لأنه ليس كل خير يلزمك عمله، والشر كله يلزمك تركه.

قيل للعباس بن مرداس: لم تركت الشراب؟

قال: أكره أن أصبح سيد قوم وأمسي سفيههم.

وقال التيمي: لا تطلبوا الحوائج إلى ثلاثة: إلى عبد يقول: الأمر لغيري، وإلى رجل حديث العهد بالغنى، وإلى صيرفي همته أن يسرق أو يسترجع في كل مائة دينار حبة.

وقال الخليل بن أحمد: العزلة توقي العرض، وتبقي الجلالة، وتستر الفاقة، وترفع مؤونة المكافآت في الحقوق اللازمة.

قال الحسن: يا بن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك.

وقال: رحم الله امرءًا لم يغره كثرة الناس: فإنه يموت وحده، ويحاسب وحده.

ومر عيسى - عليه السلام - بقوم يبكون، فقال: ما لهم يبكون؟ فقالوا: هؤلاء قوم يبكون لذنوبهم، قال: فليتركوها تغفر لهم.

مر بعض النساك براهب، فقال: يا راهب لقد تعجلت وحشة الوحدة. فقال الراهب: يا فتى، لو ذقت حلاوة الوحدة لاسترحت إليها من نفسك.

قال الشافعي: من كانت همته ما يدخل جوفه كانت قيمته ما يخرج منه.

قال الفضيل: لا تطلبوا في هذا الزمان ثلاثة أشياء، فإنكم لا تجدون: لا تطلبوا عالمًا مستعملًا لعلم فإنكم تبقون بلا علم، ولا تطلبوا طعاما من غير شبهة فإنكم تبقون بلا طعام، ولا تطلبوا صديقًا بلا عيب فإنكم تبقون بلا صديق.

في الوحي القديم: يا ابن آدم، إني خلقتك لتربح علي ولم أخلقك لأربح عليك، فاتخذني بدلا من كل شيء، فإني ناصرك من كل شيء. وقال حاتم: إني لا أشهد بالصدق إلا لمن اعتزل الناس، فلا تشهدوا بالصدق إلا لهم.

وقال: ليس من احتجب بالخلق كمن احتجب بالله - عز وجل - عنهم.

وقال: الرجاء لله أقوى من خوفه، لأنك تخافه لذنبك، وترجوه لجوده.

وقال حكيم: الدليل على أن ما في يدك ليس هو لك علمك أنه كان قبلك لغيرك. وقال: لا تثق بشكر من تعطيه حتى تمنعه.

وقال: همة فلان شكر ربه، فهو يستحي من طلب الزيادة علما بأن ليس وراء ذلك شيء.

من ازداد علما فينبغي أن يحذر من توكيد الحجة عليه، فلينافس الصالحين ليلحق بهم، وليحبهم ليشاركهم وإن قصر عن مثل عملهم.

الجاهل يذم الدنيا ولا يسخو بإخراج شيء منها: يمدح بالجود وهو بخيل، يتمنى التوبة بطول الأمل ولا يعجلها خوف حلول الأجل، يرجو ثواب عمل لم يعمل به؛ يفر من الناس ليخفى فيطلب، ويطلب ليشتهر؛ ويذم نفسه ليمدح؛ ينهى عن مدحه وهو يحب ألا ينتهي من الثناء عليه.

أثنى رجل على عالم، فقال: الحمد لله الذي سترني منك.

وقال الحسن: وجد القوم الكلام أهون من العمل، فكثر الواصفون وقل الموصوفون: أبى الله أن لا يقبل القول إلا بالعمل.

وصية قُسّ بن ساَعِدَة[١] لابنه

اعلم يا بني أن المِعَى تكفيه البقلة، وترويه المذقة. ومن عَيّرك شيئا ففيه مثله. ومن ظلمك وجد من يظلمه. ومتى عدلت على نفسك وعلى من دونك عدل عليك من فوقك. وإذا انهيت عن شيء فابدأ بنفسك. ولا تجمع ما لا تأكل ولا تأكل ما لا تحتاج إليه فيتويك؛ وإذا ادخرت فلا يكونن كنزك إلا العمل الصالح. وكن عف العيلة، مشترك الغنى تسد قومك. ولا تشاورن مشغولًا وإن كان حازمًا لبيبًا، ولا خائفًا وإن كان فهمًا عليمًا. ولا تضع في عنقك طوقا لا يمكنك نزعه إلا بشقٍ منك. وإذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فاقصد. ولا تستودعن دمك أحدًا وإن قربت قرابته، فإنك إذا فعلت ذلك لم تزل رجلا، وإن كان المستودع بالخيار في الوفاء والغدر وكنت له عبدا ما بقيت، فإن جنى عليك كنت أولى بذلك، وإن وفى كان الممدوح دونك.

وقال آخر: الدنيا دار تجارة فالويل لمن تزود منها الخسارة.

دعاء: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصن وجهي عن مسألة غيرك.

الأسد قد يهاب وإن كان مربوطا، والكلب قد يهان وإن كان مطوقا مجلجلا.

خير الثناء ما كان على ألسن الفضلاء والأخيار. لا يرد بأس العدو وخطوة الملك بمثل الذل والخضوع. ليس صلاح العدو مما يوثق به. العدو إن صالحته فاحذر منه كما تحترز من الحية إذا حملتها في كمك.

وقال آخر: ما أعان على المروءات إلا النساء الصوالح.

---

(١) قُسّ بن سَاعِدَة (... - نحو ٢٣ ق هـ =... - نحو ٦٠٠ م): هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد: أحد حكماء العرب، ومن كبارخطبائهم، في الجاهلية. كان أسقف نجران، ويقال: إنه أول عربي خطب متوكئا على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه " أما بعد ". وكان يفد على قيصر الروم، زائرا، فيكرمه ويعظمه. وهو معدود في المعمرين، طالت حياته وأدركه النبي صلى الله عليه وسلم قبل النّبوّة، ورآه في عكاظ، وسئل عنه بعد ذلك، فقال: يحشر أمة وحده.

انظر ترجمته في : البيان والتبين ١: ٢٧ والأغاني ١٤: ٤٠ والشريشي ٢: ٢٥١ والمرزباني ٣٣٨ وعيون الأثر ١: ٦٨ وخزانة البغدادي ١: ٢٦٧ وفيه الخلاف في نسبه. وكتاب العصا: نوادر المخطوطات ١: ١٨٥، والأعلام ٥/١٩٦.

وقال: ليس لذي ضفف مثل أرض عشر، وليس لتاجر مثل صامت. وقال آخر: نوم أول الليل غنيمة آخره.

وقال: طوبى لمن إذا كان ضعيفا عن الخير كان ضعيفا عن الشر.

ثلاثة لا تنال بثلاثة: العلم بالكسل، والحظو عند النساء بالحب، والأجر عند الله بالرياء.

عيش في الأمن مع الفقر أمثل من العيش في غنى مع الخوف، وطلاب الدنيا يطلبون الغنى كيف كان.

وقال المسيح - عليه السلام -: ليحذر من يستبطئ الله في الرزق أن بغضب عليه فيفتح الدنيا عليه.

وقال: أقبح المكافأة مجازاة الإساءة.

قال عكرمة: كنا عند ابن عباس جلوسًا فصاح طائر، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال ابن عباس لا خير ولا شر؛ طائر صاح، وقال: أقرب ما يكون العبد إلى الله - عز وجل - إذا سأله، وأقرب ما يكون إلى الناس إذا لم يسألهم.

قال الشعبي: كان عمر بن الخطاب يشرط على عماله ألا يركبوا البراذين، ولا يلبسوا السابريّ، ولا ينخلوا الدقيق.

في طب الهند: ألا يجامع الرجل وهو مشدود الوسط، ولا مربوط عضو، ولا مهموم ولا مشغول الفكر بشيء من الأمور، ولا سكران ولا غضبان.

ويقول: لا تحقر شيئا بكون منك مثله. قد يؤيد الله بالملك الغشوم والأهواء المختلفة أركان دولة حتى تتم وتنقضي مدتها.

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: من أُغضب ولم يغضب فهو حمار، ومن غضب فاستُرضي ولم يرض فهو جبار.

قال ذو النون: إلهي، كيف أحب نفسي وقد عصيتك وكيف لا أحبها وقد عرفتك ـ ترى ما الذي عني ذو النون بقوله هذا، وأي نفسيْه خاطب؟

وقال آخر: خسارة يوم وليلة من دُعي إلى طعام فلم يجب، وخسارة سنة من زرع ولم يحصد، وخسارة العمر كله من لم يقرأ ولم يكتب، وخسارة أبد الآبدين من لم يعمل لآخرته.

يقال: ما عُفي عن الذنب من قرع به.

ثلاث من علامات الرقاعة: مداومة عشرة النساء، والدالة على السلطان، والقصص على الكراسي.

قال العنزي: مررت مع جماعة من الصوفية بصومعة فيها راهب كان جَبَّ نفسه، فقلنا نسأله: لم جب نفسه؟ فقعدنا بحذاء الصومعة نتحدث ونسأله أن يشرف علينا. فلما أشرف قلنا له: لم جببت نفسك؟ - قال: كنت أتوهم أن الشهوة فيه، وإنما كانت الشهوة في النفس: نظرت نظرة منذ ثلاثين سنة وهي عليَّ إلى اليوم.

قال الحسن البصري يومًا لمطرف بن عبد الله: عظ أصحابك، قال: أخاف أن أقول ما لا أفعل، قال الحسن: وأينا يقول ما يفعل! لود الشيطان أنه ظفر بهذه منكم فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر.

وقال حكيم لأصحابه: حقا أقول: الصدقة بحرف واحد من الحكمة أنفع من الصدقة بجميع ما في الدنيا.

وقال: من احتجت أن تستكتمه سرك فلا تُفْشِه إليه.

سرور الدنيا أن تقنع بما رزقت، وغمها الحرص.

من كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة.

يقال: ستساق إلى ما أنت لاقٍ.

يقال: ما اجتمع عشرة إلا كان فيهم مقاتل شجاع، وقد يجتمع الألف فلا يكون فيهم عاقل.

قال ابن المبارك: طلبنا الأدب حيث قاتنا المؤدبون، فالحقوا البقية قبل أن تفنى.

في أمثال العامة، وهم يرونه على ظاهره: أن إبليس جاء إلى موسى وهو يناجي ربه تعالى، فقال له ملك: ما الذي ترجو منه، ويحك، وهو على هذه الحال؟ قال: ما رجوت من أبيه وهو في الجنة.

دعاء: اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى، ولا تُقلَّ لي منها فأنسى.

اللهم اجعل لي في الخير حظًا وجدًا، ولا تجعل معيشتي ضنكًا وكدًا. اللهم إنني قد علمت أنني لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أسيغ إلا ما رزقتني. فارزقني

التقوى لك والعلم بك ما أبقيتني، والكرامة منك إذا توفيتني، وشكر نعمتك فيما بقي من عمري.

ينبغي للعاقل أن يفرح بما لم ينطق به من الخطأ مثل فرحه بما لم يسكت عنه من الصواب.

قال حماد عن يونس وحميد: قالا: لو أدرك أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحسن لاحتاجوا إليه ـ والحسن ولد مملوكًا، وهو مولى أمية بنت النضر، عمة أنس بن مالك. وكان اسم أبيه يسار من سبي مَيْسان.

قيل لبعضهم: كيف أنت؟ - قال: أحمد الله إلى الناس، وأذم الناس إلى الله.

قال أحمد بن أبن خالد الطاهر: لا تعدنّ نفسك شجاعا حتى تراها جوادا، فإنك إن لم تقو على نفسك لم تقو على عدوك.

رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاما، فقال: يا بني، كيف لا يسع حلمك من تضربه فلا يمتنع عليك؟.

كان رجلان يختلجان إلى مجلس يونس بن حبيب؛ فغاب أحدهما، فسأل الآخر عنه، فقال: مات، قال: وما كان سبب موته؟ ـ فقال: كونه.

كان أكتم بن صيفي يقول لبنيه: يا بني، تقاربوا في المودة، ولا تتكلوا على القرابة. وقال: الصمت منام العقل، والنطق يقظته.

وقال الحسن: شكر العالم على علمه بذله لمن يستحقه.

قال الحسن: يا ابن آدم، شيبك يعظك، ومرضك ينذرك. فاسمع ممن يعظك، واحذر ممن ينذرك.

قال رجل للأحنف وأراد أن يغضبه: ما فيك عيب إلا الدمامة والقصر. فقال: لأن ذاك أمر لم تؤامر فيه.

قيل لبعض من يطلب الأعمال: ما تصنع؟ قال: أخدم الرجاء إلى أن ينزل القضاء.

دخل مكفوف على النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال لمن حضر من نسائه قمن ـ فقلن: إنه أعمى ـ فقال: أفعميٌ أنتن؟

قالت ابنة عبد الله بن مطيع لزوجها كلمة: ما رأيت ألأم من قومك، قال: ولم؟ قالت: إذا أعسرت تركوك، وإذا أيسرت جاؤوك. قال: هذا من كرمهم: يأتوننا في حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا في حال الضعف منا عنهم.

قال ابن الأعرابي: قال جار لي: ما تاه علي أحد أكثر من مرة واحدة.

قال بعض الصوفية: ما طابت الدنيا إلا بذكرك، ولا طلبت الآخرة إلا بعفوك، ولا طابت الجنة إلا برؤيتك.

قرئ عند أبي يزيد البسطامي: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] ـ فقال: من باع نفسه كيف يكون له نفس!

وقال يحيى بن معاذ: من شبع عوقب بثلاث عقوبات: يلقى الغطاء على قلبه، والنعاس على عينه، والكسل على بدنه.

قيل لبعض الحكماء: لم لا تأكل طيبات الطعام؟ - قال: لأني أحب أن أعيش عيشًا عقليًا، والناس يحبون أن يعيشوا عيشًا بهيميًا.

وقال: غضب الله أشد من النار، ورضاه أكبر من الجنة.

وكان أبو يزيد يحكي أنه لما حج لقيه بالبادية رجل أسود، فقال له: يا أبا يزيد إلى أين؟ ـ قلت: إلى مكة ـ فقال: يا عجبا تركته ببسطام وجئتك تطلبه بمكة فبهت ثم التفت، فلم أره.

وكان الشبلي إذا جلس في مجلسه يبدأ بقوله - عز وجل -: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ وإذا قطع المجلس يقرأ: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

قال: سمعت معروفًا الكرخي يناجي نفسه، ويقول: يا نفس، كم تبكين؟! أخلصي وتخلّصي.

شكا أهل مكة إلى الفضيل القحط، فقال: أمدبرا غير الله تريدون؟

قال عبد الله بن مسعود: ما من نفس حية إلا الموت خير لها إن كان بَرّا، فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]؛ وإن كان فاجرا فالله يقول: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، قال: أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة، قال الرجل: وكيف أكون ملكا؟ قال: ازهد في الدنيا.

قال الحسن: العالم لا يعيبه شيء لأنه يصمت فيسلم، ويخاطب فيُفهِم.

وقال عالم لابنه: يا بني، إني أخاف على المحسن وأرجو للمسيء، فما ظنك بخوفي على المسيء إذا كنت أخاف على المحسن.

قيل ليوسف وكان كثير الصوم: لم تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشع فأنسى الجائع.

وقال أعرابي لأمير المؤمنين علي - عليه السلام -: أوصني فقال له: توق ما يعيب.

قال مطرّف بن عبد الله: لو وُزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما على الآخر.

لا خير في ظَفَر يصاب بضرر أو غرر.

من رضي عن نفسه رأى فيه غيره ما لا يرى.

وقال بعضهم: العاقل لا يحزن على شيء من الدنيا تولى عنه، ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها.

وقال: من رأى الموت بعين أمله وجده بعيدا، ومن رآه بعين عقله وجده قريبا.

وقال آخر: ما أصنع بدنيا إن بقيت لها لم تبق لي، وإن بقيت لي لم أبق لها.

أربعة أشياء تنقص الحزن: كلام العلماء، ولقاء الأصدقاء، وشرب الشراب، ومر الأيام.

قال الأحنف: ما عرضت الإنصاف على أحد فقبله إلا هبته، ولا أباه إلا طمعت فيه.

سأل مسلم بن الوليد الفضل بن سهل حاجة، فقال: أسوّفك اليوم بالوعد، وأسرّك غدًا بالإنجاز، لتذوق حلاوة الأمل وأتزين بثوب الوفاء.

وقال داود - عليه السلام -: لا تدعوا ربكم والخطايا بين أضلاعكم. ألقوها عنكم ثم ادعوه يستجب لكم.

وقال بعض العلماء: كفاك خيانة أن تكون أمينا للخونة. وهذا كلام عالم زاهد في الدنيا.

من كلام الحسن البصري

لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب فيه، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يصلح عيوب نفسه. فإذا فعل ذلك لم يصلح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ينبغي أن يصلحه. فإذا فعل شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره. وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره، فلا تحقرن شيئا من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيته سرك مكانه.

رحم الله امرءًا كسب طيبا، وأنفق قصدا، وقدم فضلا. ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا وفضحها. ولا والله ما وجد ذو لب فيها فرحا. فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار.

رحم الله امرءًا نظر فتفكر، وتفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر، وأبصر فصبر: فقد أبصر قوم ثم لم يصبروا فتمكن الجزع من قلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا ولم يرجعوا إلى ما فارقوا. يا ابن آدم، اذكر قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]...، والله، عليك من جعلك حسيب نفسك.

خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها، فليس الصفو ما عاد كدرا، ولا الكدر ما عاد صفوا. دعوا ما يريكم إلى ما يريبكم.

ظهر الجفاء، وقل العلماء، وعفت السنة، وعلت البدعة إن ابن آدم غفول عن حظه. يا ابن آدم، اعلم أنه ليس بك غنى عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر.

قال رجل لبشر: إنك مهموم- قال: لأني مطلوب.

ومر بشر بباب الشام على أصحاب الفواكه، فقال: مقطوعة ممنوعة، أف لك!

وكان بشر يقول: ما يكره الموت إلا مريب، وأنا أكرهه. وقال إبراهيم بن أدهم: لا تجعل بينك وبين الله تعالى منعما.

وقال شعيب بن حرب، سمعت سفيان الثوري يقول: لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر. .....

وقال: يا معشر القراء، لا تلقوا كلكم على إخوانكم، ولا تدعوا آخرتكم لدنياكم، ولا دنياكم لآخرتكم، واستعينوا على هذه بهذه.

وقال غيره: أول العلم الصمت والاستماع، ثم الحفظ، ثم المذاكرة، ثم التعليم، ثم النشر.

من عاش متعلمًا مات عالمًا.

قال أبو عمرو بن العلاء: كل شيء طلبته في وقته فقد فات وقته.

وقال: الحاسد مغيظ أبدا، ويكفيك منه أنه يغتم في وقت سرورك.

وقال: صاحب الصمت لا يجوز نفعه نفسه، وصاحب النطق يتكلم فينفع نفسه وغيره.

وقال: نفع الدنيا ظاهر: إذ كان يفوز في الآخرة من تزود من هذه.

قال المسيح - عليه السلام -: ما زهد الدنيا من جزع من المصائب فيها.

سمع بعضهم واعية في دور بعض الملوك، فقال: يا ويح المفتونين بالدنيا إلى متى يسمعون صيحة الآخرة في ديارهم وهم غافلون.

وقال: لم نر دارًا أغر من الدنيا، ولا طالبا أغشم من الموت، ولا غافلًا أعجب من الإنسان.

وقال: احذر القتل، فإن للقاتلين قاتلًا لا يموت.

قال المسيح - عليه السلام -: حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون في محلة المتحيرين: تصفون من البعوض شرابكم، وتبلعون الجمال بأجمالها؛ إن الزقّ إذا نغل لم يصلح أن يكون وعاءً للعسل، وإن قلوبكم قد نغلت فلا تصلح فيها الحكمة.

كم مذكرٍ بالله ناس له وكم مخوفٍ بالله جريء عليه، وكم داعٍ إلى الله هارب منه، وكم تالٍ للكتاب الله منسلخ من آياته.

أمر بعض الملوك أن يستخرج له كلمات من الحكمة ليعمل بها، فاستخرجت له أربعون ألف كلمة، فاستكثرها، فاختير منها أربعة آلاف كلمة، ثم لم يزل ينقص منها حتى رجعت إلى أربع كلمات، وهي: لا تثقن بامرأة، لا تحملن معدتك فوق طاقتها، احفظ لسانك، خذ من كل شيء ما كفاك.

ومن حكم العرب في الجاهلية

ابنك يأكلك صغيرًا ويرثك كبيرًا، وابنتك تأكل من وعائك وترث في أعدائك، وابن عمك عدوك وعدو عدوك.

وكانوا يقولون: إن للدرهم قماصًا كقماص الفرس، فليس يضبطه إلا القوى الحازم من الرجال.

قال رجل لمطيع بن إياس: ما ندمت على صمت قط ولا مللته. فقال مطيع: أما أنت فلو خرست ما آجرك الله على الخرس فإنه من شهوتك.

وقال جعفر الصاق: إني لأملق فأتاجر الله بالصدقة فأتسع.

قيل للحسن بن صالح: لم لا تخضب؟ ـ فقال: الخضاب زينة ونحن في مأتم.

وقال أبو حازم: الدنيا جيفة، فإن رضيت بها فاصبر على مقارنة الكلاب فيها.

وقال آخر: اتقوا الله عباد الله؛ فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا المهل المبسوط لكم. يا قوم، استغنموا نفس الأجل، وإمكان العمل، واقطعوا ذكر المعاذير والعلل؛ فإنكم في أجل محدود، ونفس معدود، وعمر غير ممدود.

اعتل بعض الزهاد، فكان الناس يعودونه، فقال يومًا: اللهم كما أنسيتني الناس فأنسهم إياي.

وقال الفضيل: إن الله تعالى يقول: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني.

ونظر الفضيل إلى رجل يشكو إلى صديق له ما هو فيه من الضر وشدة الضائقة، فقال: يا هذا، أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟

قال الجنيد: دخلت على المغربي وهو قاعد يكتب، فقلت: إلى متى هذه الكتبة؟ متى العمل؟ ـ فقال: يا أبا القاسم، أو ليس هذا عملا؟ ـ فبقيت دهشا لا أدري ما أقول.

وقال آخر: الموت شيء خُوّف به العالم، فمن خاف منه فهو محجوب عن الحق.

قال مبارك بن فضالة: سمعت الحجاج يقول في خطبة: إن الله - عز وجل - أمرنا بطلب الآخرة، وضمن لنا مؤونة الدنيا. فيا ليته ضمن لنا الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا - قال: فذكرت ذلك للحسن، فقال: ضالة مؤمن عند فاسق فخذها.

وقال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس فيها وأقمت فيها إلى أن ألقى الله تعالى، فما يفسد الناس إلا الناس.

وقال حذيفة: والله إني لأود أن أجد من يقوم بمالي، ثم أغلق علي فلا يراني أحد حتى ألحق بالله.

قيل لابن المبارك: إلى كم تكتب؟ ـ فقال: لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد.

وفي الأمثال القديمة: إذا رأيت الفيل على قُلّة جبل فاطلب عظامه في الحضيص.

قيل لعالم: هل يتمنى الجاهل أن يكون عالما؟ - قال: لا، إلا أن يكون عاقلا - قيل: فهل يتمنى العالم أن يكون جاهلا؟ - قال: لا، إلا أن يعدم عقله.

اتقوا درك الذنوب، فإن المذنب في كف الطالب.

أعزوا الحق يذلّ لكم الباطل.

أموالكم عواري بينكم فتبادلوها.

خذوا أهبة الرحيل فإنكم سفْر.

اتقوا الظلم فإن الحاكم عدل.

من أقاده الدهر أقاد منه.

خذوا عن أهل التجارب.

الجور مهانة، والجود مهابة.

علانية العاقل سر، وسر الجاهل علانية.

لا تغضب فإن القدرة من ورائك.

اشغلوا نساءكم، فإن الدواهي في الفراغ.

الجزع عند البلاء تمام الآفة.

لا تتكلوا على القرابة، فإن القريب من قرب نفسه.

نعم شغل الحرة الغزْل. مقتل الرجل بين فكيه. المسيء تكفيه مساوئه. البطالة نذالة.

من كلام أَكْثَم بن صَيْفي[١]

عيني عرفت فذرفت. لم يفت من لم يمت. مع كل حَبرة عبرة. لا تنفع حيلة مع غيلة. أخو الظلماء أعشى. هلكت الأشراف بمخالطة السفل. في الجريرة تسترك العشيرة. ليس بيسير تقويم العسير. إذا أنصف مظلوم لم يبق ملوم. غلب عليك من دعا إليك. لم يَجُر سالك القصد. الحريص يطلب القليل ويضيع الجليل. التناصر عز والتواكل مذلة.

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة، قال: ليتني كنت غسالا أعيش بما أكسب يوما بيوم ـ فبلغ أبا حازم قوله فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

وقيل له لما ثقُل: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ ـ فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

قال أبو سليمان الداراني: إن الرجل لينقطع إلى بعض الملوك، ملوك الدنيا، فيرى أثرهم عليه. فكيف من ينقطع إلى الله تعالى؟

كتب أبو علي الروذباري إلى صديق له وكانت بينهما وحشة: "ترك العتاب فرقة، وطول العتاب وحشة. فإن كنت ذمتني على الإساءة، فلم ترضى من نفسك بالمكافأة عليها؟"

---

(١) أَكْثَم بن صَيْفي (... - ٩ هـ =... - ٦٣٠ م): هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث االبن مخاشن بن معاوية التميمي: حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين. عاش زمنا طويلا، وأدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق، ولم ير النبي صلّى الله عليه وسلّم وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه.

وهو المعنيّ بالآية الكريمة (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) أخباره كثيرة. ولعبد العزيز بن يحيى الجلودي كتاب (أخبار أكثم).

من كلامه: من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء. من لم يعتبر فقد خسر. المزاح يورث الضغائن. من سلك الجدد أمن العثار. من مأمنه يؤتى الحذر. ويل للشجيّ من الخليّ.

انظر ترجمته في: الإصابة ١: ١١٣ وأسد الغابة. وجمهرة الأنساب ٢٠٠ وبلوغ الأرب للآلوسي، انظر فهارسه، والأعلام ٦/٢.

لما احتضر هشام بن عبد الملك نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاء هشام لكم بالدنيا، وجدتم له بالبكاء؛ وترك لكم ما جمع، وتركتم له ما حمل؛ ما أعظم مصيبة هشام إن لم يرحمه ربه.

ولما احتضر حذيفة قال: حبيب جاء على فاقة؛ لا أفلح من ندم. الحمد لله الذي سبق بي الفتن. أليس بعدي ما أعلم؟.

ولما احتضر أبو الدرداء جعل يقول: من يعمل لمثل مضجعي هذا، ولمثل ساعتي هذه بلغ من خدع الناس أن جعلوا شكر الموتى تجارة عند الأحياء، والثناء على الغائب استمالة لقلب الشاهد.

وقال آخر: بئس الصديق الذي أعطيته أفقرك، وإن منعته وجد عليك.

وقال بعضهم: لا يعمل المخلوق شيئا أشبه بعمل الخالق - عز وجل - من التجاوز عن الذنوب. وهذا شبيه بما قاله: لو جاز أن يظهر الخالق - عز وجل - لظهر في صورة الحلم.

وسئل جعفر الصادق - عليه السلام - عن معنى الانقطاع إلى الله - عز وجل -، فقال: أن تعلم ما حكم عليك من شيء فإنه في ذلك محسن إليك، وهو بك أرأف، وعليك أشفق.

قال ذو النون: كل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل محب ذليل.

وقال: من ذكر الله نسي كل شيء في جنبه، ومن نسي في جنبه كل شيء حفظ الله عليه كل شيء، وصار له عوضًا من كل شيء.

وقال ابن السماك: سبحان من خلقنا فجعلنا نبصر بشحم، ونسمع بعظم، ونتكلم بلحم.

وقال: من يهرب منك إن سألته، فلا تسأله، ولكن سل من أمرك أن تسأله.

وقال غيره: نحن نسأل أهل زماننا إلحافا، وهم يعطوننا كرها، فلا هم يثابون، ولا نحن يبارك لنا.

وصى رجل ابنه، فقال: إياك ومشاورة النساء: فإن رأيهن إلى أفْن، وعزمهن إلى وهْن؛ واكفف عليهم من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن حجابهن خير من الارتياب،

وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن. فإن استطعت ألا يعرفن غيرك، فافعل. لا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لبالها، وأدوم لحالها؛ وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة. فلا تعد بكرامتها نفسها، ولا تجز لها الشفاعة عندك لغيرك، ولا تطل الخلوة معهن فإنهن يملكنك. وإياك والغيرة في غير موضعها، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم.

المودة لا تنقطع ما دامت العفة رباطها.

من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه.

لا تثقن بشكر من تعطيه حتى تمنعه، فالصابر هو الشاكر، والجازع هو الكافر.

إذا عظمت القدرة قلت الشهوة.

مع كل سرَف حق مضيع.

في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

لا تعدن معروفا نلته، وإن كان حظا نفيسا، بعد ابتذال قدرك وإراقة ماء وجهك. فإن الذي فقدت من عز الصيانة أكثر من قدر العائدة، وقيمة ما بذلت أعظم من الذي حزت من قضاء وطرك.

إدراك الحاجة يكون بلين المقال ولطف السؤال وحسن الأناة وقلة الاستكراه.

لاتعدن لكل فارطة عتابا؛ وليكن عتابك تأديبًا لا تأنيبًا، فإن أضر الأدب ما كان تعييرًا، وخيره ما كان تبصيرًا. لولا التجارب لعميت المذاهب خلف المواعيد أشد تهجينا للمروءة من الرد.

أفضل على من شئت فإنك فوقه، واستغن عمن شئت فإنك مثله، واحتج إلى من شئت فإنك دونه.

حسن البشر اكتساب محمدة ودفع ضغينة بغير مؤونة.

خاصم رجل رجلا آخر فرفعه إلى شريح، فباهله، فرفع يده إلى السماء يدعو ربه. فقال شريح: غض طرفك وكف يدك، فإنك لن تراه ولن تناله.

قيل لزاهد: لم تخضب وقد شبت وأنت بعد شاب؟ ـ فقال: إن الثكلى لا تحتاج إلى ماشطة. وقال: إن الثكلى إذا لبست الحداد فقد تسلت.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل قدم عليه من ناحية: كيف رأيت عمالنا فيكم؟ ـ فقال: يا أمير المؤمنين، إذا طابت العيون عذبت الأنهار.

قيل لإبراهيم بن أدهم في عام قحط: ألا نستسقي؟ ـ فقال: أقيموا عبوديتكم؛ فإنه أعلم بربوبيته.

قيل لبعضهم: لم تجمع المال؟ ـ فقال: لمضائب الزمان وجور السلطان ومنادمة الإخوان.

وقال: إن هؤلاء العوام مشغولون عن الفضائل بعيشة البهائم، فهم لا يجدون طعم العز، ولا سرور الظفر، ولا روح اليأس، ولا برد اليقين، ولا راحة الأمن.

وقالوا: من عامل الإخوان بالمكر كافأوه بالغدر.

وقالوا: ليس من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن.

وقالوا: أسد حطوم خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم.

كتب أمير المؤمنين علي - عليه السلام - إلى عبد اله بن عباس: أما بعد؛ فإن المرء قد يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن همك ما بعد الموت. والسلام.

قال رجل لآخر: لا أراك الله مكروها. فقال آخر كان يسمعه: كأنك دعوت عليه بالموت- قال: ولم؟ قال: لأن صاحب الدنيا لا بد أن يرد عليه مكروهها.

وقال بعض البلغاء لصديق له: إنما أبغي منك بشر وامق لا بشر منافق.

وقال آخر: نحن في زمان المعروف فيه زلل، والصواب فيه خطل، والإحسان مثل.

يروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: "السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، وإن جار كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر"[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٣٧٥) وفي السنن الكبرى (٨/ ١٦٢) كما أورده الذهبي في السير (٨/ ٤١٤) وفي إسناده الربيع بن الصبيح قال ابن معين والنسائي ضعيف. انظر المجروحين (١/ ٢٩٦) وميزان الاعتدال (٣/ ٦٤) والكاشف (١٥٣٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٩٦) والسلسلة الضعيفة (٢٥٠٤).

وقال بعضهم: اهدوا للولاة؛ فإنهم إن لم يقبلوا أحبوا.

وقال: خير القرناء عند المسكنة: المرأة الصالحة، وعند الخوف: حسن العقل، وعند الموت: حسن الثناء.

وقال: ثلاث لا يحاسب العبد عليهن يوم القيامة: ما أنفق في مرضه، وفي إفطاره، وفي قرى ضيفه.

قال الحكيم لابنه: أي بني، إذا أردت أن تؤاخي رجلا فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه، وإلا فدعه.

إذا كان في الرجل ثلاث فلا تشك في صلاحه: إذا حمده جاره، ورفيقه في سفره، ومعاشروه على طعامه وشرابه.

وقال: لا تجاهد في الطلب جهاد المغالب، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم.

أعن ما وليته فليس يكفيك من لم تكفه.

قال ابن السماك: من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الأخرى مرارتها بتجافيها عنه.

وقال: إذا طالبتك نفسك برزق غد، فقل: هات كفيلا بأن أبقى إلى غد.

وكتب بعضهم وصية لولده: لا تقبل من السلطان عطية، ولا من الأخوان هدية. كن آنس ما تكون إذا خلوت بربك، وأوحش ما تكون إذا قعدت مع الناس. ما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت، وما أيسر ما فعلت في جنب ما أملت، اسجن نفسك في بيتك وحدك، لا محدث ولا جليس، واصطنع بملحك، واجعل قرصك كفايتك، فإذا بك قد لحقت بالصالحين. أذلل نفسك وقومها بالعدل، وأهنها تكرمها، وأتعبها ترحها، فإن الرغبة متعبة لأهلها، والزهادة راحة لأهلها، والنفس أمارة بالسوء وعدو بين جنبيك لا يفتر.

وقال المسيح - عليه السلام -: ليكن الناس منك في راحة ونفسك منك في تعب.

وقال: المال داؤه كثير. قيل: يا روح الله، وإن أدى حقه؟. قال: استصلاحه يشغلك عن ذكر الله.

وقال الحسن: لولا أن الله - عز وجل - وعز طأطأ من ابن آدم بثلاث ما أطاقه شيء، وهي: المرض والفقر والموت ـ وهو مع ذلك وثّاب.

وصية لحكيم

اجعل بينك وبين كل محبوب ترقبًا لزواله لئلا يفجأك فقده، كم يكون عدد ليس له مدد حتى يبيد وينفد، من أضيع ممن لجأ إلى غير حرز واستظل بكنف التلف الرقاد عن هول المعاد مقطعة عن الزاد. لا تأنس بما لا بقاء له. ما كان إلى زوال فالزيادة فيه نقصان حتى يستغرقه الفناء. السبب إلى مغفرة الله - عز وجل - مباح فاطلبه وتمسك به، تلحق منازل الأبرار. من علامة المخذولين العمل بالشك، وترك اليقين. من حسن ظنه بالزمان فقد استهدف لنبله وسهامه. الغلبة للعادة فاحذر عادة تلزمك شهوة قبيحة. إخطار الفاقة من خمول الهمة. الغدر من صغر القدر. حاصل المنى الأسف. من أظهر لك عداوته فقد نبهك على مواقع نبله. عذب حسادك بالإحسان إليهم. لو كانت الدنيا لا تنال إلا باللب والدين، ولاتوجد إلا عند ذوي الأحساب وأولي المروءات لكان التقصير في طلبها وترك الحرص عليها مهانة للنفس وغضاضة للقدر، لكنها لم تزل توجد عند أهل المنع والبخل والنقص؛ ومن استوحش من اصطناع المكارم فما يوجد أكثرها إلا عند أهل هذه الخصال. من سعى بدليل من التدبير لم يقعد به عن الدرك إلا سابق قضاء لا يملك. لكل ناجم أفول. آخر هذه الدول فجائع، وغِيَر الآمال متصلة والشكوك مصدقة واليقين مكذب. مجاورة الأحداث تنبه الأحداث. واهًا لأهل العقول كيف أقاموا بمدرج الميول. استنقذ أيامك من الغفلة قبل الرحيل. احم جفونك الوسن فإنك مطلوب. لئن لم تركب المحجة لتأخذنك البينات. راقب نعمة ربك قبل أن تذهب عنك العافية. امهد لنفسك ومخارجُ الأنفاس سهلة لم ينازعها قابض الأرواح. بالغفلة دامت متعة الإنسان. قامت عليك حجة المعلم. لا تطل أنسك بكرّ الأيام وعود الساعات، فإن بعض هذه الأوقات مطية الموت إليك ووافد المنية عليك. إن في الحياة جزءًا من الممات، وفي البقاء حصة من الفناء، وفي الشباب دبيبًا من الهرم، وفي الزيادة كمونًا من النقصان، وفي الصحة أجناسًا من الأسقام.

جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة. والرفق يفُلّ حد المخالفة. البشر يطفئ نار العداوة. أبين الغبن كدك لغيرك. قليل الرزق مع سلامة النفس أمتع من كثيره مع الأوجاع. ليس في طبيعة الزمان بلوغ الكمال. انتقاص الأبدان يزيد في قوة الآمال. فرائض الله على خلقه دون وسعهم، وطاقة القوى فوق المفروض، ولله مهل يدرك به

التفريط. نِعْم الأرض نفسك إن بذرت فيها الخيرات. عين الدهر تطرق بالمكاره والخلق بين أجفانه. من عرف فضل الله عليه رفع التأنيب عن أهل النقص. التمتع بحسن الظن في الغيبة أعظم موقعًا من معاينة الجفاء مع الرؤية. إنما يبقى الشرف الأول لمن بنى عليه. أرجح الناس عقلا وأكملهم فضلا من صحب أيامه بالموادعة، وإخوانه بالمسالمة، وقبل من الزمان عفوه.

عدوك بين جنبيك وجنده الهوى، فإن أطعته هلكت، وإن عصيته نجوت. الأجل مرسل إليك وعمرك بقدر سفره نحوك، فكلما قاربت أجلا فازدد عملا. مثل الدنيا كمثل النار للإنسان؛ لأن منافعه كلها منها، وهي مع منفعتها وعظم قدرها مهلكة متلفة، فينبغي للمضطر إليها أن يأخذ منها بقدر المنفعة التي لا بد منها لمن يستضيء بها أو يصلح لها طعامه أو يصطلي بها. فإذا قضى حاجته منها كانت أعظم الأشياء ضررًا عليه، فهو جاد يعمل في إطفائها. فقد علمت أن فقد النار عند الحاجة إليها ضرر عظيم، وهي لا تشتري بثمن ولا تباع مع كثرة ما فيها من المنافع، فأنزل الدنيا منزلتها.

قيل لحسن: إن فلانا بالنزع - فقال: هو بالنزع منذ يوم ولد.

سئل أنوشروان: من أطول الناس أعمارا؟ ـ فقال: من كثر علمه فتأدب به من بعده، أو كثر معروفه فشرف به أعقابه.

وقال مروان الحمار: إن الدهر لما حلا لنا خلا منا.

وكان الأحنف يقول: إذا أردت إصلاح عيشك في الدنيا فاستصطلح الجار وكان يقول: أنقص الناس عقلا من آذى جاره.

كان إبراهيم النخعي يقول: يهلك الناس في شيئين: فضول الكلام وفضول الأقوال.

وقال رجل لأحمد بن أبي دؤاد: الفلك أجدّ من أن يترك أحدا على حال واحدة، والدنيا أقل من أن تفي لصاحب.

وقال يحيى بن خالد: إن جلد النمر ما ترك على النمر، فكيف يترك على صاحب السرج.

رأى حذيفة بن اليمان صديقا له يخاصم آخر، فقال له: تحب أن تغلب شر الناس؟ - قال: نعم - قال: فإنك لا تغلبه حتى تصير شرا منه.

ومن قديم كلام العرب: إن الوجوه إذا كثر تقابلها اعتصر بعضها ماء بعض.

كان خالد بن صفوان، يقول: من اشتغل بتفقد اللحن وطلب السجع نسي الحجة.

وقال الحسن: من مثلك يا ابن آدم! خُلي بينك وبين الماء والمحراب كلما شئت إلى ربك ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان.

من لم يحكم على نفسه، حكم الله عليه.

وقال مسلم بن يسار: العجب ممن رجا فلم يعمل، وممن خاف فلم يكف.

وقال عبد الله: الحذر الحذر، فو الله لقد ستر حتى كأنه غفر.

وقال: إن الأحمق يرجو الآخرة بغير عمل، ويدع التوبة لطول الأمل. الإنسان يبالغ في الرغبة حين يسأل، ويقصر في الرهبة حين يعمل.

وقال الحسن: الدنيا مطية المؤمن عليها يحمل ويرتحل إلى ربه، فأصلحوا مطاياكم تبلغكم إلى ربكم.

وقال: يا ابن آدم، أترضى من ربك بقليل فانٍ وتقدم عليه غدا ليس لك في جنته نصيب؟ ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٧] الآية.

وقال: ما زينوها ولا زخرفوها حتى رضوا بها.

أوصى عبد العزيز بن مروان ابنه عمر، فقال: اتق الله وأحسن نيتك في عملك كله، فإنه لا دين لمن لا نية له، وأحسن تدبير مالك، فإنه لا مال لمن لا تدبير له. وارفق بمن تعامله؛ فإنه لا عيش لمن لا فق له. وتجوز في شهواتك، فإنه لا عقل لمن لا يغلب هواه. دار عدوك لأمرين: إما لصداقة تؤمنك وإما لفرصة تمكنك - وفي المثل القديم: قبل يد عدوك إذا لم يمكنك قطعها. وقال أمير المؤمنين علي - عليه السلام -: ليس الإيمان بالتخلي ولا بالتمتني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال.

عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر. نظفوا أفواهكم فإنها طرق إلى ذكر الله تعالى.

وقال آخر: استغنم تنفّس الأمل وإمكان العمل، واقطع ذكر المعاذير والعلل.

أخي، من باع دنياه وزخرفها بصدقة كان عندي غير مغبون.

كن كالمداوي جرحه بصبره على الدواء ومخافة طول الداء.

السعيد من نظر إلى الدنيا اعتبارا، لا اغترارا؛ وعمل البر بدارا، لا انتظارا. لا تدخر عمل اليوم إلى الغد.

الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما.

قال الشاعر:

اعمـــل لنفســـك مـــا استطعـــ ـــــتَ فإنهـــا نـــارٌ وجنـــة

التعبد يثقل على النفس، لثقله في الميزان، والكسل يخف على أهله كخفته في الميزان.

دعاء: يا من ألزمني عبادة استغني عنها لا تحرمني مغفرة أفتقر إليها.

أنصاف أبيات

حياة الفتى سير إلى الموت قاصد.

ولا عنق إلى وهي في فِتْر خانق.

المصيبة واحدة. فإن جزعت فهما اثنتان.

شهادة الأعمال أزكى من شهادة الرجال.

ليس كل أنس مودة، ولا كل انقباض وحشة.

إخفاء العلم هلكة، وإخفاء العمل نجاة.

بترك ما لا يعنيك يتم لك ما يعنيك.

الهوى كمين لا يؤمن فتحفظ منه برقباء تنصبها عليه من عقلك، لا يغفلون عنه لحظة واحدة.

قوة الغضب الحقد. مادة الحاجة الحرص. ثمرة الحقد الكفر.

قال الجاحظ: اعلم أن المرء بقدر ما ينسب إليه يعرف، وبالمستفيض من فعاله يوصف؛ وإن كان بين ذلك كثير من أفعاله بخلافه ألغاه الناس، وحكموا بالغالب من أمره. فاجتهد أن يكون الغالب عليك كل ما يحمده جمهور الناس، فإن ذلك يُعفّي على خلل في حالك، إن كان. فبادر ألسنة النس واشغلها بمحاسنك، فإنهم سراع إلى كل شيء يجدونه، واستظهر على من دونك بالفضل، وعلى نظرائك بالإنصاف، وعلى من فوقك بالإجلال - تأخذ بوثائق الأمور وأزمة التدبير. واعلم أن كثرة العتاب سبب القطيعة، واطراحه كله دليل على قلة الاكتراث لأمر الصديق. فكن بين أمرين: عاتبه على ما يشتركان في نفعه وضره، وذلك في الهينات، وتجاف عن غفلاته تسلم لك ناحيته. ويحسب ذلك فكن في زيارته، فإن الإقام في زيارته يذهب بالبهاء ويورث الملال؛ والهجران يعقب الجفاء ويحل عقدة الإخاء، وهو مدرجة القطيعة.

قيل لملك زال ملكه عنه: بم زال ملكك؟ - قال: بمنعٍ أضغن، وبذلٍ أبطر.

ذم الرعية لراعيها لا يكون إلا لإحدى ثلاث خصال: كريم قصر به عن قدره فاحتمل ذلك ضغنا، ولئيم بلغ ما لا يستحقه فأورثه ذلك بطرا، ورجل منع حظه من الانصاف فأحدث له ذلك كمدا.

في ذم الهدية

كان بعض الملوك يكره الهدية شديدا. فسئل عن كراهته ما لم يكن يكرهه غيره من الملوك. فقال: إن الهدية لا تخلو أن تكون من مبتدئ يقلد بها يدًا، أو من رجل قلدته نعمة فأخذ عليها ثوابًا. وإنما تحسن الهدايا بين الأكفاء ليتحابوا؛ فأما الملوك فلا حاجة بهم إلى ذلك.

* * * * *

كان بعض قدماء الملوك إذا أراد محاربة ملك وجه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يظهر محاربته؛ ويأمر بالبحث عن ثلاث خصال من أمره وهو: أن يبحث عما يرد عليه من أمر رعيته هل هي على حقائقها أو تختدعه أصحاب الأخبار عنها وتكذبه فيها. ويبحث عن الغنى في أي صنف من حاشيته هو: في أهل الشرف، أم في الأندال. ويبحث عن المشاورة وهل يستعملها في أموره، أم يمضي الأمور على هواه. فإن قالوا: إن الأمور والأخبار ترد عليه على حقائقها، وإن الغنى في أصل الشرف والتكرم، إنه يستعمل المشاورة- كفّ عن محاربته وعن الطمع في مملكته.

ثلاثة أخلاق لا توجد إلا في لبيب: التقدم في الحزم، فإن بذه فالاجتهاد في الاحتيال، فإن قصر فحسن العزاء.

ما أنعم عيش ذي فاقة عرف من نفسه نزاهة الطُعْمة، وما أسوأ عيش ذي جِدَةٍ عرف من نفسه فحش الطعمة والرغبة.

سئل عن الحزم، فقال: ألا تأمن وأنت تجد للحذر موضعا.

وقال: اصمت ما لم تضطرك إلى القول حاجة؛ وتكلم إذا كان الصمت راجعًا عليك بالحجة.

وقال: الصدق أمانة، والكذب خيانة، والانصاف راحة، والشح مسبة، والسخاء فخر، والتواني إضاعة، والصحة بضاعة، والجهل حيرة، والحلم عز، والحكمة كنز، والوفاء نيل، والعجب هلاك، والصبر نجدة، والعقل قرة العين في جميع هذه وغيرها.

يحكى عن بعض الأنبياء أنه قال لقومه: ليعلم كل إنسان أن كل يوم يمر به وليلة يحفظ فيهما عمله من حسن أو قبيح، ثم يمضي عنه يومه وليلته فلا يعودان إليه

واكتسابه غير منسي. فمن قدر أن يحط له الحسنات فليفعل، فإنه يبهج بذلك وبمعاينته وذكره ولو بعد حين؛ وإن لم تفعلوا ذلك غُبِنْتم حظ أيامكم التي هي نصيبكم من الدنيا، فإن الأيام صحائف فخلدوا فيها الجميل من سعيكم، فقد تبين لكم حفظها لما استودعت من المحامد في قديم الدهر، لا يدرس ذلك مع ذهاب القرون، فلا ينسى في غابر الأزمنة. وما يؤثر من الذنوب والعيوب ثابت على عامله، لا يمحوه عنه شيء، ولا يذهبه آخر عن أول، وإنما يبقى الشرف القديم لمن وصله بالحديث.

من سأل فوق قدره استحق الحرمان والمنع.

سوء حمل الغنى أن يكون الفرح مرحًا، وسوء حمل الفاقة أن يكون الطلب شرهًا، وعار الفقر أهون من عار الغنى.

الحاجة مع المحبة خير من الغنى مع البغضة.

الدنيا دول، فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك.

إذا جعل الكلام مثلاث مضروبا كان أبين في المعنى، وآنق للسمع، وأوضح عند التأمل، وأوسع لشعوب الحديث.

القسم الذي قسم للناس وبه يمتعون: منه حارس، ومنه محروس: فالحارس العقل، والمحروس المال. والعقل هو الذي يحرز الحظ، ويؤنس الغربة، وينفي الفاقة، ويعرف النكرة، ويثمّر المكسب، ويطيب الثمرة، ويوجه السوقة عند السلطان، ويستنزل السلطان لمحبة السوق، ويكسب الصديق، ويكفى العدو.

مقارفة المأثم، وإن كان محتقرا، مصيبة عظيمة.

لقاء الإخوان، وإن كان يسيرا، غنم كبير.

الناس - إلا من عصم الله- مدخولون في أمورهم: فقائلهم باغ، وسامعهم عياب، وسائلهم متعنت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غير محقق قول بفعله، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف بما يوعظ به، والأمين غير متورع ولا متحفظ من إيمان الخائن، والصدوق غير محترس من إيمان الكذاب، وذو الدين غير متورع عن تقريظ الفاجر، والفاجر غير مترقب للدوائر: يتقارضون الثناء، ويتراقبون الدول، ويتعاتبون بالهجر.

مولعون في الرخاء بالتحاسد، وفي الشدة بالتخاذل. كم انتزعت الدنيا ممن استمكن منها فأعصفت له، فأصبحت الأعمال أعمال غيرهم، والدنيا دنيا غيرهم، وأخذ

الدنيا من لم يحمدهم، وخرجوا إلى من لا يعذرهم، وأصبحنا خلفًا بعدهم نتوقع الذي نزل بهم. فنحن إذا استدبرنا أمورهم أحِقّاء أن ننظر ما نغبطهم به فنتبعه، وما نخاف عليه فنتجنبه.

إذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيت، ولا تترك من الشر إلا ما كرهت، فقد أطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من رُمّتك، وأوشك به ان يقتحم عليك فما تحب من الخير فيكرهه إليك، وفيما تكره من الشر فيحببه إليك. ولكن ينبغي لك حب ما تحب من الخير، والتحامل على ما تستثقل منه، وينبغي لك كراهة ما يكره من الشر، والتحبب لما تحب منه.

قد بلغ فضل الله على الناس من السعة وبلغت نعمته عليهم من السبوغ ما لو أن أخسهم وأقلهم نصيبا منه وأضعفهم علما وأعجزهم عملا وأعياهم لسانا بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص إليه، ووصل إليه من نعمته ما بلغ منه له أعظمهم حظا وأوفرهم نصيبا وأفضلهم علما وأبسطهم لسانا - لكان عما استوجب الله عليه مقصرا، وعن بلوغ غاية الشكر بعيدا.

بلغ من فضل الدين والحكمة أن مُدِحا على ألسنة الجهال، على جهالتهم بها وعماهم عنها.

أحق الناس بالتدبير العلماء، وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله، وأحقهم بالعمل أحسنهم تأدبا، وأقربهم إلى الله تعالى أنفذهم في الحق، وأكملهم له عملا، وأحكمهم أبعدهم من الشك في الله، وأصوبهم رجاء أوثقهم بالله، وأشدهم انتفاعا بعمله أبعدهم من الأذى، وأرضاهم عند الناس أفشاهم معروفا، وأقواهم أحسنهم معونة، وأشجعهم أشدهم سلطانا على نفسه، وأفلحهم أغلبهم للشهوة والحرص، وآخذهم بالرأي أتركهم للهوى، وأطولهم راحة أحسنهم للأمور احتمالا، وأقلهم دهشا أرحبهم ذرعا، وأوسعهم غنى أقنعهم بما أوتى، وأخفضهم عيشا أبعدهم من الإفراط، وآمنهم في الناس أكلتهم نابا ومخلبا، وأوسعهم شهادة عليهم أنطقهم عنهم، وأعدلهم فيهم أدومهم مسالمة لهم، وأخصهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها.

سبب الإيمان بالغيب أن لكل ظاهر من الدنيا - صغيرا كان أو كبيرا - غيبا يصرفه. فمن كان معتبرا بالجليل فلينظر إلى السماء فسيعلم أن لها ربًا يجري أفلاكها ويدبر

أمرها. ومن اعتبر بالصغير فلينظر إلى حبة خردل فسيعلم أن لها ربا ينبتها ويزكيها ويقدر لها قوتها من الأرض والماء، ويوقت لها زمان نباتها وتهشيمها. وأمر النبوة والآثار والأحلام وما يحدث في أنفس الناس مما لا يعلمون ومن حيث لا يعلمون، ثم ما يظهر منهم بالقول والفعل، ثم إجماع العلماء والجهال والمهتدين والضالين على ذكر الله وتعظيمه ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم - فكل يهدي إلى الله ويدل على الغيب الذي كان ويحب منه هذه الأمور مع ما يزيد من ذلك عند المؤمنين وثيقة عند العلماء بأن الله حق وما سواه باطل.

للسلطان العادل حق، لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بأدائه. فالعاقل حقيق بأن يخلص لهم النية وانصيحة، ويبذل لهم الطاعة والمحبة، ويكتم سرهم، ويزين سيرتهم، ويذب بلسانه ويده عنهم، ويتوخى مرضاتهم. وليكن من همته المواتاة لهم، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه ورأيه، ويقدر الأمور على موافقتهم وإن كان ذلك له مخالفا، وأن يكون منه الجد في مخالفة من جانبهم وجهل حقهم، ولا يواصل من الناس من تباعد عن مواصلتهم، ولا يحمله أحد بعداوته على الإضطغان عليهم، ولا مؤاتاة أحد على الاستخفاف بشيء من أمورهم وحقوقهم، ولا يكتمهم شيئا من نصيحتهم، ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم، ولا يبطر إذا أكرموه، ولا يجترئ عليهم إذا قربوه، ولا يطغى إذا سلطوه، ولا يلحف إذا سألهم، ولا يلزمهم مؤونة تثقل عليهم، ولا يستثقل ما حملوه، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، وأن يحمدهم ويشكرهم على ما أصاب من خيرهم.

مما يدل على العالم وفضله معرفته بما يدرك من الأمور وإمساكه عما لا يدك، وتزيينه نفسه بالمكارم، وظهور علمه بالناس من غير أن يظهر منه فخر أو عجب، ومعرفته بزمانه الذي هو فيه، وبصره بالناس، وإرشاده كل مسترشد، وحسن مخاطبته لخلطائه، وتسويته بين لسانه وقلبه، وتحريه للعدل في كل أمر، ورحب ذرعه فيما ينوبه، وحسن تبصيره من أراد أن يبصّر شيئا من علم الآخرة الذي به يعرف ذلك.

السعيد يرغبه الله في الآخرة حتى يقول: لا شيء غيرها، فإذا هضم الدنيا وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله تعالى بذلك نصيبه من الدنيا، ولم ينقصه سروره فيها؛ والشقى

يرغبه الشيطان في الدنيا حتى يقول: ليس غيرها، فيجعل الله له التنقص في الدنيا آثرها مع الخزي الذي يلقى بعدها.

خصال يسر بها الجاهل، كلها وبال عليه: منها أن يُمدح من العلم والفضل بما ليس فيه؛ ومنها أن يرى بالأخبار والأفاضل من الاستهانة والجفوة ما يشتبه بهم؛ ومنها أن يجادل عالمًا منصفًا وديعًا في القول، فيشتد صوت الجاهل، ثم ينصره نظراؤه من الجهال حوله بعلو الصوت والجلبة وكثرة الضحك؛ ومنها أن تفرط منه الكلمة المعجبة للقوم فيذكروها؛ ومنها أن يكون مجلسه في المحفل وعند السلطان فوق مجالس أهل الفضل.

من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس بحسب ما عنده من القول، أو يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ فأنصت له؛ فإذا أنصت لم يحسن أن يتكلم.

لا يؤمننك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف، فإن أخوف ما يكون حريق النار أقرب ما يكون منها. وكذلك الجاهل، إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألفك حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك، مع أنه عند الجوع سبُع ضار، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة في الدين قائد إلى النار. فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأساور والحريق المضطرم والدين الفادح والداء العياء.

قال بعض الصالحين: لا يكون المرء زاهدا حتى يزهد في عمره، وإلا فهو متزهد.

قال الله - عز وجل - من قائل: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. وقال عيسى - عليه السلام -: أتريدون الدنيا للبر؟ - فترك الدنيا أبر لكم.

الموت فزع الأغنياء وشهوة الفقراء.

لا يكون الحكيم حكيما حتى يعلم أن الحياة تسترقه، والموت يعتقه.

لا تستغنوا عن الناس فيستغنوا عنكم، وصانعوا الناس وآخرهم على قدر ما فيهم من الخير؛ ولا تطلبوا الكمال فإنه عزيز، ولكن لابسوهم بقدر ما فيهم من الخير والفضل؛ ولو لم يكن إلا لكفِّ شرهم، فآخوهم لذلك.

كلام لبعض المتصوفة

أليس من أصيب بالحق أكثر ممن أصاب منه، ومن موّه عنه أكثر ممن حقق به؟ - على أن الإشارة إلى غيره إلحاد فيه، والعبارة عن معناه اجتراء عليه.

هذا لأن الخلق إن أصحروا في الطلب تاهوا، وإن أبحروا غرقوا، وإن أجبلوا كلوا، وإن أسهلوا ضلوا.

حسب العارف فقر هو غناه، وحسب الجاهل غنى هو فقره.

لعل قائلا يقول: ما أروح اليأس عمن لا يوجد - فيقال له: ما أمتع النيل ممن لا يفقد.

لو زعم زاعم أنه أشار لكان مقصرا، ولو قال إنه أصاب لكان كاذبا.

وقال أبو علي الروذباري - وقد سئل عن التوحيد -: هو استقامة القلب على رفض التعطيل، وإنكار التشبيه بإثبات التنزيه، فإياك والغوص في التنزيه فغايته التشبيه. والتوحيد كله في كلمة واحدة: كل ما خيله الوهم وصوره الفهم وحدده القول واستقر عليه الرأي - فالحق بخلافه، ومباين له، غير داخل تحته ولا مستعير نعته.

وقال الجنيد - وقد سئل عن الشفقة -: هي أن تعطي من نفسك ما يطلبون، ولا تحملهم ما لا يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون.

سئل الشبلي عن الزاهدين، فقال: كلكم زاهدون في الله - عز وجل -.

وسئل عن الأنس، فقال: وحشتك من نفسك.

سمع معروف الكرخي امرأة تدعو لابنها وهو يخرج إلى الغزو، وتقول: حفظك الله ـ فقال: إن حفظه الله لم يخرج إلى الغزو والقتال.

قال ابن عطاء: يزين الله - عز وجل - قوما بأنوار عصمته وهم عنده في حقائق لعنته، ويزين قوما بأنوار نعمته وهم عنده في حقائق نقمته، ويزين قوما بأنوار ولايته وهم عنده في استدراج مهلته. وأعظم المصائب مصيبة الاستدراج؛ لأن كل مصيبة فإنّ صاحبها يراها، والمستدرج محجوب عن مصيبته.

وقال أبو يزيد: إني لما نظرت إلى الدنيا اخترت عليها الآخرة ولما نظرت إلى الآخرة اخترت عليها الرب تعالى، ولما نظرت إليه اخترت الفرار؛ ثم نظرت إلى الفرار، فإذا هو ينتهي بي إليه؛ فعدت مستحيبا، وبقيت مستخذيا.

قدم عارف ليصلي بقوم، فلم يقف متمكنا حتى عاد إلى الصف، فقيل له: مالك؟ – قال: أردت أن أقول لكم: "استووا" ـ فقيل لي: " لم لا تستوي أنت؟ " ـ فتأخرت.

حكم للعرب وأمثال لها سائرة

النعم نوار، فاربطها عن النفار بكرم الجوار. تَرَك الفريضة وطلب الفيلة القلوب تخطر بالهوى، والعقل يزجر ويتهى. لا تطلب مجازاة أخيك ولو حثا التراب بفيك. من أمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه. من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر. الرأي غرر غير مضمون. السخي شجاع القلب، والبخيل شجاع الوجه. تروّح إلى بقاء عزك بالمؤانسة، ولا تتشوف إلى ما تخلق عنده بالمؤانسة.

آخر الصبر أول الفرج. من التوقي ترك الإفراط في التوقي. عاود القلب عند نبوات القلوب، واشحذه بالمذاكرة، ولا تيأس من إصابة الحكمة. إذا امتحنت ببعض الاستغلاق. فإن من أدمن قرْع الباب وصل.

البر ثلاثة: المنطق، والنظر، والصمت - فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها.

وقال حكيم من العرب لابنه: يا بني، إني مؤد إليك حق الله في التأديب فأد إلي حق الله في حسن الاستماع. كف الأذى، واقض الندى، واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك نفسك إلى القول فيها، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب.

احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا، فيوشك أن تورطك المشورة المحرفة فيسبق إليك مكر العاقل وغرة الجاهل.

لا بد للجواد من كبوة، وللسيف من نبوة، وللحلم من هفوة. من لم يصبر على كلمة سمع كلمات. عليك بإصلاح المال فإنه ينوّه بالكريم، ويُستغنى به عن اللئيم.

كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به.

يجب على كل ذي مقالة أن يبتدئ بالحمد قبل استفتاحها، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها.

الانتقام عدل، والتجاوز فضل.

كظم الغيظ صبر، والتشفي طرف من الجزع.

ليس الرأي بالارتجال، ولا الحزم بالاقتضاب.

خمير الرأي خير من فطيره.

التمس العافية ممن هو دونك تعطها ممن فوقك.

ليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

شدة الاستكانة تزيد في الفاقة.

العقل لا يمكنه من التجاهل عند وضوح الحجة ما يمكن اللسان من لاجحد عند ظهور الدليل.

فلان يكيد الرأي، ويعترض على الحزم، ويتقحم على الغرور، ويجبن عن الفرص.

الحاجة تفتق الحيلة، والغنى يكسب البلادة.

احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، وهي أخوفهما عليك لما تورث من البطر والأشر والانخداع، فلا يجوز فيها إلا شدة التحفظ.

ليت شعري متى أشفى غيظي: أحين أقدر، فيقال: لو غفرت؟ أو حين أقدم، فيقال: لو صبرت؟

خير المزح لا ينال، وشره لا يقال.

من طلب الحق بما له أو عليه أدركه.

زيادة الشكر على النعمة ملق أو كذب، والتقصير عنها عِيٌّ أو كفر. لا تجعل لما أبرمته من كيد عقد عليه قلبك مخرجًا من لسانك، فتحتال فيه بنقض أو احتراس.

العاجز يسمى الاستسلام توكلا، وقصر الهمة قناعة.

من ضعف عن عدوة فليقو على نفسه بالأخلاق الرضية.

الأسد يثب بجميع قوته على الأرنب كما يثب على الثور.

الطاووس مع حسنه وزينة ظاهره وحلاوة صورته، يأكل الحيات ويغتذي بالسموم.

القرد، وإن سمن، لم يسذهب قبحه.

النسر على عظمة وجودة سلاحه لا يأ كل إلا الميتة.

طالما ذبح السمين وترك الهزيل.

بادر العمل، وكذب الأمل، ولاحظ الأجل.

الشغل للنفس ليس الشغل للبدن.

الأسد لا يأكل إلا من فريسته.

أنصاف أبيات

وهل يفرس الليث الطلا وهو رابض.

والصقر ليس بصائد في وكره.

كلب عسَّ خير من أسد اندس. لا تخف ممن تحذر، ولكن احذر ممن تأمن. هل ضمن لك الزمام أن ينصف فلا يحيف، أو يؤمن فلا يخيف، أو يبرم فلا ينقض، أو يعافي فلا يُمرض، أو يصفو فلا يكدر، أو يفي فلا يغدر؟ من لم يسكن إلى الغنى لم يستكن للفاقة. تأنّ من تجفو فقلّ من يصفو. التلطف في الحيلة خير من الوسيلة. من ثقل على صديقه خف على عدوه.

من رضي عن نفسه كبر الساخطون عليه. مع كل شرف حق مضيع. الاعتبار يجلو عن البصر ظلمة الاغترار. ما أحسن الدنيا. لولا أنها ميراث!

من سل سيف البغي قتل. الغنى ترك المنى. من استغنى بعقل نفسه اختل، ومن أعجب برأيه ضل، ومن صارع الحق ذل، ومن أكثر المزحل مل، ومن ترك الكبر جل. نعم التجارة الشكر! لا عذر مع إصرار، ولا ظفر مع بغي، ولا صحة مع هم، ولا صداقة مع حب، ولا راحة مع حرص ولا عز مع كبر، ولا رئاسة مع حقد.

ما لك إلا ما قبلت عفوه.

لن تصلح الناس وأنت فاسد.

إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر.

ما لك إلا ما عليك مثله.

تعمى القلوب والعيون ناظره.

باعدني منه حرصي عليه.

في كل شيء يرتجي مخافه.

ما عيش من آفته بقاؤه.

رب ساع لقاعد.

وجه المحرش أقبح.

أعور عينك والحجر.

صدرك أوسع لسرك.

رب أخ لك لم تلده أمك.

رب أب لك لم يلدك.

من لك بأخيك كله! أنا لك عُذله وأخي خُذَله.

أنا تئق وأنت مئِق، فكيف نتفق؟

زاحم بعوْدٍ أو دع.

كل مجرٍ في الخلاء يسر.

أن ترد الماء بماء أكيس.

يركب الحرام من لا حلال له.

إن البغاث بأرضنا يتنسر.

يا عاقد اذكر حلا، لا ترفع عصاك عن أهلك. الشجاع موقى والجبان ملقى.

إنما أخشى سيل تلعتي. احتفظ من كالئك. ثمرة العجب البغضة، ثمرة اللجاجة الحيرة، ثمرة التواني الذلة؛ ثمرة العجلة الندامة.

أنصاف أبيات في الأمثال

بقدر ما تعلو يكون المهوى.

إنك إن ترض بما قل كثر.

أدنى الأعاجيب إلي نفسي.

الرفق أدنى سبب للرزق.

يملك قلبي كل شيء أملكه .

يا رب خير جاء من مكروه.

أنصح غيري وأغش نفسي.

أخدع شيء لك ما فيه طمع.

يا حبذا الوحدة من أنيس.

إذا خشيتَ آفة الجليس.

لو أنصف الناس استراح القاضي.

كم غامز للناس فيه المغتمز.

تعز عما لم تنل بالصبر.

الشك ليل واليقين صبح.

أنت بخير ما صنعت خيرا.

لم أخل من موئسة مرجوة.

كم أنفس صغرهن الكبر.

ما لك لا تترك ما تعيب؟.

حرمت نفسي الخير، ليس سائلي.

عن نفسه يبخل كل باخل.

الفقر خير من غنى يطغيكا.

آكل لحمي ولا أدعه لآكل.

يا بعضي دع بعضا.

قبل البكاء كان وجهك عابسا.

منك أنفك وإن كان أجدعا.

لا تغز إلا بغلام قد غزا.

ليس عبد بأخ لك. قبل النفاس كنت مصفَرّه. رب حام أنفه وهو جادعه. ليس لعين ما رأتْ، ولا لكف ما أخذت. أعييتني بأشُرٍ، فكيف بدُرْدُر؟ - إنك لا تسعى برجل من أبي. إن كنت به تشد أزرك فأرخه. إن يدم إِطلُك فقد نقب خفي. من سره بنوه ساءته نفسه. رأْيُ الشيخ خير من مشهد الغلام. هان على الأملس ما لاقى الدبر. ليس لها راع ولكن حَلَبه. دمث لجنبك قبل النوم مضطجعا. برد غداة غر عبدا من ظمأ. كطالب القرن صُلمتْ أذنه، إن رمت المحاجزة فاقبل المناجزة. كل الحذاء يحتذى الحافي الوقِع. كل أداة الخبز عندي غيره. في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعَفار. الدرهم برغم كل عاتب.

إذا عنّ ماء لم يجز لي التيمم.

فقد عرفت ريحَ الليوث البهائم.

بجبهة العير يفدي حافز الفرس.

وأغيظ من عاداك من لا تشاكل.

لا تنقش الشوكة بالشوكة، فإن ضلععها معها.

من يرد البحر يصادف رِيا.

والفضل ما شهدت به الأعداء.

الدر يقطعه جفاء الحالب.

الرأي يهلك بين العجز والضجر.

من أخطأ وجوه المطالب خذلته. هذا أمر لا يبقى له قدري. هذا أمر لا تبرك عليه إبلي، إن سرك الأهون فابدأ بالأرشد. عقل المرء مخبوءٌ تحت لسانه.

الصدق ينبي عنك، لا الوعيد.

إن الوعيد سلاح العاجز الحمق.

المرء يصلحه الجليس الصالح.

رب زارع لغيره حاصد لنفسه. أصلح علم المرء ما حاضر به. من ير يوما يُرَ به، والدهر لا يغتر به. خير المال ما أطعمك ولم تطعمه. إذا نصر الهوى بطل الرأي. اللسان يتقاضى صاحبه ما عوده. أشد الجهاد جهاد الهوى ، المصطلي بالنار أعلم بحرها. الكتب أصداف الحكم.

أوردهـا سَـعْدٌ وسَـعْد مُشـتملْ ما هكـذا تـورد يـا سـعدُ الإبـلْ

الصقر يجفو عن طراد الدُّخَّل.

لقد حكت الكلام لغير واع.

عي الصمت خير من عي الكلام.

مضرة الصدق أفضت بي إلى الكذب.

الصدق أحيانا مَعْجزة. على كاذب من قوله ضوءُ صادق. الفَرْي للسيف والتقدير للقلم. أشكره ولم ينلني مطره. ليس من العدل سرعة العذل.

بعض العتاب على الإخلاص متهم.

من جعل النمام عينا هلك. عثيثة تقرِم جلدا أملس. العين أنمُّ من اللسان. من حفر لأخيه مغواة وقع فيها. الموت خير من حياة على رغم.

لا أطعم الخسف إن السم مشروب.

تلدغ العقرب وتصئ. إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم. رب إصرار خير من اعتذار. ما أصيب من أثيب.

كريم غبي الطرف عن عثراتي.

ويبقى بعد حلم القوم حلمي.

أنظر به غَدَك.

جحود الذنب ذنبان.

الغني رب غفور.

والليث لا يحسن العتبى إذا وثبا.

حفظ الذنوب إذا قدُمْن ذنوب.

من مال معك إلى الحيف، فلا تبخل عليه بالسيف.

الملا أصلحه، فليس لمقْتِر في الناس حرمه.

الناس خلانك ما لم تفتقر.

الحر عبد إذا طمع والعبد حر إذا قنع. اشتد شرهه فكثر سفهه. وَحْمى ولا حبل. أرسل طرفه فاقتنص حتفه. تمتع لعلك أن تنفقا. من لبس الحرص لم تسدد مفاقره. لا يلعب بك الأمل الكذوب. شمر ذيلا، وادرع ليلا. يأكل فارهًا ويعمل كارهًا.

يحدو وليس له بعير.

الغيث في غمدي وأنتج.

الاغتراب يفيد الجِدَة، ويعيد الجدَّة.

حملت من الإلحاح سمحا على بُخل .

رب كبير هاجه صغير.

دع داغية اللبن.

وقد يسيل رذاذ الديمة الوادي.

النبع ينبت قضبانا فيكتهل.

كم مطر بدؤه مُطَيْر. أودى به الوادي وليس بمغنم. من أوقد حربا كان لها حطبا. موقد النار بها يصطلي. من أجج ضرامها صار طعامها. وبالضد قيل:

وليس يصلي بنار الحرب جانيها.

إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارا.

يدوفون لي سما وأسقيهم الحيا.

العين لا تملك طي الخبر.

أمت داءه تحت جنبه.

وإني للباس الرجال على البغض.

من كثر غمره لم يطبْ عمره.

أني لما أنا باك منه محسود.

رب غم يدب تحت السرور.

من طلبه القدر لم ينجه الحذر.

إن الأسود حليمها غضبان.

أضيق ما كان الخناق ينقطع.

ومن سامح الأيام طابت حياته.

ومن ناقش الإخوان قل صديقه.

من حرم التواضع منع أكرم الطبائع. كثرة النصيحة تهجم بك على سوء الظنة. ذوو الأعدام يقرعون كل باب. ستساق إلى ما أنت لاق. رب حيلة أنفع من غيلة. روّ تحزم، فإذا استوضحت فاعزم.

وإن فساد الرأي أن تترددا.

انتهز فرصة قبل أن تعود غصة.

أحكم ما تخشاه والأمر ممكن.

أقسم أمريك، وشاور نفسيك، وميل رأييك، واختر أمثل رأييك، واطع أرشد نفسيك.

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة.

من بدأ بالاستشارة وثنى بالاستخارة فحقيق ألا يفيل رأيه. نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد ليستعن مشغول بفارغ. اجعل مع حزمك نصيبا من التوكل، ومع توكلك نصيبا من التحرز حتى تقبل أدب الله تعالى جده في الحذر، وتطيع أمره في التوكل. دولة الجاهل عبرة العاقل. نظر العاقل بعقله وخاطره، ونظر الجاهل بعينه وناظره. دولة الجاهل كالغريب يحن إلى وكنه بالانتقال، ودولة العاقل كالنسيب يحن إلى المقام بالاتصال.

خير الأموال ما أنفق منه، وخير الأعمال ما وفق فيه. من ذكر المنية أنسى الأمنية. البخيل حارس نعمته، وخازن ورثته. لكل امرئ من دنياه ما ينفق على عمارة أخراه. من اكتفى بالكفاف اكتسى بالعفاف. لا تخدعنك الدنيا بخدائعها، ولا تُفتتنك بودائعها رب حجة تأتي على مهجة. رب فرصة تؤدي إلى غصة! كم من دم سفكه فم! كم إنسان أهلكه لسان! رب حرف أدى إلى حتف! من أطال عداوته أزال سلطانه. من غلبة الحمق مغالبة الحق.

زوال الدوال باصطناع السفل. من اغتر بحاله قصر في احتياله. من ترك ما يعنيه دفع إلى ما يُعنّيه. تجرع في عدوك الغصة إلى أن تجد الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدرك أو يعينه الفلك، فإن الدنيا دول تبنيها الأقدار، ويهدمها الليل والنهار. من زرع الإحن حصد المحن. رب عطب تحت طب.

ما أهون المصيبة بالأرباح إذا عادت بسلامة الأرواح! الدين مأسور حتى يفكه العقل، والعقل نائم حتى يوقظه الدين. الدنيا أمد، والآخرة أبد. عرّض للكريم وصرح للئيم. إذا سليت عاقلا فلا تشك هما. لددته بالنصح فمجه.

العجز أن تجعل الموتور منتصحا.

ولا خير فيمن لم تَعظه التجارب.

يبين على جنبيّ وسمُ التجارب.

الخرقاء بجَدها والصناع بجِدّها.

إذا لم تجد بالمال جاد به الدهر.

لا تطلب المفقود أو تفقد الموجود.

كل مصادى نعمة متضائل.

وهل تجد النفس الشحيحة ما تعطي.

الموت مستعجل يأتي على مهل.

ارفض الناس فكلٌ مشغله.

دع الناس وأنت من الناس. مطالع البلاء خفية الأشخاص. الحق أرفع من السماء وأوسع من الأرض، وغنى النفس أغزر من البحر، والديْن أثقل من الجبال.

أعظم ما أنعم الله - علا وتقدس - على خلقه بعد ابتدائهم بالخلق نعمتان: الرسول الهادي الذي لا يصاب الدين إلا من قبله، والثاني: الوالي العادل الذي لا تصلح الدنيا إلا عليه.

فأما ابتداء الخلق وما وصله بالنعمة التي لا بقاء له إلا بها فإنه وصل الأبصار بالضياء، والأنفاس بالجو، والأجساد بالقوت، والعامة بالولاة، والعقول بالحكمة. وإذا فقدت الأبصار الضياء والأنفاس الجو والأجسادُ القوتَ والعامةُ الولاةَ - هلكت هلاك الدنيا وإن فقد العقل الحكمة هلك هلاك الأبد.

البشر وُصلة، والشكر مكسبة، والوفاء تجارة.

من بالغ في الخصومة ظَلم، ومن قصر فيها ظُلم.

لا يطعمن ذو الكبر في الثناء الجميل، ولا الحب في طثرة الصديق، ولا سيئ الأدب في الشرف، ولا الحريص في قلة الذنوب.

الأحمق من يأكل ما يجد، ثم يسأل ما لا يجد.

وجراح الزمان بالصبر تؤسي.

إذا غلبك عدوك على صديقك فخل له عنه.

تم فصل كلام العرب، ولله الحمد.

ومن حكم الروم

سقراط[١]

قال سقراط فيما حفظ من وصاياه وأثبتت من ألفاظه:

سوأةً لمن أُعطي الحكمة فجزع لفقد الذهب والفضة، ولمن أعطي السلامة فجزع لفقد التعب والألم؛ فإن ثمار الحكمة السلامة والدعة، وثمار الذهب والفضة الألم والنصب.

وقال: الملك العظم هو أن يغلب الإنسان شهواته.

وقال: الطبيعة أمة للعقل، والعقل عبد للمبدع الأول.

وسئل: أي شي أنفع من جميع المقتنيات؟ ـ فقال: الصديق المخلص.

وعابه رجل من المترفينن الأغنياء، فقال: لو أردت أن أعيش كعيشك قدرت عليه، ولو أردت أن تعيش كعيشي لم تقدر عليه.

وعابه بعض الأغنياء بالفقر، فقال: لو عرفت الفقر لشغلك التوجع لنفسك عن التوجع سقراط.

---

(١) سقراط (باللاتينية: Socrates) (باليونانية: Σωκράτης) فيلسوف وحكيم يوناني (٤٦٩ ق.م - ٣٩٩ ق.م) فيلسوف يوناني كلاسيكي.يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية، لم يترك سقراط كتابات وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته عنه. ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة، تعتبر حوارات "أفلاطون" من أكثر الروايات شموليةً وإلمامًا بشخصية "سقراط". بحسب وصف شخصية "سقراط" كما ورد في حوارات "أفلاطون"، فقد أصبح "سقراط" مشهورًا بإسهاماته في مجال علم الأخلاق. وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطي (أو المعروف باسم Elenchus). ولا يزال المنهج الأخير مستخدمًا في مجال واسع من النقاشات كما أنه نوع من البيداغوجيا (علم التربية) التي بحسبها تطرح مجموعة من الأسئلة ليس بهدف الحصول على إجابات فردية فحسب، وإنما كوسيلة لتشجيع الفهم العميق للموضوع المطروح. إن "سقراط" الذي وصفه أفلاطون هو من قام بإسهامات مهمة وخالدة لمجالات المعرفة والمنطق وقد ظل تأثير أفكاره وأسلوبه قويًا حيث صارت أساسًا للكثير من أعمال الفلسفة الغربية التي جاءت بعد ذلك.

وبكلمات أحد المعلقين المعاصرين، فإن أفلاطون المثالي قدم "مثلا أعلى، جهبذًا في الفلسفة. قديسًا، نبيًا "للشمس-الإله"، ومدرسًا أُدين بالهرطقة بسبب تعالميه". ومع ذلك، فإن "سقراط" الحقيقي مثله مثل العديد من قدامى الفلاسفة، يظل في أفضل الظروف لغزًا وفي أسوأها شخصية غير معروفة.

وكان يتعلم الموسيقى على الكبر، فقال له إنسان: أما تستحيي أن تتعلم على الكبر؟ ـ فقال: حيائي من أن أكون جاهلا على الكبر أكثر.

وقال له رجل: حرمت نفسك يا سقراط نعيم الدنيا- قال: وما نعيم الدنيا؟ - قال: أكل اللحمان الطيبة وشرب الخمور اللذيذة ولبس الثياب الفاخرة، وإتيان المناكح الحسنة - قال سقراط: وهبت ذلك لمن رضي لنفسه أن يشبه الخنازير والقرود وأن يشبه السباع في أن تكون بطنه مقبرة للحيوان، وآثر عمارة بدنه الفاسد على عمارة الروح الباقي.

وقال: إن اللذة خناق من عسل.

ونظر إلى امرأة قد تزينت لتذهب إلى المدينة فنظر إليها، وقال: إني أظن أن ذهابك ليس للنظر إلى المدينة، ولكن لتنظر المدينة إليك.

وقال: القنية مخدومة، ومن خدم غير ذاته فليس بِحُر.

وكان يقول لتلاميذه: القنية ينبوع الأحزان، فلا تقتنوا.

ويقول أيضا: لا تحرصوا على اكتساب القنيات فيشتد فقركم، واستهينوا بالموت كيلا تموتوا، وأميتوا الشهوات تخلدوا، والزموا العدل تلزمكم النجاة.

وقال: من كانت ضلالته بعد التصديق بالحق زاغ عنه وكذب به، فهو بعيد من المغفرة يموت ميتة سوء، ومن كانت ضلالته قبل التصديق بالحق ومعرفته ثم عرفه ودان به نالته المغفرة.

وقال الحسن: الحق هو العدل؛ لأنه علة كل حسن، وكذلك الجور هو القبح الحق لأنه علة كل قبح، لأن القُبح هو ما خرج عن الاعتدال.

وكان جالسًا عند رجل فعطش الرجل، فقال لغلامه: اذهب إلى الخمّار، فقل له: أقرضنا جرة خمر وارفق بنا في ثمنه - فقال سقراط: أحسن من هذا أن تسأل نفسك أن تقنع بالماء.

ورأى فتى كان ورث مالا من ابيه فبذره وحصل على أكل زعرور الحبل - فقال: يا فتى لو كنت اقتصرت على أن يكون مثل هذا طعامك ما كان هذا طعامك.

وسئل: ما بالك تعاشر الأحداث دائما؟ ـ فقال: أفعل ذلك كما تفعل الراضة، فإنهم يرومون رياضة الأفلاء من الخيل، لا العتاق.

وقال: لا تكن عنايتك بما تكسب وكيف تكسبه كعنايتك بحسن استعماله وكيف تنفقه.

وقال: داوِ الغضبَ بالصمت، وداو الشهوة بالغضب: فإن من غضب على نفسه من تناول المساوئ شغل عنها.

وقال: بالعدل ركب كل العالم، فجزئياته لا تقوم بالجور.

وقال: يا أسراء الموت حلوا أسركم بالحكمة.

وقال: لا تخافوا الموت فإن مراراته في خوفه.

هرمس

ما يحكى عن هرمس

قال: المرء حقيق أن يطلب الحكمة ويبثها في نفسه، أولا: بأن لا يجزع من المصائب التي تعم الأخيار، ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه من الشرف، ولا يعير أحدا بما هو فيه، ولا يغيره الغنى والسلطان، وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت ذلك منه ألبتة، وتكون سنته ما لا عيب فيه، ودينه ملا يختلف فيه، وحجته ما لا ينتقض.

وقال: أنفع الأمور للنس وأقرها لعيونهم لقناعة والرضا، وأضرها وأشنعها عليهم الشره والسخط. وذلك أن أفضل ما في الدنيا السرور الذي هو ثمرة كل خير يصيبهم، وأشد ما يصيب الناس الحزن الذي هو ثمرة كل شيء يصل إليهم. وإنما يكون جل السرور بالقناعة والرضا، ويكون جل الحزن بالشره والسخط، ولن تجتمع القناعة والسخط، ولا السرور والحزن.

وحكي فيما سره أن أصل الضلال والهلكة لأهله أن لا يعتد ما في العالم من الخير من عطية الله ومواهبه، ولا يعد ما فيه من الشر من عمل الشيطان ومكائده.

وقال: من افترى على أخيه فرية لم يخلص من تبعتها حتى يُجزى بها فكيف يخلص من بلغ من عظم الفرية على الله أن جعله سببًا للشرور، وهو معدن الخير.

إن الجاهل الخاطئ الذي هلكت نفسه وقهره عدوه كلما استكثر من الذي به مِنْ هلاك نفسه وقهر عدوه له ازداد بذلك فرحا، وبحاله اغتباطا، ولنفسه تزكية؛ وإن العالم الصالح الذي صحت نفسه وقهر عدوه ودفع شره ورد كيده لا يستكثر ما يلاقيه بعد قهر عدوه ولا يزداد إلا تواضعا ولعدوه إلا اتقاءً وحذرا.

وقال: كل ما ينطق به الإنسان فهو مجازى به في الدنيا أو في الآخرة صالحًا كان أو طالحًا، خيرًا كان أو شرًا، سرًا كان أو علانية ـ فإن الله لا يخفى عليه شيء.

الإخاء الدائم الذي لا يقطعه شيء اثنان: أحدهما في محبة المرء نفسه في أمر معاده وتهذيبه إياها في العلم الصحيح والعمل الصالح، والآخر مودته لأخيه في دين الحق ـ فإن ذلك مصاحبٌ أخاه في الدنيا بجسده، وفي الآخرة بروحه.

الغضب شيطان الفظاظة، والحرص شيطان الفاقة، وهما منشأ كل سيئة، ومفسدا الجسد، ومهلكا الروح.

وقال: إنما تجري الأمور بمشيئة الله - عز وجل - إذا كان الفيلسوف ملكا، أو كان الملك فيلسوفا.

وقال: ثمرة الشهوة الهلاك، وثمرة الهوى الندامة، وثمرة الفخر المقت، وثمرة الحرص الفاقة.

وقال: أنا أشبه النفس بضارب العود: فإنها في إشاراتها وتدبيرها كالعارف بنقر الأوتار وتقليب الأصابع عليها وقوته على ما يريد إظهاره من اللحون حتى يفهم عنه.

ما حفظ عن ديوجانس[١]

كان ديوجانس حكيما فاضلا، ولكنه إذا جاع أكل الخبز أين وجده، ليلا كان أو نهارا، عند ملك كان أو عند سوقة، لا يحتشم أحدا. وكان يحبه كل أحد، ويتودد إليه جميع الناس، لأنه كان صاحب حق، وكان يصدق عن نفسه، ويقنع باليسير من القوت واللباس.

وكان الإسكندر يقربه ويأنس بكلامه. وقال يوما للإسكندر: أيها الملك، قد أمنت الفقر، فليكن غناك اقتناء الحمد وابتناء المجد.

ويحكى أن أهل آثينية بعثوا إلى الإسكندر في رسالة فقصها عليه، فقال له: قد قضيت حوائجهم وهم يعادونني أبدا، فما الذي يرضيهم عني؟، قال: لا أحسب شيئًا يرضيهم عنك إلا موتك.

وديوجانس هذا صاحب الشيخ اليوناني ومعلمه. والشيخ اليوناني هو صاحب الحكمة التي ظهرت منه في كتبه المعروفة به، وليس هذا موضع ذكرها. فمن أحب أن يطالعها فليقرأها من تلك الكتب فإنها موجودة.

---

(١) ديوجانس اللايرتي (إزدهر في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي) هو كاتب اغريقي، مصنف «سير مشاهير الفلاسفة ومذاهبهم وأقوالهم».

وقد ظهرت نسخة عربية مختصرة من كتابه بعنوان «مختصر تراجم مشاهير قدماء الفلاسفة» نقلها عبد الله بن حسين المصري وطبعت في بولاق سنة ١٢٥٢ هـ. كما ظهرت ترجمة حديثة لإمام عبد الفتاح إمام سنة ١٤٢٦ هـ عن المجلس الأعلى للثقافة.

بطلميوس[١]

وقال رجل لبطلميوس: ما أحسن بالإنسان أن يصبر عما يشتهي! - قال: أحسن منه ألا يشتهي إلا ما ينبغي.

وقال: الحكيم هو الذي إذا صدق صبر، لا الذي إذا قُذِف كَظَم.

(١) كلوديوس بطليموس (أو بَطْلُمْيوس) (باليونانية: Κλαύδιος Πτολεμαῖος) (حوالي ١٠٠م – حوالي ١٧٠) هو رياضي وعالم فلك وجغرافيّ ومنجم وشاعر إبيجراما في الأنثولوجيا الإغريقية. من أهل القرن الثاني للميلاد.

وُلِد نحو سنة ٨٧ م وتوفّي قُرْب الإِسْكَندريّة نحو ١٥٠ م. وهو وصاحِب كتاب المَجَسْطي. يقوم نظامُه الفَلَكيّ على أَساس أنّ الأَرْضَ ثابِتَة، وأَنَّ الأَفْلاك تَدُور حَوْلَها.

المَجَسْطي - وهي لفظة يونانية الأصل ومعناها (الأعظم) - هي أهم آثار بَطْلَيموس، ألفها حوالى العام ١٤٠ م. كانت مرجعاً رئيسياً لعلماء الفلك العرب والأوروبيين حتى مطلع القرن السابع عشر م تقريباً. ترجمت إلى العربية، نقلاً من السريانية، عام ٨٢٧ م، ثم ترجمت إلى اللاتينية، نقلاً عن العربية، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر م. ويقسم كتاب المجسطي إلى ثلاثة عشر جزءاً.

وصية أفلاطون[١] لتميذه أرسطوطاليس[٢]

اعرف ربك وحقه، وأدم عنايتك بالعلم والتعليم. اكثر عنايتك بغذائك يوما بيوم - أي لا تدخره. لا تمتحن الأديب بكثرة العلم، بل بأن يوجد الأديب مُعرى من الشر. لا تسأل الله تعالى ما لا يدوم لك نفعه، فإن المواهب كلها منه، فلذلك يجب أن تسأله النعمة الباقية معك أبدا. كن متيقظا أبدا، فإن علل الشرور كثيرة. ما لا ينبغي أن تفعله فلا تهْوه. إن الله تعالى لا ينتقم من العبد بالسخط عليه، بل لتقويمه. لا ينبغي أن تهوى حياة صالحة فقط، بل وموتًا صالحًا، ولا تعتد الموت والحياة صالحين إلا أن تكتسب بهما البر.

لا تنم حتى تحاسب نفسك على ثلاث: هل أخطأت في يومك؟ وما اكتسبت فيه؟ وما كان ينبغي أن تعمله من البر فقصرت فيه؟ ـ تذكر ما كنت، وأين مصيرك، ولا تؤذ أحدًا فإن أمور عالمنا متغيرة زائلة. الشقي من لم يتذكر دائمًا عاقبته فيرجع عن زلاته. لا تجعل قنيتك من الخارجات عنك. لا تنتظر لتفعل الخير إلى مستحقه أن يسألك، بل ابدأه به. ليس الحكيم التام من فرح بشيء من لذات العالم أو جزع من مصائبه واغتم به.

---

(١) أفلاطون (باللاتينية: Plato) (باليونانية: Πλάτων) (عاش ٤٢٧ ق.م - ٣٤٧ ق.م) هو ارستوكليس بن ارستون، فيلسوف يوناني كلاسيكي، رياضياتي، كاتب لعدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو. وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم.، كان تلميذاً لسقراط، وتأثر بأفكاره كما تأثر بإعدامه الظالم.

ظهر نبوغ أفلاطون وأسلوبه ككاتب واضح في محاوراته السقراطية (نحو ثلاثين محاورة) التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة: نظرية المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزيقا، الأخلاق والسياسة.

(٢) أَرِسْطُو(٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق.م) أو أَرِسْطُوطَالِيس أو أرسطاطاليس وهو فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان. وهو واحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

أدم ذكر الموت والاعتبار بالميت. تعرف خساسة المرء بكثرة كلامه فيما لا ينفعه، وفي إخباره بما لا يسأل عنه ولا يراد منه. من فكر في الشر لغيره فقد قبل الشر في نفسه. لا تسأل شريرا حاجة، فإنه بحسب شريته في نفسه ومذهبه، وكذلك شريته في عطيته. فكّر مرارا ثم تكلم ثم افعل، فإن الأشياء متغيرة. كن محبا للناس، ولا تدْعُ الغضب فيتسلط عليك بالعادة. لا تؤخر إنالة المحتاج إلى غد، فإنك لا تدري ما يعترض دون غد. أعن المبتلى إن لم يكن سوء عمله ابتلاه. لا تحكم قبل السماع من الخصمين. لا تكن حكيما بالقول فقط، بل وبالعمل، فإن الحكمة بالقول ها هنا تبقى، والحكمة بالعمل في العالم الآخر تبقى.

إن تعبت في البر فإن التعب يزول والبر يبقى، وإن التذذت بالإثم فإن اللذة تزول ويبقى الإثم لازما لك. اذكر اليوم الذي يهتف بك فلا تكون لك آلات الحس، فهناك لا تسمع ولا تنطق، ويبطل فكرك؛ واذكر أنك ذاهب إلى المكان الذي لا تعرف فيه صديقا ولا عدوا، فلا تتنقّصْ ها هنا أحدا؛ واعرف المكان الذي يستوي فيه المولى والعبد، فلا تكن ها هنا مختالا. أعدد زادا في كل وقت، فإنك لا تدري متى الرحلة. اعلم أنه ليس في عطاء الله – تقدس اسمه – شيء من الحكمة هو أخير.

الحكيم هو الذي يظهر فكره وقوله وفعله متساوية متشابهة. كافئ بالخير، واصفح عن الشر. تذكر وتحفظ وافهم في كل وقت أمرك واعتقله، ولا تكلّ عن شيء من أمور هذا العالم الجليلة، ولا تتوان في وقت، ولا تضاد شيئا من الخيرات، ولا تقن واحدة من السيئات لأجل القنية الحسية. لا ينبغي أن تترك ما هو أفضل من أجل السرور الزائل وبترك السرور الدائم. أحبب الحكمة وأنصت للحكماء واطرح سلطان الدنيا عنك، ولا تمنعن في وقت من الأوقات من الأدب الحسن. لا تفعلن شيئا في غير وقته، وإذا فعلته فافعله بفهم. لا ينبغي أن تختال عند الغني، ولا تستخذين عند المصائب. لتكن سيرتك مع الصديق سيرة لا تحتاج معها إلى حكم، ومع الأعداء سيرة تفلج بها في الحكم.

لا تسفه على أحد، ولتكن سيرتك مع الناس كلهم بالتواضع، ولا تستحقر أحدًا لتواضعه. ما عذرت نفسك فيه فلم تلم أخاك عليه. لا تفرح بالبطالة، ولا تتكل على البخت، ولا تندم على ما فعلت من خير. لا تُمارِ. الزم العدل في كل أمرك؛ وعليك بالاستقامة ولزوم الخير.

وصية أرسطوطاليس للإسكندر

لما اشتدت علة أبيه فيلفس، وتقرر الأمر للإسكندر ابنه، قال:

ليس الآمر بالخير أسعد من المطيع له، وليس المعلم أقل انتفاعا بالعلم من المتعلم، ولا الناصح أولى بالمديح من المنصوح له ـ متى قيل. وإن أراد الله تعالى ذكره لم يرض لنفسه من الناس إلا بمثل ما رضي لهم به منه، فإنه أمرهم بالترحم ورحمهم، وأمرهم بالتصادق وصدقهم، وأمرهم بالجود وجاد عليهم، وأمرهم بالعفو وعفا عنهم؛ فليس قابلا منهم إلا مثل ما أعطاهم، ولا آذنا لهم في خلاف ما أتى عليهم. فأعط من وليت أمره من رأفتك ورحمتك وعفوك ما ترغب في مثله، موقنا بأنك إن أعطيت ذلك من نفسك أعطيته موفرا. واعلم أنه لا شيء لك إلا ما نلته من جميل الذكر ورضوان الخالق، وأنك إن وثقت به وقاك شر من دونه، وإن وثقت بغيره لم تدفع عن نفسك ولك يدفع عنك دافع.

واعلم أنك غير مستصلح رعيتك وأنت فاسد ولا مرشدهم وأنت غاوٍ، ولا هاديهم وأنت ضال. وكيف يقدر الأعمى على أن يهدي، والفقير على أن يغنى، والذليل على أن يعز، واعلم انه ما استصلح المستصلح غيره إلا بصلاح نفسه، ولا أفسد المفسد سواه إلا بفساد نفسه. فإن رغبت في إصلاح من وليت فابدأ باصلاح نفسك، وإن أردت رفع العيوب عن غيرك فطهر نفسك منها. ولا يزينك رأيك إذا أحسنت القول دون الفعل، فقد أبلغت إلى السامعين منك دون أن يصدق قولك فعلك، وتحقق سريرتك علانيتك.

واعلم أنك مطبوع على أخلاق مختلفة: منها حسنات، ومنها سيئات. فأعدى عدوك سيئات أخلاقك، وأولى الأشياء بك حسنات أخلاقك. قابل بعض أخلاقك ببعض: قابل غضبك بحلمك، وجهلك بعلمك، ونسيانك وغفلتك بفكرتك ونظرتك.

واعلم أنه ليس أحد أصلح للناس من أولي الأمر إذا صلحوا، ولا أفسد لهم منهم إذا فسدوا، وإن الوالي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به، وبموضع الرأس من سائر الأعضاء فإنه لا بقاء لها إلا معه: فالوالي مع فضل منزلته من الحاجة إلى إصلاح الرعية مثل ما بالرعية من الحاجة إلى إصلاح الوالي، وقوة بعضهم زيادة في قوة بعض، ووهن بعضهم سريع في وهن بعض. وبُعد الوالي من القدرة على إصلاح نفسه مع استفساد رعيته كبعد الرأس من البقاء مع هلاك سائر البدن. غير أنه

أجدر بإصلاح الرعية الفاسدة وإفساد الرعية الصالحة من الرعية بإصلاح الوالي الفاسد وإفساد الوالي الصالح، لفضل قوته عليها ووهن قوتها عن قوته. وقد قال أوميرس الشاعر: "إن الأئمة يصلحون المؤتمين بفضل قوتهم، فإما الأئمة فلا يصلحها مؤتم".

وأحذرك الحرص: فأما ما هو مصلحك ومصلح على يدك فالزهد. واعلم أن الزهد يتم باليقين، واليقين يحصل بالفكر. فإذا فكرت في الدنيا لم تجدها أهلا لأن تكرمها بهوان الآخرة، لأن الدنيا دار بلاء ومنزل قُلعة.

وقد قال أوميرس الشاعر: "كل ضد مخالف ضده، ولا خير في شيء يزول ويذهب".

اتهم أخلاقك السيئة، فإنها إذا اتصلت بها حاجاتها من الدنيا كانت كالحطب للنار، وكالماء للسمك؛ وإذا عزلتها عنها وحلت بينها وبين ما تهوى انطفأت كانطفاء النار عند فقدان الحطب، وهلكت كهلاك السمك عند فقدان الماء.

إذا أردت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإن من لم تكن له قناعة فليس المال مغنيه وإن كثر؛ وقد قال أوميرس الشاعر: "لا مال عند من ترك القناعة، ولا خير في المرء إذا لم يكن قنوعا".

واعلم أنه من علامة تنقل الدنيا وكدر عيشها أنه لا يصلح منها جانبٌ إلا بفساد آخر، فلا سبيل بصاحبها إلى عز إلا بتذلل، ولا إلى استغناء إلا بافتقار. واعلم أن الدنيا ربما أصيبت بغير حزم في الرأي ولا فضل في الدين؛ فإن أصبت حاجتك منها وأنت مخطئ، أدبرت عنك وأنت مصيب، فلا يستخفنك ذلك إلى معاودتها ومجانبة الصواب.

لا تضنن على الناس بما ترغب فيه، ولا تأت إليهم بما تكره أن يؤتى إليك. قاتل هواك، اقصر رغبتك، واكفف شهوتك، واحلل الحقد من قلبك، وطهر من الحسد نفسك؛ واقبض إليك أملك، فإن الأمل إذا بسطته أقسى قلبك وشغلك عن معادك؛ وليكن مما تستعين به على إطفاء الغضب علمك بأن الزلل لا يخلو منه أحد، وبه وقع صاحبك، ولعل عدوا لك حمله على ذلك. فإن أطعت هواك في أخيك الذي أتى على يديه الذنب إليك فقد أشمتّ عدوك به وظاهرته على أخيك ومكنته من بغيته، فما أحقك، يا إسكندر، أن تعتاض من طاعتك له هلكة، ومعصيتك له سلامتك، ومر هواك، ولعلك يا اسكندر ترى أن عقوبتك تنكيل به عن الذنب، أو زيادة في الأدب فإن هممت

بذلك فاصدق نفسك، وفتش عن ضميرك وسريرتك دون ظاهرك وعلانيتك. وانظر: أجميل الذكر يزيد ويوفيك، أم شفاء الغضب مر؟ فإن كنت تريد الانتقام للغضب، فإن الغضب مر، والمر لا يجتني ثمره حلوا، وإن كنت تريد بعقوبتك إياه إصلاحه لك ولنفسه وجميل الذكر وأن تنزع عن ذلك الذنب فإنك بالغ بالحرمان والوعيد والجفاء بعض ما يغنيك عن شدة الصولة وعظيم العقوبة.

ولا ينبغي أن تستعمل سيفك فيمن تكتفي منه بالحبس، ولا تسرع بالحبس إلى من تكتفي منه بالجفاء والوعيد، فإنه بحسب اختلاف المدنيين وتفاوت أحوالهم يجب أن تكون العقوبة وإن استوت الذنوب.

واعلم أنك متى نلت مظلمة أو فرطت منك عقوبة، فإن الذي أتيت إلى نفسك من ذلك أشد من الذي أتيت إلى المعاقب إذا لم تكن عاقبته بحق، ولا الصلاح وحده قصدت بها. فتأنّ في أمرك، واجهد ألا يبلى بسيفك وسوطك من كان بريئا ولا يسلم منك من كان لا يصلح إلا عليهما.

احذر الشهوات وليكن ما تستعين به على كفها عنك علمك بأنها مذهلة لعقلك مهجنة لرأيك، شافية لعرضك، شاغلة لك عن عظيم أمرك لأنها لعب، وإذا حضر اللعب غاب الجد، ولا تقوم الدنيا والدين إلا بالجد، فإن نازعتك الشهوات واللذات واللهو، فإنه قد نزعت بك إلى شر منزلة وأدناها وأخسّها وأسقطها، وأرادت منك خلاف السنة، فغالبها أشد المغالبة، وامتنع منها أشد الامتناع، وليكن مرجعه منك إلى الحق، فإنك متى كنت متمكنا من الحق فلست تتركه إلا إلى باطل، ومهما تترك الصواب فإنما تتتركه إلى الخطأ، فلا تداهن هواك في السير فتطمع منك في الكثير. ولا يرحبن ذرعك بمقارفة صغير من الخطأ فإن لكل عمل ضراوة ومتى تعود نفسك القليل تعدل به إلى الكثير. فلا تطلب لك عمرا في غير نفع، ولا تضيع لك مالا في غير واجب، ولا تصرف لك قوة حق في غير رشد. وعليك بالحفظ لما أتيت من ذلك والجد فيه وخاصة في العمر الذي كل شيء مستفاد سواه. فإن كان لا بد لك من اشغال نفسك فلتكن في محادثة العلماء وكتب الفلسفة والحكمة فإنه ليس سرورك بالشهوات ولست بالغا مبلغا إلا وإكبابك على ذلك ونظرك فيه بالغ منك، غير أن ذلك يجمع لك آجل السرور وتمام السعادة، وخلافه تجمع لك الغي وخاتمة العاقبة، وإن أسعد الناس بهواه أدركهم للرشد به.

وإياك والفخر بعملك بالذي كنت منه، ومعرفتك بالذي إليه تصير. ولا سبيل لك إن كنت ذا نظر مع حملك في البطن، وكونك مما كنت منه وتركبك من الأشياء التي شأن كل مركب منها الانحلال، والانتقال من حال إلى حال، والمستوى الذي إليه تصير حتى تكون بعد الوجود مفقودا، وبعد النمو منحلا إلى العتو الفخر إذا كانوا عنك زائلين.

وإياك والكذب، فإن الكذب لا يكون إلا من مهانة النفس وسخافة الرأي وجهالة بعواقب مضرة الكذب على صاحبه.

واعلم أن أقل ما ينزل بالكذاب إذا عُرف به أن يقول فلا يصدق، ثم يصير في البعد من نفسه والانحياز عن قصده بمنزلة من أراد الشرق فتوجه إلى الغرب.

وقد قال هوميروس الشاعر: ليس شيء أدنى منزلة من الكذب ولا خير في المرء إذا كان يكذب.

واعلم أن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار حين يلتقون كسرعة اختلاط الماء بالبخار، وبُعد الفجوة من الائتلاف -وإن طالت معاشرتهم – كبعد البهائم من التعاطف وإن طال اعتلافها.

واعلم أن بصلاح الأعوان والوزراء يكون صلاح المال. فكن بصلاح المال معتمدًا على صلاح الأعوان والوزراء أعنى منك عناية لهم، واكتف بقليل منهم عن كثير ممن... خفيفة المحمل ثقيلة الثمن، والحجارة فادحة بحاملها مع قلة غنائها ونزارة ثمنها.

ثم اجتهد في ابتغاء صالح العمال، فإن العامل من الملك بمنزلة السلاح من المقاتل. فإذا قعد بالوالي عمال الصدق، فقد نزل به ما ينزل بالمقاتل إذا بقي بلا سلاح. وليكن رأس ما تعمل به أن تعلم الناس أن معروفك لا يوصل إليه إلا بمعونتك على الحق؛ وتوطن أهل الباطل ومن يفسد في الأرض أنفسهم منك على العقوبة الفادحة، فإن بذلك تقوم ملكا وتعد حكيما.

وبعد فإني لست آمن عليك الزلل في الأمور بعد الاجتهاد، وليس يثبت العذر إلا بعد الاجتهاد في درك الصواب. فإذا اشتبكتْ بك الأمور وعميت عليك، فليكن مفزعك فيها إلى العلماء، فإن أدنى غايات الفضل الذي يصلح عليه أمر الوالي أن يكون عنده من الرأي ما يعلم به فضل العالم على الجاهل، وفضل خطر المرزية إذا وردت عليه. وقد

قال أفلاطون: من ميز العقلاء استبانت له الأمور مثل ما يستبان من المصابيح في ظلمة الليل.

ولعل رأيك أن يؤديك إلى أن بعض الناس يزدريك لاقتباسك منهم؛ أو يستخف بأمرك عندهم. فإن عرض هذا بقلبك فاطرحه أشد الاطراح، فإن الذي تسعد به من الأمور بالعلم وتفوز به من مخالفة أهل الجهل أفضل لك نفعًا وأعظم خطرًا من أدن يعادله شيء سواه، مع أن الناس فيك رجلان: عالم يزيدك عنده طلب العلم فضلا، وجاهل لا يرغب في موافقته.

واعلم أنه ليس من أحد يخلو من عيب وفضيلة، فلا يمنعنك عيب رجل من الاستعانة به فيما عنده من منفعة وفضيلة. ولا تحملنك فضيلة رجل على الاستعانة فيما لا معونة عنده عليه. واعلم أن وجود أعوان السوء أضر عليك من فقدان أعوان الصدق. واعلم أن العدل ميزان الله في أرضه: به يؤخذ للضعيف من القوى، والممحق من الباطل. فمن أزال ميزان الله - عز وجل - عما وضع له بين عباده جهل أعظم الجهالة، وأعور أشد الإعوار، واغتر بالله أشد الاغترار. واستعن على أمورك بخلتين: إحداهما تألف الأهواء، والأخرى التثبت في الأمور.

وإياك والتأخير لأمورك والتواني عنها أو فيما يجدث منها؛ فإنك إن فعلت ذلك كثرت عليك ثم لا تجد زمانا لمباشرتها أبدا، وتفدحك إن وكلتها إلى غيرك وتضيع.

وإنما الأمور كلها أمران: صغير لا ينبغي أن تباشره، وكبير لا ينبغي أن تكله إلى غيرك. ومتى باشرت صغار الأمور شغلتك عن كبارها؛ وإن وكلت كبارها إلى غيرك أضعت أكثر مما حفظت، وأفسدت أكثر مما أصلحت.

وأسأل الله - الذي اختار العدل لنفسه وأمر بالقيام عليه واستعماله في خلقه - أن يلهمك إياه، وأن يجعلك من أهله والقوام به في عباده وبلاده.

وصية فيثاغورث[١]

المعروفة بـ (الذهبية)

وهي التي يقول جالينوس إنه يقرأها كل يوم غدوة وعشية، قال فيثاغورث:

أول ما أوصيك به - بعد تقوى الله - تبجيل الذين لا يحل بهم الموت: من الله وأوليائه وإكرامهم بما توجبه الشريعة، وتوقي اليمين. ثم أوصيك بامتثال ذلك في خدمة الباصرين في مذاهبهم.

وأوصيك أيضًا بتبجيل عمار الأرض بفعل ما توجبه الشريعة في إكرامهم. وأوصيك بإكرام سلفك وأقربائك.

وأوصيك أن تتخذ من سائر الناس أفضلهم صديقا ليكون صديقا في الفضيلة، وأن تلين له جانبك في الفعال ما أداه ذلك إلى المنفعة، ولا تستفد صديقا لهفوة تكون منه ما أمكنك، على أن الإمكان قريب من الضرورة.

فهذا أول ما ينبغي أن تعمله - ثم ينبغي أن تتعود ضبط نفسك عن هذه الأشياء التي أنا ذاكرها: أولها أمر بطنك وفرجك، والغضب والنوم.

واحذر أن ترتكب قبيحا في وقت من الأوقات: لا على خلوة ولا مع غيرك، وليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من كل أحد.

ثم ينبغي لك أن تلزم نفسك الإنصاف في كلامك وفعالك.

---

(١) فيثاغورس (٥٧٠ - ٤٩٥ ق.م) هو فيلسوف وعالم رياضيات يوناني، مؤسس الحركة الفيثاغورية كما يُعرف بمعادلته الشهيرة (نظرية فيثاغورس). اتتنا معلومات حوله من كتب كتبت قرون بعد وفاته، لذلك لا يوجد معلومات موثقة حول افكاره واعماله. ولد في جزيرة ساموس وسافر إلى بلاد عديدة منها اليونان ومصر وربما الهند. أقام في مستعمرة كرتون اليونانية في إيطاليا حوالي سنة ٥٣٠ ق.م. حيث أنشأ مدرسة لمناقشة موضوعات فلسفية مختلفة من مثل ماذا يحدث للروح عندما يموت الجسد.

واهتم فيثاغورس كثيراً بعدد من المواضيع العلمية والرياضية والموسيقية مثلا، قد بيّن العلاقة بين شد ورخوة السلك والنغمة الموسيقية التي يبعثها عندما يُنقر عليه في فترات منتظمة، وتكون النتيجة سلّما موسيقيا هرمونيا.

ولا تحملن نفسك على ارتكاب أمر من الأمور بلا تمييز، بل اعلم أن الموت حال بجميع الناس لا محالة.

وأما المال فليكن قصدك فيه اكتسابه في حال وإتلافه في حال.

وما قد ينال الناس من الأسباب المودية بالأسباب السمائية فاصبر على ما ينوبك منها من غير أن تتذمر، بل تروم مداراتها بقدر طاقتك.

وينبغي لك أن تعلم أن ما ينوب الأخيار من الناس من هذه الأشياء ليس بالكثير.

وإذا سمعت من كلام الناس الكثير: جيده وردئيه، فلا تمتعضن منه، ولا تحملن نفسك على الامتناع من استماعه وإن سمعت كذبًا فهوّن على نفسك الصبر عليه.

وما أنا قائله فأجْرِ أمرك عليه في كل ما تستعمله: لا يحملنك أحد بكلام ولا بفعل على أن تفعل ما ليس بجميل، ولا أن تتفوه به. وروّ قبل الفعل كيما لا تعاب في فعلك.

واحذر أن تقول أو تفعل ما يستجهل منك، بل إنما ينبغي أن تقتصر فيما تفعله على ما لم يعد بالضرر عليك. ولا تفعلن فعلا وأنت جاهل به، بل تعرف في كل حال وفي كل واحد من الأفعال ما يجب أن تفعله، فإنك حينئذ تسر بمعاشك.

ولا ينبغي أن تهمل أمر صحة بدنك، لكن تعنى بأمر الطعام والشراب والقصد فيهما وبأصناف الرياضة. وإنما أعني بالقصد: ما لا يضر. وعود نفسك أن يكون تدبيرك تدبيرًا نقيًا غير مضطرب.

واحذر أن تفعل ما يجلب عليك الحسد.

ولا تكن متلافًا بمنزلة من لا خيرة له بما في يديه؛ ولا تكن أيضًا شحيحًا فتخرج عن الحرية، بل الأفضل في الأمور كلها هو القصد فيها.

وليكن ما تفعله ما لا يعود بالضرر عليك: فاستعمل الفكر قبل العمل. ولا تساعد عينك على النوم قبل أن تتصفح كل واحد من الأفعال التي فعلتها في نهارك أجمع، فتجمع قبل نومك في المواضع التي تجاوزت فيها ما ينبغي إن كنت فعلت ذلك، وعلى ما فعلته، وعلى ما كان يجب أن تفعله فلم تفعله. وابدأ في ذلك من أول ما فعلته واجْرِ في تفقدك كذلك إلى آخر ما فعلته.

فمتى كنت قد أتيت مكروها فليذعرنك، ومتى كنت أتيت رضيا فليهجنك. فعلى هذا فليكن حرصك وفيها دؤوبك، وإليها فاصرف همتك فإنها توطئ لك ما يرقيك إلى الفضيلة الإلهية.

إي والذي وهب لأنفسنا الينبوع ذا الأربع من الطبيعة التي لا تفتر، متى التمست فعلا من الأفعال فابدأ بالابتهال إلى ربك بالنجح فيه؛ فإنك إذا لزمت ذلك ولم تخالف هذه الوصايا، وقفت على كنه ما يجري عليه الأمر في تدبير الله عز اسمه وأوليائه، وفينا معشر الناس: مأمنه زائل في الواحد بعد الواحد، وما منه ثابت؛ وعلمت ما قدر من مجرى الطبيعة في كل شيء على مثال واحد كيما لا ترجو ما لا يرجى؛ وعلمت أن الناس بشقاء جدهم الذي اختاروه لأنفسهم بإرادتهم في حد من يرثى لهم إذ كانوا مشرفين على الخيرات وهو لا يقفون عليها ولا يتفقدون أنفسهم فيما بلوا به، فإن الشاذ من الناس يتهيأ له ايتنقاذ نفسه من الشرور، وإن ما بلوا به من ذلك هو الذي يقدح في قلوبهم وأذهانهم، فهم يتقلبون في الشر بمنزلة ماء تدحرجَ في الأوقات المختلفة إلى آفات مختلفا وإلى أحوال مختلفة، فيقعون في شرور لا إحصاء لها، وذلك أن الأمر اللازم للغريزة بخبثه ينكأ وهو لا يشعر. وقد ينبغي ألا يساعد، بل يهرب منه بإظهار الاستخذاء له.

أيها الأب الواهب للحياة! حقا أقول إنك بقادر على أن تدفع عنهم بلايا كثيرة إن أظهرت لهم السكينة التي جعلتها فيهم. لكنك أنت، أيها الإنسان، ينبغي أن تتشجع، إذ كان في الإنسان جنس إلهي؛ والطبيعة الإلهية تقوده إلى الوقوف على كل واحد من الأشياء التي إن نلت منها حظا من الحظوظ ولزمت ما أشير به عليك وشفيت نفسك من هذه الأوصاب والأضغاث نجوت سالما، لكن اشبع من الأطعمة التي ذكرناها، واجعل امتحانك لها تزكية النفس وتخلية أسرها من جسدها، وخبر الناس بما تقف عليه في واحد من ذلك، واجعل القيم المشرف على ذلك التمييز الصحيح، فإنك عند إذا فارقت هذا البدن حتى تصير مخلى، تكون عند ذلك سائحا غير عائد إلى الأنوسة ولا قابل للموت.

تمت وصايا الحكيم فيثاغورث

التي ذكر جالينوس أنه يقرأها في طرفي كل نهار.

ذكر قابس الأفلاطوني

أمر لوح وجده موضوعاً في هيكل كان منسوباً إلى زحل فيه لغز يدل على الهدى

قال قابس:

١ـ بينا نحن نمشي في هيكل زحل ونتأمل ما فيه من أصناف الهدى، إذ بصرنا في مقدم الهيكل بلوح موضوع، فيه رسم صورة ملغورة لغزا خفيا لم تصل أفهامنا إلى المذهب فيها: ما هو، لأنا لم نحسبها تدل على أنها صورة مدينة، ولا صورة هيكل، ولا صورة عسكر. وهذه صورة مدينة، ولا صورة هيكل، ولا صورة عسكر. وهذه صفتها:

كان رُسِم في اللوح حظيرة، في داخلها حظيرتان أخريان إحداهما أكبر من الأخرى، ورأينا الحظيرة الكبرى لها باب كات عليه جمع كثير من الرجال، ومن داخل تلك الحظيرة جمع كثير من النساء. وعلى هذا الباب رجل شيخ واقف كأنه يومئ إلى جمع الرجال بشيء لا يدري ما هو.

٢ ـ فمكثنا حينا من الدهر متحيرين، يسأل بعضنا بعضًا عما يخطر بباله وما يسنح له من ذلك المثال. فلما سمع ذلك بعض ذوي الفهم ممن كانت له عناية بالمسترشدين أقبل علينا، فقال:

لا يغلظن عليكم، معشر الغرباء، ما تداخلكم من الحيرة في أمر هذه الصورة؛ فإن كثيرًا من أهل هذا البلد لا يعرفون ما يدل عليه هذا اللغز، وذلك أن هذا الهدى ليس أهل هذا البلد قربوه، بل رجل طرقنا منذ زمن طويل من أرضنا غربة من بلاد لاقاذامونيا كان مبرزا في الحكمة، فأهدى هذه الصورة قربانًا لزحل.

قال قابس: فقلت له: هل رأيت هذا الرجل الذي ذكرته؟

قال إيرقليس: أي لعمري لقد رأيته ولزمته وشاهدت منه رجلًا عظيم الشأن، وسمعته يذكر أشياء جليلة، وكثر عجبي منه لحداثة سنه. فمنه سمعت ما يدل عليه هذا اللغز.

٣ ـ قال قابس: فقلت له: سألتك بالله، معطي الحياة، إن لم يكن لك شغل يقطعك فاقصص علينا ما سمعت منه في تفسير هذا اللغز، فإن أنفسنا شديدة التطلع إليه.

قال إيرقليس: ما أبخل بذلك، أيها الغرباء غير أنه ينبغي أولا أن تسعوا مني ما في تفسير هذا اللغز من ركوب الخطر.

قال قابس: كأنك تقول ماذا؟

قال إيرقليس: إذا سمعتم ما أقوله، فإن أنتم فهمتموه ووعيتموه كنتم عقلاء سعداء، وإلا صرتم جهلة أشقياء لا علم لكم بتصرف المعاش. فإن تفسير هذا اللغز يجري مجرى لغز سفينيكس التي كانت تلقيه على الناس، فمن فطن له نجا، ومن لم يفطن له قتلته. فعلى هذا النحو يجري الأمر في هذا التفسير. وذاك أن سفينيكس كانت تلقي على الناس لغزًا غير مفهوم وهو هذا: ما الخير وما الشر؟ وما الذي هو لا خير ولا شر؟

وتقول: هذا من لم يعرفه أتلفه جهله به عن قرب ولا استراح من التلف، إلا ان تلفه يكون شيئا بعد شيء في مدة عمره كما يصيب الذين يتلفون بالعذاب. ومن عرف ذلك تلف جهله ونجا هو فصار سعيدًا مغبوطًا عمره كله.

وأنتم الآن: فتفهموا قولي، لا يفتكم الإنصاتُ له.

٤ - قال قابس: فقلت له: يا إيرقليس، لقد ألقيت في أنفسنا توقًا شديدًا إلى سماع ما تقول، إن كان الأمر على ما وصفت.

قال إيرقليس: فاعلموا أن الأمر فيه على ما وصفت.

قال قابس: فخذ الآن في شأنك ولا تبخل علينا، واقصص علينا القصة على وجهها إذ كان ذلك مرادنا وبغيتنا.

قال: فأخذ بيده قضيبا وأشار به إلى الصورة وقال لنا: أترون هذه الحظيرة؟

فقلنا له: هو ذا نراها.

قال إيرقليس: هذه الحظيرة تدل على مقام الناس في الدنيا مدة أعمارهم. وهذه الأمم الذين ترونهم وقوفًا على بابها هم الناس الذي يصيرون إلى هذه الدنيا فيعيشون فيها متصرفين عمرهم كله. وهذا الشيخ الذي ترونه واقفا وبيده قرطاسا وبيده الأخرى قلم كأنه يكتب هو الملك الذي يعلم من يرد هذا العالم ما يجب أن يعمل به في تصرفه فيه، ويريه الطريق الذي إن سلكه سلم فيه.

٥ - قال قابس: فقلت له: فأي طريق يأمره أن يسلك؟ وكيف يعمل؟

قال إيرقليس: هو ذا ترى عند الباب كرسيًا منصوبًا بحيث يدخل الناس، وعليه امرأة جالسة متزينة بأصناف الزينة، عليها قبول.

قال قابس: نعم هو ذا نرى. ولكن من هذه؟

قال إيرقليس: هذه يقال لها الغفلة، وهي التي تغري الناس كثيرا، فهر تشرب الناس الذين يدخلون الدنيا من غفلتها وقوتها وتسقيهم منها.

قال قابس: فقلت له: وما هذا الشراب؟

قال إيرقليس: هذا شراب الغفلة والسهو وغروب العلم؛ فقال قابس: ثم ماذا؟ فأجاب: فإذا شربوا منه دخلوا الحياة.

قال قابس: أفكل يتشرب الغفلة، أم ليس كلهم؟

٦ ـ ومن شرب منه أيضًا هل يشرب بعضهم أقل، وبعضهم أكثر؟

قال: أو ليس ترى من داخل الباب نساءً صورهن مختلفة متفننة؟

قال قابس: أحسبني قد رأيتهن.

قال إيرقليس: هؤلاء النساء هن المفاخرات واللذات والشهوات. فإذا دخل الناس إلى داخل وثبن وتعلقن بواحد منهم وسقن بعضا إلى ما يسلم به، وبعضا إلى ما يعطب به للغفلة.

قال قابس: فقلت: يا هذا، ما أصعب ما تصف به أمر هذا الشراب.

قال إيرقليس: إلا أنهن كلهن يوهمن من تعلقن به أنهن إنما يقدنه إلى الفضيلة وطيب العيش وسعته ونفعه، والناس، لما عراهم من السهو وغروب الفهم لشربهم كأس الغفلة، لا يقدرون أن يميزوا الطريق الصواب الذي يجب أن يسلكوه في معاشهم وتصرفهم في الدنيا، لكنهم يمرون على وجوهم كما ترى إلى حيث مر من تقدمهم فدخل وهو غِرٌ غافل.

٧ – قال قابس: هو ذا أرى، ولكن، ما معنى تلك المرأة التي توهم أنها عمياء معتوهة وهي واقفة على حجر مدور؟

قال إيرقليس: هذه هي البخت. وليست فقط عمياء، بل صماء أيضا.

قال قابس: هذه، أي شيء تعمل؟

قال إيرقليس: هذه تطوف في كل مكان، فتأخذ من هذا وتعطي هذا، ثم لا تلبث أن تعطف على من أعطته فتأخذ ما حبته به وتعطيه آخر، إلا أنها تفعل ما تفعله من ذلك عن غير سبب ما يوجبه، ومن غير أن يوثق منها بما تأتيه. فهي تفرح هذا بما تمنحه، وتغم هذا بما تسلبه؛ ولذلك صارت هي تبين عن نفسها مذهبها الذي تجري عليه.

قال قابس: قلت: أهي الواقفة على الحجر المدور؟

قال إيرقليس: نعم.

قال قابس: فقلت له: ليت شعري على ماذا يدل من أمرها؟

قال إيرقليس: يدل ذلك على أن ما تسمح به غير موثوق ببقائه، ولا معوّل على ثباته. وذلك أن المرء إذا اعتمد على أنه قد حصل منها شيئا يعمل عليه خاست به أوثق ما يكون بها وأوقعته في حسرة شديدة.

٨ - قال قابس: فقلت: هذا الجمع الكثير الذي حولها، ما يلتمسون منها؟ وبأي شيء يُعرَفون؟

قال إيرقليس: يعرفون بالهمج الذي لا روية لهم؛ والذي يلتمسونه هو الفوائد والصلات والهبات.

قال قابس: فقلت: فما بالنا لا نرى صورهم واحدة، بل نرى بعضهم كأنهم مسرورون ضاحكون، وبعضهم كأنهم مكروبون باسطو أيديهم؟

قال إيرقليس: أما الذين ترونهم كأنهم فرحون مسرورون فهم الذي قد حبتهم بشيء، وهؤلاء يسمون أيضا سعداء البخت. والذي يبكون هم الذين قد سلبتهم ما كانت أعطتهم، ويسمى هؤلاء أشقياء البخت.

قال قابس: فما هذا الذي تمنح هؤلاء فيسرون، والذي تسلبه هؤلاء فيبكون عليه؟

قال إيرقليس: هؤلاء يظنون أن الذي تعطيهم هو الخيرات، وهم جمهور الناس.

قال قابس: وما ذلك؟

قال إيرقليس: اليسار والجاه والعافية والولد والسلطان وسائر ما يجري هذا المجرى وما أشبهه.

قال قابس: فقلت: أوليس هذه خيرات؟

قال إيرقليس: هذا شيء ينبغي أن يؤخر الكلام فيه في هذا الوقت ولنعد بكلامنا إلى ما كنا فيه من تفسير اللغز.

قال قابس: صواب.

٩ - قال إيرقليس: أفما ترون - إذا تجاوزتم هذه - أن فوقها حظيرة أخرى، خارجها نساء وقوف متزينات كأنهن زوانٍ؟

قال قابس: بلى!

قال: هؤلاء هن الشره والشبق والملق والبذخ وما يجري هذا المجرى.

قال قابس: فما بوقوفهن هناك؟

قال إيرقليس: ينتظرن ما يكون من البخت. فإذا أعطى إنسانا شيئا وتخلص من أعطاه بما أعطاه تضرعن له وخدعنه ثم لطفن له في المقام قبلهن، وأوهمنه أن العيش عندهن عيشة لذيذة رضية يقل الهم فيها والشقاء. فمن أطاعهن دخل في اللذات وأقام عندهن فهو إلى مدة من الزمان ما دام يغرونه، يظهر له أن تلك السيرة رضية. ثم بأخرة إذا تأمل أمره فشعر بما لم يكن يشعر له فيما مضى ولا هذه تغيرت الصورة عنده بعد أن أتلف ما كان استفاد من البخت، فيضله الأمر إلى خدمتهن ويصبر على كل بلاء ويجهد نفسه ويشقيها بكل قبيح حصل عليه وعلى ما يضره.

قال قابس: كأنك تقول ماذا؟

قال إيرقليس: مثل النهب والسرق وسلب الحُرَم واليمين الكاذبة والسعاية والنميمة وما أشبه ذلك وجرى مجراه.

قال قابس: فكيف يكون حال هؤلاء إذا افتقروا؟

قال إيرقليس: يسلمنهم للعذاب.

١٠ - قال قابس: فأرني التي تعذبهم أيما هي؟

قال إيرقليس: أما ترى بويبا صغيرا في موضع رصين لا يظلم؟

قال قابس: فقلت: هو ذا أراه.

قال إيرقليس: وترى هناك نساءً قباحًا أوساخًا عليهن كُداد؟

قال قابس: فقلت: هو ذا أرى؟

قال إيرقليس: فتلك المرأة المنهن وهي التي في يدها السوط، تدل على العقوبة وعلى سوط العذاب. والتي قد دلت رأسها بين ركبتيها تدل على الغم والحسرة. والتي هي دائبة تنتف شعرها تدل على الألم والحسرة وشدة الوجع.

فقال قابس: فالمرأتان الوقفتان بالقرب من هؤلاء المنتنتان المتسلبتان الفقيرتان، على ماذا تدلان؟

قال إيرقليس: إحداهما تدل على الحزن والويل والعويل، والأخرى المؤاخية لها تدل على الحزن الطويل. فإن العقوبة والعذاب يؤديانهم إلى ذلك، فيكون عيشهم كله في ضنك وعذاب. ثم يقعون إلى البيت الآخر الذي يعرف بشقاء البخت، فيكونون سائر عمرهم في الشقاء، إلا أن يلحق الإنسان الندم فيتنبه على أمره ويفيق من جهله، ويتلافى ما فرط منه.

١١ - قال قابس: قلت له: فإذا كان ذلك، فأي شيء يكون حاله؟ قال إيرقليس: يشرف هو حينئذ على أمر نفسه ويلتمس لها الثناء الجميل ويشتاق إلى الأدب الصحيح، فينفي بذلك نفسه ويلتمس لها النجاة، ويخلصها مما اعتورها وغلب عليها؛ ويصير بذلك حرًا سعيد مغبوطًا لا خوف عليه فيما يأتي من عمره إلا أن يعود في الغفلة فيقع في الأسر.

١٢ - قال قابس: يا صاح، ما أعظم هذا الخطر الذي ابتلي به الناس! لكنك ذكرت في كلامك الأدب الصحيح. فإذا كان ها هنا أدب زور، فعرفنا ما هو؟

قال إيرقليس: أما ترى تلك الحظيرة الأخرى؟ - قال قابس: إني لأراها حقا- قال إيرقليس: أو ترى المرأة الواقفة عليها سيماء الجازلة والهيئة الجميلة؟

قال قابس: هو ذا أرى، وهي كذاك.

قال إيرقليس: هذه عند الجمهور يقال لها الأدب، وليست أدبًا حقًا، بل أدبًا زورًا، فالناس إذا أرادوا الأدب حقا غلطوا فوقعوا أولًا في هذا.

قال قابس: أتدري ما تقول؟ أوليس لهم طريق آخر يؤديهم إلى الأدب الصحيح؟

قال إيرقليس: لا؛ ما لهم طريق غيره.

١٣ - قال قابس: فهؤلاء الرجال الذين هم داخل الحظيرة وقد نكسوا رؤسهم، على ماذا يدلون؟

قال إيرقليس: هؤلاء هم المحبون لهذا الأدب؛ قد غلطوا فظنوا أنهم مخالطون للأدب الصحيح- قال قابس: فبماذا يعرف هؤلاء؟

قال إيرقليس: هؤلاء بعضهم يعرفون بالشعراء، وبعضهم بالجدليين، وبعضهم يسمون الخطباء، وبعضهم يسمون أصحاب تأليف الغناء، وبعض يسمى المشائين، وبعض يسمى الملهين واللعابين ضروب اللعب وسائر من أشبه هؤلاء.

١٤ - قال قابس: فالنساء المتشاكلات التي كأنهن يعاين التي قلت إن الشره تقدمهن وسائر من معها من النساء، على ماذا يدللن؟ هل يأتين هذا الموضع؟ قال إيرقليس: إي والله، إلى ها هنا مصيرهن. إلا أن ذلك إنما يقع في الفرط، لا كما يكون في الحظيرة الأخرى.

قال قابس: فأي شيء مذهب هؤلاء؟

قال إيرقليس: قد حصل لهؤلاء أيضا ذلك الشراب الذي تناولوه من الغفل.

قال قابس: فقد حصل هؤلاء إذن على الجهل؟

قال إيرقليس: نعم والله معطي الحياة إنهم لكذلك ولا ينفكون من ذلك ولا من سائر الشرور دون أن يصيروا إلى الأدب الصحيح ويتشربوا تلك القوة المنقية من ذلك. فإذا تنقّوا وتحسر عنهم الجهل وما هم من الغي والطغيان وسائر ما عراهم من الشر حينئذ تخلصوا سالمين. فإن المتشاغل بهذا الأدب المزور الشرور كلها مصورة لهم بالعلوم التي تجري مجرى الغلط.

١٥ - قال قابس: فأي طريق تؤديه إلى الأدب الصحيح؟

قال له إيرقليس: هو ذا أصف لك. أما ترى فوق موضعا ليس فيه أحد، بل كأنه بَرٌ قفر؟

قال قابس: فقلت له: هو ذا أراه.

قال إيرقليس: وترى بابًا ضيقًا وطريقًا يؤدي إليه بالجادة، ومن يسلكه نفر يسير، وكأنه نشز خشن وعر؟

قال قابس: هو ذا أراه لعمري.

قال: وترى وراءه تلا شاهقا، والمرتقي إليه ضيق حاد، وجرف وراءه عميق عن جانبيه؟

قال قابس: نعم لعمري.

قال إيرقليس: فهذا هو الطريق المؤدي إلى الأدب الصحيح؟ وقد يصعب سلوكه. وكذلك ترى فوق ذلك التل صخرة عظيمة مرتفعة، تبين كأنها مستديرة مسندة إلى شيء.

قال قابس: فقلت له: هو ذا أراها.

١٦ - قال إيرقليس: وترى امرأتين واقفتين على الصخرة كانهما أختان متواجهتان باسطتان أيديهما؟

قال قابس: إني لأراهما، فعلى ماذا يدلان؟

قال إيرقليس: يدلان على الصبر والاحتمال.

قال قابس: فعلى ماذا يدل بسط أيدهما.

قال إيرقليس: تومئان بذلك إلى تقوية قلوب من يقصدهما، وكأنهما تشيران إليه بأن يصبر ولا يدخله رعب، فإنه عما قليل يصل إلى الطريق، وهو تشيران إليه بأن يصبر ولا يدخله رعب، فإنه عما قليل يصل إلى الطريق، وهو جدد سهل.

قال قابس: فإذا وصلوا إلى تلك الصخرة، فكيف يصعدون إليها؟ فإني لست أرى طريقا للصعود.

قال إيرقليس: يسبقن فينزلن ويتعلقن بمن ثوى في الموضع ويصدعنه، وبعد ذلك يمنحنه قوة ويشجعنه على الوصول إلى الأدب الصحيح، ويرشدنه على الطريق السهل الجدد الذي يؤدي كما ترى.

قال قابس: لعمري إنه لسهل مسلوك.

١٧ - قال إيرقليس: وهو ذا ترى أمام ذلك المرج موضعا يشبه أن يكون حسنا شبه الميناء، وحظيرة أخرى لها باب آخر.

قال قابس: هو ذا أرى؛ فعلى ماذا يدل؟

قال إيرقليس: ذلك الموضع يقال له مسكن السعداء، وفيه مسكن كل سعيد، وهو محلهم، والسعادة فيه مستقرها.

قال قابس: إن ذلك – أى: هو كذا - فما أحسن الموضع الذي وضعته!

١٨ - قال إيرقليس: أو ما ترى عند المدخل امرأة جميلة معتدلة القامة واقفة على حجر مربع متوينة بلباس ليس بالكبير، ومعها امرأتان أخريان كأنهما بنتاها يشبهانها.

قال قابس: إني لأرى ما قلت لعمري!

قال إيرقليس: أما الوسطى منهن تعرف بالأدب، وأما الأخرى فتعرف بالقبول والتصديق بالحق. وأما الواقفة على الحجر المربع فهي التي تعطي من قبلها ما يوثق به ويعتمد عليه ولا يشد عنها ما تفيده إياه ولا يتغير طول عمره وتكسبه الشجاعة والعفاف والفهم.

١٩ - قال قابس: فقلت له: ما أعظم هذا الحباء! لكن لم وقفت هذا الموقف؟

قال إيرقليس: لتتقبل من يصل إليها وتسقيه من الدواء الذي فيه قوة منقية، حتى إذا نُقي رفعته حينئذ فأوصلته إلى محل الفضيلة.

قال قابس: أبِنْ لي ما قلت، فإني لم أفهمه.

قال إيرقليس: إن صرفت عنك محبة الصلف والتكبر فهمت.

ألا تعلم أن المريض إذا قصد الطبيب، فبعد وصول عالجه؛ فإذا نُقي نقاءً جيدًا من علته وخرج من مرضه الذي كان به حينئذ يفارقه الطبيب ويخليه صحيحًا سليمًا؛ وإن لم يطمع الطبيب فيما يأمره به تواني في علاجه فأداه ذلك إلى التلف؟

قال قابس: فقلت له: أما هذا فإني أعلمه.

قال إيرقليس: فالذي ينقي منه هو الجهل والسهو الذي اعتراه من الغفلة ومحبة الكبر والتكبر بالباطل والشهوات واللذات الموبقة والسرف وحب المال وسائر ما كان فيه بالأمس في الحظيرة الأولى.

٢٠ - قال قابس: نعم، فإذا نقي، إلى أين ينفذه؟

قال إيرقليس: يدخله إلى داخل حتى يوصله إلى المعرفة نفسها وإلى الفهم وسائر الفضائل.

قال قابس: وما هذه؟

قال إيرقليس: أما ترى داخل الباب جماعة من النساء في غاية الجمال وحسن النظام وهيأتهن وبزتن ساذجة لا تشبه بزة ذوات التنعم وكأنهن باشات مستبشرات لا يشبهن شيئا مما في غيرهن من الزينة الدّغِلة؟

قال قابس: أحسبني، ولكن ما صنيع هؤلاء؟

قال إيرقليس: أما التي تقدمهن فإنها تدعى معرفة العقل؛ وأما الباقيات المؤاخيات لهذه فواحدة يقال لها النجدة، وواحدة يقال لها العدل، وواحدة يقال لها الكرم، وواحدة يقال لها الطهارة وحسن الخلق، وواحدة يقال لها التواضع وواحدة يقال لها السخاء، وواحدة يقال لها الهدى.

قال قابس: ما أعظم رجاءنا بك أيها الفاضل.

قال إيرقليس: إن أنتم عرفتم جميع ما سمعتوه مني واجتهدت في تحصيله.

قال قابس: فقلت له: إني أرجو أن نحصل ذلك أجمع.

قال إيرقليس: إذا يكون لكم بذلك السلامة والنجاة.

٢١ - ثم قال: وأولئك إذا أخذته أدينه إلى أمهن.

قال قابس: فقلت: ومن أمهن؟

قال إيرقليس: أمهن السعادة.

فقلت له: وما هذه؟

فقال: أما ترون إلى ذلك الطريق الذي يوصل إلى ذلك النشز؟

قال قابس: فقلت له: هو ذا أراه.

قال إيرقليس: هناك قلة مدينة تلك الحظيرة. وقال: أو ما ترى أمام الباب امرأة بهيئة جميلة جالسة على كرسي مرتفع متوجه بتاج يلمع فاخر، عليها بهاء وبهجة وأبهة؟

قال قابس: فقلت له: بلى، إني لأراها؛ فمن هي؟

قال إيرقليس: هذه هي السعادة.

٢٢ - قال قابس: فإذا وصل الواصل إلى هذه المنزلة، فأي شيء تعمل به؟

قال إيرقليس: إن السعادة تتوجه بقوته وبتاج سائر الفضائل كلها، كما يتوج من غلب في الجهاد بتاج الظفر.

قال قابس: وفي أي جهاد غلب؟

قال إيرقليس: في أعظم جهاد، وذلك مقاومته وغلبته تلك الحيوانات العظيمة السبعية التي كانت من قبل تقهره وتعذبه وتسعبده حتى صار الآن يستذلها ويستخدمها كما كانت هي تفعل به فيما تقدم.

٢٣ - قال قابس: إني أحب أن أعرف هذه الحيوانات الخبيثة التي تصف؛ أي حيوان هي؟

قال إيرقليس: أولها الجهل والغفلة والسهو. أفلا تعلم أن هذه سباع ضارية؟

قال قابس: فقلت: إي لعمري إنها لشر وعرّ.

قال إيرقليس: ثم من بعد هذه الحزن والعشق وحب المال والسرف وسائر أصناف الشر كلها؛ ـ فيستولى عليها ولا تقهره كما كانت من قبل.

قال قابس: ما أحسن هذا الصنيع! وما أجل هذا الظفر! لكني أسألك مع ذلك أن تخبرني: ما قوة التاج الذي ذكرت أن السعادة تتوج به فيصير متوجا سعيدا مغبوطا حسن الجد، قد حاز الفضائل كلها واستمل عليها؟

٢٤ - قال قابس: وإذا توج، ماذا يصنع؟ وإلى أين يكون مصيره؟

قال إيرقليس: إن هذه الفضائل التي اجتمعت له يقدنه إلى أن يصير إلى ذلك الموضع الذي جاء منه إلى ها هنا، ويرينه حال من يتصرف هناك، وما هو فيه من الشقاء ونكد الحياة وضنك المعيشة في هذا العالم. وما يبتلون به من الأعداء الذين يحاربونهم ويغزونهم فينقادون لهم. فبعض ينقاد للشره والبذخ، وبعض لجمع المال؛ وبعض ينقاد لأقرب باطل، وبعض لمحبة التكثر بالباطل؛ وبعض ينقاد لغير ذلك من آلام النفس الكثيرة الفنون، فلا يمكنهم بهذا السبب أن يفكوا أنفسهم من الارتباط بهذه الأمور حتى يتخلصوا ويسلموا منها فيصيروا إلى السعادة، بل يمكثون عمرهم كله في التياث وتخليط ما عاشوا؛ وإنما يلحقهم ذلك لأنهم لا يهتدون إلى الطريق الذي يؤديهم إلى السعادة كما ينبغي.

٢٥ - قال قابس: نعم، فمن أي جهة قلت إن هذا السعيد الذي أحمدت أمره تقوده الفضائل إلى الموضع القديم الذي جاء منه كأنه لم يعرف الموضع جيدا؟

قال إيرقليس: ما بئس ما قلت لكم إنه لم يكن يعرف شيئا مما هناك معرفة صحيحة! وإنما كان يظنها ظنًا فكان يظن بما ليس بخير أنه خير، وما ليس بشر أنه شر؛ ولذلك كانت حاله حالًا رديئة كحال من لا يبصر ما هناك. فلما حصلت له المعرفة واليقين والعقل واستضاء بذلك فهمه زال عماه فصار إذا رأى ما ها هنا تبين له شقاؤهم.

٢٦ - قال قابس: فقلت له: فماذا يصنع إذا شاهد هذه الأمور كلها؟ قال إيرقليس: يتصرف كيف شاء، ويذهب حيث شاء. وذلك أن الثقة والأمن يطيفان به وهو محروس من جميع جوانبه، بمنزلة الحلزون الذي يطيف به الصدف الذي يجنه. وحيثما أحب أن يعيش فإن عيشه يكون أجمل عيش، وكل من عاشره يقبله ويتمسك به ويرتاح له كما يرتاح المريض إلى الطبيب.

قال قابس: فأولئك النساء اللواتي وصفتهن لا يخاف أيضا أن يناله منهن ما يكره؟

قال إيرقليس: ما عسى أن يخاف منهن وقد غلبهن جميعا فصار بحيث لا بغلب عليه أصلا فيؤذيه لا الغم ولا الظن ولا خوف الفقر ولا حب الثروة ولا شيء أصلا من سائر الشرور، لأنه قد صار سيدًا مستعليا عليها كلها، كما أن الحوائين يمسكون بأيديهم الأفاعي فلا تضرهم، لما معهم مما يقاوم سمها ويضاد فعله.

٢٧ - قال قابس: فقلت له: ما أخلق ما تقول وأشبهه عندي. ولكن أعلمني من هؤلاء الذي تراهم كأنهم ينحدرون من ذلك التل وبعضهم متوج ويتبين كأنهم مسرورون، وبعضهم غير متوج وكأنهم مهمومون مضطربون، حتى إن رءوسهم تلحق أرجلهم فتلقاهم وكأنهم مكتئبون بسبب من الأسباب وقد اعتراهم منه غم.

قال إيرقليس: أما المتوجون فهم الذين قد وصلوا إلى الأدب، فهم بهذا السبب مسرورون فرحون مغتبطون بما أفادوه من الانتفاع به لا يلحقهم غم ولا قنوط، وأمورهم جارية في تدبيرهم على السداد. وأما غير المتوجين فلأنهم لم يعرفوا الأدب فرءوسهم منكسة وحالهم سيئة؛ وهم في شقاء لأنهم جبنوا فلم يرتقوا إلى الأدب وظلف النفس، ولذلك صاروا تائهين بلا عقل.

قال قابس: فهؤلاء النساء اللواتي معهم، من هن؟

قال إيرقليس: الغموم والهموم والآلام وضيق الصدر والظنون والجهل.

٢٨ - قال قابس: أتقول إن هذه الشرور كلها تلحق هؤلاء؟

قال إيرقليس: إي والله إنها لتلحقهم فإذا وصلوا إلى الحظيرة الأولى التي لها البذخ والإباحة أخذوا في ذم الأدب وأهله وذكر مساوئهم لأنهم يزعمون أنهم أشقياء مذبوبون، فهم يقارفون مثل هذا العيش الرغد الذي نحن فيه، ويعيشون عيش سوء، طلبا للخيرات وهم لا ينالونها.

قال قابس: وماذا يعنون بالخيرات؟

قال إيرقليس: مثل ابذخ وإباحة النفس الشهوات: فإن هاتين مقدمتان على الباقية، وأكثر الناس يسميها خيرات.

٢٩ - قال قابس: فالنساء الأخر اللواتي يأتين من هناك كأنهن مستبشرات ضاحكات، من هن؟ وبماذا يعرفن؟

قال إيرقليس: هن الظنون المؤدية إلى الأدب، وقد طأطأن رءوسهن استدعاء لمن يأتيهن وهن مستبشرات، لأن من أتين بهم قد حصلت لهم السعادة.

قال قابس: فقلت له: أفهؤلاء النساء لا يدخلن حتى يصلن إلى الفضائل أنفسها؟

قال إيرقليس: استغفر ربك، فإنه لا يجوز أن يكون الظن والحسبان يصل إلى معرفة اليقين، لكن هن بموضعهن: فكلما أتين بقوم عدن فطأطأن رؤوسهن ليختلبن غيرهم كالسفن التي إذا فرغت من حملها عادت لتحمل غيره.

٣٠ - قال قابس: ما أحسن ما قلت في هذا وهو هكذا ظني. ولكن عرفنا، مع ما وصفته، ماذا يأمر ذلك الملك - الذي كنت ذكرت - من يدخل هذا العالم؟

قال إيرقليس: يأمرهم أن يفرخوا من روعهم ولا ينكلوا، كما آمركم أنا: فإني أقتص لكم الأمر كله وأشرحه ولا أدع شيئا منه.

قال قابس: فقلت له: لقد أحسنت.

ثم مد يده إيرقليس وأشار لنا إلى امرأة، وقال: أما ترى تلك المرأة التي تُظَن أنها عمياء، وهي التي كنت من قبل أيضا قد أريتكم إياها وقلت لكم إنها تسمى البخت؟

قال قابس: لعمري.

٣١ - قال إيرقليس: فالملك يأمر أن لا نثق بما تعطينا هذه، ولا نعمل على أن ما يؤخذ منها مما يوثق به ويعتمد عليه وعلى بقائه، وذلك أنها لا تلبث أن تعود فتنزعه ممن أعطته وتعطيه لغيره فإن هذه سجيتها وعادت، وكذلك يأمر أن نطلب سببا نكون به مستحقين لقبول الحباء.

قال قابس: كأنك تقول ماذا؟

قال إيرقليس: إنه يقول: لا ينبغي أن نسر إذا أعطانا البخت، ولا أن نغتم إذا عاد فسلبنا، ولا نذمه ولا نحمده، إذ كان ليس شيء مما يفعله بقصد وتعمد، بل كل ما يأتيه

فإنما يأتيه جزفًا من غير تمييز ولا تحصيل، كما قلت من قبل. ويأمر ذلك الملك ألا نعجب بما يفيدناه، فنكون بمنزلة من دُعي إلى وليمة فأتحف فبها بتحفة نفيسة مثل شمامة أو غيرها، فلظنه أنها حباء له يسرُ بها، حتى إذا ارتجعت منه ورفعت تلك الآلات، تسخط كأنه قد أخذ منه ما كان له من غير أن يفكر فيعلم أن ما دفع إليه من ذلك إنما جرى مجرى ما يؤخذ ويسترد ليتحف به غيره.

ولذلك يأمر الملك ألا يعتمدوا على بقاء ما يفيدهم البخت ويذكرهم بأن هذا مذهبه، أعني ارتجاع ما يعطي بسرعة. وربما أعطى من الرأس أضعاف ما كان أعطي، وربما أخذ ما أعطي ولم يعط بعده شيئا آخر أبدا. ويأمر إذا أعطانا شيئًا أن نبادر إلى أخذه؛ فإذا أخذناه اشتغلنا بانفاقه ووضعه مواضعه.

٣٢ - فقال قابس: وما هو؟ - (فأجاب إيرقليس): ما نأخذ من العلم، حتى نظفر بالنجاة. - (فقال قابس): وما هو؟ - (فأجاب إيرقليس): العلم الحقيقي بالأحداث، لأننا نوقن أنه إذا أعطانا الأدب شيئا سارعنا إلى قبوله وأخذناه مسرورين بعائدته؛ لأنا واثقون ببقائه لا يلحق عليه ندم. وعلى ذلك ينبغي أن نعول. - ويأمرهم إذا صاروا إلى أولئك النساء اللواتي ذكرناهن من قبل، أعني التمتع باللذات، أن يبادروا إلى الانصراف عنهن وترك الثقة بواحدة منهن أصلا. وإذا صاروا إلى الأدب الذي ليس بحق أقاموا عليه مدة من الزمان وتناولوا منه ما يحبون؛ لأنه بمنزلة طريق شاذ، ثم ينتقلون بسرعة إلى الأدب الحقيقي.

فهذا ما يأمر به ذلك الملك. ومن تجاوز ذلك ولم يقبله هلك شر هلاك.

٣٣ ـ فهذا، أيها الغريب، تفسير لغزنا. فإن كنتم تحبون أن تسمعوا ما في شيء من ذلك فلسنا نبخل به؛ وأنا أشرحه لكم.

قال قابس: ما أحسن ما قلت! لكن ماذا يأمر الملك أن نأخذ من الأدب الكاذب؟

قال إيرقليس: الأمور التي تظن أنها خيرات.

قال قابس: وما تلك الأمور؟

قال إيرقليس: النحو والمساحة والحساب والهندسة والموسيقى وسائر العلوم المتداولة التي سماها الأوائل: التعاليم؛ فإنها للصبيان في قوتها تجري مجرى اللجم الكاظمة، ولذلك يحتاجون إليها ضرورة. وأما تلك الأمور الباقية فليس فيها كبير نفع.

فينبغي لمن أراد الوصول إلى الأدب الصحيح أن يقتني هذه العلوم قبل كل شيء، وليس مما يحتاج إليها بأنفسها ضرورة، لكنها نافعة في الوصول إلى ذلك الأدب بسرعة. فأما في لزوم الفضائل والعمل بها فليست مما يعيننا على ذلك، فإن الإنسان إن ابتدأ من التعاليم ثم قصد من بعدها نحو الفضائل فإنه دون أن يحصل له ذلك الأدب الصحيح لا ينتفع به. وكثيرا ما نلخص هذا المعنى ونشرحه فضل شرح فتكون فيه منفعة.

ولا بأس أن تعرفوا أنتم أيضًا هذا المعنى، فإنكم إذا وقفتم عليه انتفعتم به، فعساكم من دون هذه التعاليم كلها تبصرون رشدكم ولا يمنع من ذلك مانع.

٣٤ - قال قابس: قبل كل شيء ليس ينتفع بشيء من التعاليم في أن يصير أولئك الآخرون ذوي فضيلة.

قال إيرقليس: هي تنفع إذا وجدوا، أعني أنه يوجد كثيرا بهذه الصفة.

قال قابس: فكيف حال هؤلاء؟

٣٥ - قال إيرقليس: ليس يعلم من هذا القول إلا أنهم صاروا إلى الحظيرة الأخرى فتصرفوا فيها كأنهم يصيرون إلى الأدب الحقيقي. والأجود - متى أرادوا أن يكونوا أكثر نظرا - أن يكونوا إذا جاءوا من الحظيرة الأولى دخلوا إلى هؤلاء فامتثلوا فضلهم، إلا أن يعتري هؤلاء أيضا توانٍ ويطيعون من لا أدب له، بل معه مغالطة. فإنهم إذا صاروا في هذا الحد لم يتخلصوا أصلا.

فأنتم أيضا، أيها الغرباء، الزموا هذه السبيل، وروضوا أنفسكم بما وصفناه رياضة كثيرة حتى يصير فيكم كالسجية لا تحول. فإنه ليس يمكن من سماع ذلك مرة أو مرتين أو ثلاثا، أن يحصل لكم، بل يتبغي أن تفحصوه مرارا كثيرة لأنفسكم ثم ترتاضوا به؛ وأن تعتقدوا أن ما سواه فضول، وإلا لم تنتفعوا بما سمعتم في هذا الوقت.

٣٦ - قال قابس: نحن نفعل ما أمرت به: لكن اشرح لنا كيف صار ما يأخذه الناس من البخت ليس بخير، وما يأخذونه من الملك فهو خير بالصحة مثل اليسار وحسن الأحدوثة وكثرة البنين والقدرة والسلطان والجمال والظفر وما أشبه ذلك، عرفنا من أي وجه هذه ردئية، فإن هذا من الأمور التي لا نصدق بها أصلا، بل هو رأي كأنه خارج عن الحق.

قال إيرقليس: فأجبني الآن عما عندك فيما أسألك عنه.

قال قابس: فقلت له: أنا أفعل ذلك.

قال إيرقليس: إن كان إنسان من الناس طول حياته في شقاء ومكروه فحياته عندك خير له.

قال قابس: لا، بل أحسها شرا له. فإنه لا سبيل إلى أن يقال إنها خير له وهو في مكروه. والحياة، فيما أحسب، إنما تكون ردئية لمن كان في حياته في مكروه. فأما من كان في خير فحياته خير له. وكما أن من كان نافعا غير ضار فهو محمود مؤثر، فكذلك من كان في مكروه فإن الحياة له في مثل هذه الحالة ردئية.

٣٧ - ٣٨: قال إيرقليس: أو ليس قد قلت إن الحياة ليست شرا؛ لأنه إن كانت الحياة لمن كان في خير ورفاهة من العيش أيضًا رديئة، لم يكن هناك خير ولا شر: فكما أن المرض رديء للمرضى، لا الصحة، كذلك الحياة.

قال قابس: الأمر على ما قلت.

قال إيرقليس: فانظر الآن إذا كان الإنسان في حياته في مكروه: هل يجب أن يموت على حال جميلة منسوبة إلى النجدة؟

قال قابس: أما أنا فهكذا أختار.

قال إيرقليس: فعلى حسب هذا القول إذا ليس الموت بشر، بل الموت على الحال قبيحة منسوب إلى الشر. وذلك أنك تقول: إن الموت على حال جميلة غير الموت على حال قبيحة.

قال قابس: الأمر كذلك.

قال إيرقليس: أوليس يجري الأمر هذا المجرى من حال الحياة في الصحة والمرض؟ فإن كثيرا ما يعرض أن يكون الإنسان صحيحا وهو في شدة إذا كان مزاج الهواء رديئًا، ويكون مريضا وهو رخاء.

قال قابس: حقا قت.

٣٩ - قال إيرقليس: فلتبحث الآن عن اليسار. ولتنظر فيه على هذا الوجه: ألا ترى كثيرا ممن هو موسر إلا أنه في شقاء من عيشه ومكروه؟

قال قابس: بالله يمينا إني لا أزال أرى كثيرا بهذه الصفة!

قال إيرقليس: فلم ينفع هؤلاء يسارهم في أن تكون عيشهم محمودة؟

قال قابس: ما نراه نفعهم.

قال إيرقليس: أن يكونوا إذًا ذوي فضل ليس بما يعتدونه من اليسار، بل من الأدب.

قال قابس: ذلك واجب عن هذا القول.

قال إيرقليس: فليس اليسار إذًا خيرًا ما لم ينفع من كان له في أن يصير أبدًا فاضلًا وتكون عيشته محمودة.

قال قابس: إنا لنرى ذلك.

قال إيرقليس: فبعض الناس ليس ينتفعون لا باليسار ولا بالصحة متى لم يكونوا يعلمون الصواب في استعمال الصحة واليسار.

قال قابس: هو ذا تبين.

قال إيرقليس: فكيف يسمى الإنسان خيرًا ما ليس بنافع لكل أحد؟

قال قابس: ما ينبغي أن يسمى خيرًا أصلا.

قال إيرقليس: لكن إن استعمل الإنسان الصحة واليسار على ما ينبغي ويجب ويستحق، كان محمودا وكانت عيشته راضية، وإن استعملها على خلاف ذلك، كانت عيشته رديئة.

قال: ما أصح قولك!

٤٠ - قال إيرقليس: وبالجملة أيضا تفضيل هذه الأمور كلها على أنها خيرات أو رفضها على أنها شرور غير صواب، لأنها قد تنفع الناس وقد تضرهم. وذلك أن الإنسان إذا اعتقد أنها فاضلة وأن الناس بها يصيرون سعداء صبروا في جنبها على فعل كل شيء، فتجاوزوا إلى كل ما لا يحل، وإلى ارتكاب الأمور القبيحة، ويستصغر في جنبها ما يناله من المكروه، ويستعظم ما يفيد منها، فيتخطى بذلك إلى الجور والظلم. فإذا اعتقد أن ما يلحق من هذه الأمور عظيم، وما يناله فيه من الخير يسير حقير - أحجم عن التسرع إلى الظلم. وإنما يلحق أولئك ما يلحقهم من ذلك لجهلهم وقلة معرفتهم بأن الشر لا ينتج خيرا. والخير لا ينتج شرا؛ فإن المال قد يستفاد كثيرا من أفعال ردئية قبيحة مثل الكذب والحيل والسرقة وسلب المساجد والسقايات وكثير من أمثال ذلك التي هي في أنفسها رديئة.

٤١ - فإن كان الخير لا يكون من الشر أصلا، فليس ينبغي أن نقول في الثروة التي تكون من الشر إنها خير.

قال قابس: هذا لازم واجب من هذا القول.

قال إيرقليس: لكن العدل والفهم ليس يحصلان لنا من أمور رديئة، ولا نصير أشرارا ظلمة من أسور محمودة. وليس من شأن تلك أن تكون عن هذه الأمور ولا عن تلك، فإن اليسار وبُعد الصوت والظفر وسائر ما يجرى هذا المجرى ليس مانع يمنع من أن يكون لقوم أشرار ظلمة. فيجب من ذلك أن تكون هذه وأشباهها لا خيرًا ولا شرًا. فأما الفهم والعقل فهما خير فقط، والجهل شر فقط.

قال قابس: قد أتيت، فيما أحسب، على هذا المعنى، واكتفي به، وزال عنا الشك في أن هذه الأمور قد تكون من أفعال ردئية.

٤٢ - قال إيرقليس: إن ذلك ليكون كثيرا، ولذلك قلنا إنها ليست خيرا ولا شرا؛ وذلك أنها لو كانت إنما تحصل من الأفعال الردئية وحدها لكانت شرا فقط، لكنها تحدث من الصنفين جميعا، ولذلك قلنا إنها لا خير ولا شر؛ كما أن النوم واليقظة لا خير ولا شر. وكذلك ظني المشي والجلوس وسائر ما يعرض من الأمور لكل واحد ممن هو عاقل وجاهل. فأما ما يخص واحدا واحدا منهما فأحدهما خير، والآخر شر مثل الجور والعدل، وهما أمران يعرضان لواحد واحد، وذلك أن العدل لازم لذوي العقل والجور لا حق بالجهال، لأنه لا يمكن، كما قلنا قبل، أن يعرض لواحد بعينه في حال واحدة بعينها، أمران يجريان هذا المجرى، مثل أن يكون الإنسان الواحد بعينه في حال واحدة نائما يقظان، وأن يكون عاقلًا جاهلًا معا، أو غير ذلك مما هو في قيامه.

قال قابس: أظنك قد أصبت في كل ما قلته.

٤٣ - قال إيرقليس: فهذه كلها أنا أقول إنها تأتي من ذلك المبدأ الإلهي.

قال قابس: فقلت له: كأنك تعني ماذا؟

قال إيرقليس: الحياة والموت والصحة والسقم والغنى والفقر وسائر ما قلت إنه خير وشر، يعرض لكثير من الناس من غير شر.

قال قابس: ليس يظهر لنا إلا أن هذا واجب من القول، وأن هذا ليست خيرًا ولا شرًا؛ على أني غير واثق برأي في ذلك.

قال إيرقليس: هذا لأنه لم تصر لك بعد ملكة تتصور بها هذا المعنى. فافعلوا ما أشرت به عليكم قبيل من الارتياض في هذه الأمور عمركم كله، ليتمكن ما قلناه في أنفسكم وتصير لكم به سجية؛ وإن شككتم في شيء منه عدتم إلي لأشرح لكم من أمره ما يزول به الشك عنكم.

تم تفسير إيرقليس السقراطي لقابس الأفلاطوني

اللغزَ الذي تضمنته الصورة الموجودة على باب الهيكل المنسوب إلى زحل.

والحمد لله دائمًا.

تتمة حكم الروم

فتح الإسكندر مدينة فاجتمع إليه أهلها، فسألهم عن أولاد الملوك بها، فقالوا: بقي منهم رجل يسكن المقابر. فدعا به، فأتاه. فقال له: ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر؟ قال: أحببت أن أميز عظام ملوكهم من عظام عبيدهم فوجدتها سواء.

فقال له الإسكندر: هل لك أن تتعني فأحيي شرفك وشرف آبائك إن كانت لك همة؟

فقال: همتي عظيمة.

قال: وما هي؟

قال: حياة لا موت معها، وشباب لا هرم معه، وغنى لا فقر فيه، وسرور لا مكروه فيه.

قال: ليس عندي هذا.

قال: فدعني ألتمسه ممن هو عنده.

حكايات عن سقراط

توقّ كل التوقي، ولا حارس من الأجل؛ وتوكل كل التوكل، ولا عذر في التواني؛ واطلب كل الطلب، ولا تتسخط ما جلب القدر.

لا راحة لمن تعجل الراحة بكسله، ولا عز لمن طلب العز بتأوه.

العاقل الخير لا عدو له، إلا الجاهل الشرير، فإنه أولا يعادي نفسه ثم يعادي الأشرار، ثم يعادي الأخيار.

الفائز بالربح الجميل أسعد من المقتصر على رأس المال، والغنيمة الحميدة أشرف من الرضا بالسلامة، وحيث السرور الدائم فهناك نعيم الأبد، ومن عرف نفسه فقد أمن الهلاك.

من صح فكره أتاه الإلهام، ومن دام اجتهاده أتاه التوفيق.

قال أفلاطون: بعد الجاهل أن يلتحم به الأدب كبعد النار أن تشتعل بالماء. فإذا رأيت المستمع غير قابل أثر الحكمة، فلا تطمع في صلاحه.

وقال آخر: ينظم العقل من أنواع الكلام ما ينظم المصور الحاذق من أنواع الحسنة.

قال سقراط: من بصر عن جهل حتى يرى ما ليس بمحسوس وجب عليه أن يفرح من ذلك بما يفرح به من كان في ظلمة فوجد نورا، أو في مرض فأصاب برءا. فمن لم يتبين ذلك من نفسه، فليعدها من الهالكين.

وقال: لا شيء أنفس من الحياة، ولا غبن أعظم من إنفاذها في غير حياة الأبد.

وقال: الحزن مدهشة للعقل، مقطعة للحيلة. فإذا ورد عليك محزن فاقمع الحزن بالحزم، وفرغ العقل بالاحتيال فيما تحمد عاقبته.

آداب محكية عن الحكيم أرسطوطاليس كتبها في صحيفة وكان يعلمها الملك الإسكندر

لكل إنسان حاجة، وإلى كل حاجة سبيل من أصابه أنجح، ومن أخطأه خاب. وحاجة الإنسان خير الدنيا والآخرة. والسبيل إلى إدراكها العقل. والعقل نوعان: غريزي، ومستفاد. فالغريزي خلقة انفرد بها الخالق - عز وجل -. والمستفاد فائدة المتعلم. ولا سبيل إلى فائدة المتعلم إلا بصحة العقل الغريزي. ومن صح منه العقل الغريزي استفاد به العقل المتعلم. وإذا اجتمع العقل الغريزي إلى العقل المتعلم قواه تقوية الشمس نور البصر. ولا عائق للعقل إلا الهوى، والهوى نوعان: أحدهما بغية الهوى الباطنة، والأخرى بغية الهوى الظاهرة. فمنزلة ما ظهر من بغية الهوى كمنزلة النار الموقدة من النار الكامنة. فإذا اتصل بالهوى بغيته أشعله إشعال الحطب، وإن انقطع سكن كامنا. وليس بساكن إلا ريثما يقدر عليها.

فإن قدر عليها أذكى ناره بقضاء لذته، إلا أن يمنع؛ ولن يمنعه إلا العقل الوافر الصحيح إذا قدر. وقد يبلغ صحة العقل أن يتعرف حقائق الأمور، ولا يبلغ من قوته أن يمنع الهوى من شهوته. فإذا كان العقل بتلك المنزلة ألفى صاحبه بصيرا بالرشد غير قادر عليه، وعارفا بالغي غير ممتنع عليه. وقد يكون من العقل ما يجمع مع المعرفة بالأمور الامتناع من الهوى. وعلة ذلك أمران: أحدهما قوة العقل قوة العقل، والآخر ضعف الهوى. فإن غلب طبيعة العقل في القوة طبيعة الهوى، لم يقدر الهوى على غلبة العقل إلا بما يتصل به من الشهوات، ولا العقل على أن يغلب الهوى إلا بما يتصل به من فائدة العقل المتعلم. ولما كنا على حال لا تكمل فيها عقولنا كمالا تستغني به ولم تضعف أهواؤنا ضعفا نزهد معه في الشهوات، لم يكن لنا إلا المواظبة على التعلم لنزيد في العقل المعين على الهوى.

وقد ترجمت لك في هذا الكتاب فصولا من فوائد العقل المؤيد للإنسان. والله الموفق، ولا قوة إلا به.

ومن الآداب أيضاً:

إذا تم العقل التحم به الأدب كالتحام الطعام بالجسد الصحيح: فهو يغذوه ويربيه، وإذا نقص العقل نبا عنه ما يسمع من الأدب كما نبا عن المصفور ما أكل من الطعام. وإن آثر الجاهل أن يحفظ شيئا من الأدب تحول ذلك الأدب فيه جهلا كما يتحول ما خالط جوف المريض من طيب الطعام داء. فإذا كان الأمر على هذا فأحمدُ العقلاء من كان عقله عن صحة طبيعة، وكان رأيه عن سبب معرفة، وعلمه من قبل حجة، وزين منطقه من صدق مقال، وحسن عمله من حسن نية، وحسن أدبه من فضل رغبة، وكثرة عطائه عن سماح نحيزة، وأداء أمانته عن صدق عفاف، واجتهاد سعيه في قصد سبيل؛ ثم وصل الطبيعة بحسن العادة، وذكاء العقل بشدة الفحص، ونفاذ الرأي بدرك المنافع، وصدق المنطق بحسن الأدب، وحسن الأدب بكثرة التعهد، وكثرة العطاء بصواب الموضع، واجتهاد السعي بشدة الورع. فإذا غلب الهوى العقل صرف محاسن جماله إلى المساوئ فجعل الحلم حقدا، والعلم رياءا، والعقل مكرا، والأدب فخرا، والبيان هذرا، والجود سرفا، والقصد بخلا، والعفو جبنا. فإذا بلغ من صاحبه ذلك، تركه لا يرى الصحة إلا صحة الجسد، ولا العلم إلا ما ستطال به، ولا الغنى إلا في مكسبه المال، ولا الثقة إلا في اتخاذ الكنوز، ولا الأمن إلا في قهر الناس. وكل ذلك مخالف للقصد، مباعد من البغية، مقرب من الهلكة. وإذا غلب العقل الهوى صرف المساوئ إلى المحاسن، فجعل البلادة حلمًا، والحدة ذكاءً، والمكر عقلا، والهذر بلاغة، والعِي صمتا، والعقوبة أدبًا، والجرأة عزمًا، والجبن حذرًا، والإسراف جودًا. فالسعيد من الناس العاقل: من العقل أوفر طباعه، والعلم أفضل ذخائره، ومن لا يغنيه إلا القناعة، ولا يؤمنه إلا البراءة، ولا يوجب الزيادة له إلا الشكر، ولا يدفع عنه المكاره إلا الدعاء. ومن عدم العقل فلن يزيده السلطان عزا، ومن عدم القناعة فلن يزيده المال غنى، ومن عدم الإيمان فلن تزيده الرواية فقها.

ليس أحد من الناس إلا وله شبه: إما من ذاته، وإما من غيره. فمنهم الغشوم كالأسد، والخاطف كالذئب، والخاتل كالثعلب والأبله كالحمار، والحسن المنظر دون المخبر كالدفلى، والمحمود الظاهر مذموم الباطن كالنمر، والرديء الظاهر الجيد الباطن

كاللوز، ومنهم الجامع لكل ما يمد كالأترجة الجامعة مع حسن المنظر طيب الرائحة والطعم.

لا يُعدُّ الملك الكذوب ملكًا ولا الناسك الخادع ناسكًا، ولا الأخ الخاذل أخًا، ولا مصطنع الكفور مُنعما.

إذا كان العالم غير معلّم قل غناء علمه، كما يقل غناء الكثير المال البخيل.

لا ينبغي للعاقل أن يحزن لأمرين: إما أن يكون ما أتاه من المكروه له مدفع، فيحتال له بقلب غير مشغول بحزن؛ وإن لم ير لما أتاه وجهًا ولا مدفعًا، ألزم قلبه الحيلة للصبر.

ليس المحسن من توخى المحسن بالإحسان دون المسيء، ولكن من عمهما جميعا بالإحسان: ألا ترى الصدوق يصدق من كذبه، والأمين يؤدي الأمانة إلى من خانه، وأن العاقل يعول على من جار عليه؟ ـ فكذلك المحسن: يحسن إلى من أساء إليه، ويعفو عمن ظلمه، ويجود على من بخل عليه.

من أولى إليه من المعروف ما يكل منطقه عن ذكره وتعجز قوته عن المكافأة، فلا يعجزن عن مودة من أسدي إليه ذلك وصدق النية بالحب له.

لا يوجد العاقل بجزع من جفاء الولاة وتقربهم الجهلة دونه، لعلمه بأن الأقسام لم توضع على قدر الأخطار.

العاقل موفق للرشد في كل أمره، فلا تلقاه إلا ناصحًا للولاة، موقرًا للرؤساء، متحرزًا من الأعداء، غير حاسد للأصحال، ولا مخادع للأخيار، ولا متحرش بالأشرار، ولا مشاغب للمدارس، ولا ملاح للسلطان، ولا مرج في الولاية.

وصية لأفلاطون في تأديب الأحداث

نقلها إسحاق بن حنين[١]

قال: لست أخاطب الطبقة العالية في الفلسفة والبلاغة، ولا الطبقة الدون منها؛ لكني أتوخي الطبقة الوسطى بين الطبقتين فأقول ما أقوله:

إنه يجب أن أذكر نفسي وأحضها على الأدب، دون أن أحوج غيري إلى تقويمي وتأديبي؛ فإن من شرط العقل أن أقيم نفسي مقام الممتحن لها وعليها. فإذا فعلت ذلك كانت لي حصة مع الذين قومهم الأدب. أتراني لا أعرف نفسي وأني لست بالحكيم ولا المستقل بالتعليم لأني إلى هذه الغاية متعلم وطالب الحكمة؟ فليت شعري من الكاتب البليغ الذي يأتي بعدي، ومن الواضح للنواميس المتحير الطبع، المتخير للآباء، المقسم لمعاني كلامه والذي يحسن أن يكون واسطة بين الأستاذين والمتعلمين وأن يقنع الفريقين معا، فيرضي الطبقة العالية ويؤدب الطبقة التي دونها من الأسافل، من غير أن يتعسف أولئك ولا يبكت هؤلاء، ولا يكرم هؤلاء على الهاجس ولا يبعد هؤلاء

---

(١) أبو يعقوب إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي (٢١٥-٢٩٨ هـ/٨٣٠-٩١٠ م) طبيب عربي مشهور؛ كان أوحد عصره في علم الطب، وكان يلحق بأبيه في النقل، وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها. وكان يعرب كتب الحكمة المكتوبة باليونانية إلى اللغة العربية كما كان يفعل أبوه، إلا أن الذي يوجد من تعريبه في كتب الحكمة من كلام أرسطاطاليس وغيره أكثر مما يوجد من تعريبه لكتب الطب، وكان قد خدم من الخلفاء والرؤساء من خدمه أبوه، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير الإمام المعتضد بالله، واختص به، حتى إن الوزير المذكور كان يطلعه على أسراره، ويفضي إليه بما يكتمه عن غيره.

وإسحاق بن حنين ينتمي لقبيلة عباد العربية المسيحية. واعتنق الإسلام لاحقا وقد قال عنه البيهقي: «كان إسحاق بن حنين من ندماء المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥)، وقد حسن إسلامه، وأشركه المكتفي في أخذ البيعة لابنه مع وزيره العباس بن الحسن». أصيب آخر أيامه بالشلل (الفالج) وتوفي في أيام الخليفة المقتدر بالله.

يعد ابن حنين أول مؤرخ عربي وضع كتاباً مخصصاً لتراجم الأطباء منذ أقدم العصور، وينتهي الكتاب بتراجم لأطباء عصره. ويقول فؤاد السيد الذي قام بتحقيق كتاب تاريخ الأطباء والحكماء: «إن إسحاق بن حنين اعتمد على أصل يوناني لمؤلف مشهور هو يحيى النحوي "يوحنا فيلوبونوس غراماتيكوس" الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي».

بالتخويف والإرهاب، ولا يقوم أولئك باختلاط، ولا يستعمل مع هؤلاء التساهل والإهمال، لكنه يسوي بين الصنفين أعني الرئاسة المؤدبة، والروية المؤدبة بحسب ما تعلمه مني حتى يعلمهم ما أمرته به.

يا أيها المقرون بهذا التأديب؛ لتكونوا معلمين ومؤدبين، افهموا عني ما أوصيكم به وأرسمه لكم: لتكن سيرتكم مع تلامذتكم سيرة مستقيمة بلا زيادة ولا نقصان. وبالله - المنشئ لكل أدب وعلم - أستخلفكم وأقسم عليكم: لا تتجاوزوا الحدود، واعرفوا عاداتكم، واحفظوا درج مراتبكم، وتشبهوا بالضياء النفساني. وكونوا لهؤلاء التلاميذ مرآة مضيئة، وكونوا دليلًا لحريتهم ليتأدبوا بالحرية، وأبعدوهم من كل لائمة قبيحة، ومن كل شهوة تولد المؤلمات والموت. وامتنعوا من الشهوات المذمومة، ومن أفعال الخطايا، ولا تضلوا بحسن مناظرتهم. وليكن بينكم وبين الآلام النفسانية مناسبة، فإن الحمية والأنفة من أجل ذلك. ولا تقربوا شيئا يلحقكم منه عذل، ولا تكونوا سببًا لعادة مذمومة يجترئ عليكم بها تلاميذكم، ولا تبسطوهم للأكل معكم، ولا تتكلموا بشيء يكره بين أيديهم، ولا يكونن لكم معهم سر ولا خلوة. فإذا أدبتموهم فلا تكلموهم بكلام يكون مستورًا عن جماعة من بحضرتكم. ولا تهربوهم بالخدع، ولا تتقربوا إليهم بالهبات والصلات، ولا تضحكوا في وجوههم، وعاملوهم بحسب استحقاقهم، وعلموهم ألا ينحطوا عن مراتبهم من العلم فتنحطوا أنتم عن مراتبكم في التعليم، ولا تحفلوا برؤى الليل وبالظل الزائل، ولا باللذة التي لا دوام لها فتفسدوا خلاص أنفسكم ورئاسة تعليمكم، واستحيوا منهم وتصونوا وتوقروا وتحفظوا أنتم وتلاميذكم أيضًا بالوصايا المرتفعة عن كل طعن وقدح. وعودوهم أن يخدموكم ويخدموا كل واحد وما يشاكلكم من الإكرام، فلا تمنعوهم إياه. ولا تؤدبهم بالأدب إلا في موضعه وعلى حقيقته ومن حيث لا يلحقكم فيه شك ولا ارتياب بأنكم ظلمتوهم وتعديتم عليهم. وإن تباهوا فغضبوا منهم، وإن ترفعوا فحطوهم، ولا ترقّوا للمتجاسرين منهم برقة الآباء، ولا تحبوهم كمحبة ذوي الأنساب منكم. بل أدبوهم كالغرباء منكم، ومن أول ابتدائكم بهم خذوا في رياضتهم. وإن أحد من أهلهم وأقاربهم منعوكم من تأديبهم أيضا وسألكم أن ترحموهم وترقوا لهم فأخرجوهم من عندكم. ولا يكن تقويكم لهم وضربكم إياهم على غضب واختلاط، ولا تتركوهم إهمالا لهم وقلة عناية بهم، ولا تسيروا بلا ترتيب، ولا تتركوهم من غير حد يعرفونه لأنفسهم. وإياكم أن تتأملوا أبدانهم وتخاطيط

صورهم. وكلما أحببتموهم وازددتم عناية فأقيموهم مقام الأعداء. ولا تنسوا التعليم الروحاني من قبل الكرامة العالمية. وداووهم، إذا احتاجوا إلى الأدوية، بالأدوية الملطفة حتى تصفوا أذهانهم، ليكون لهم بما يفيدونه من علومكم شرف وافتخار. وعودوهم الاحتماء من الأطعمة المولدة للنسيان كالباقلاء، واللوبياء، والثوم، والسم القاتل الذي هو الكزبرة، ومن سائر الأطعمة التي تشبه هذه. وعودوهم ألا يأكلوا إلا في أوقات معلومة محدودة، ومن أطعمة لطيفة.

وحذروهم الشره والسكر والخروج عن الاعتدال. وحضوهم على الاستعداد لكل ما يصلح ويشاكل حاله علمهم. وامنعوهم من النظر الشهواني المردي المؤدي إلى الفسق. ولا تطلقوا لهم المشي السريع السخيف. وأقيموا عليهم رئيسًا منهم يشرف عليهم. وليكن متقدما: غنيا كان أو فقيرا، جميلا كان أو قبيحا.

ولا تنظروا إلى حسن الوجه مع قبح السيرة، بل انظرواإلى حسن الفعل. وليكن المدبر لهؤلاء الأحداث من يوثق به، عالمًا ذكيًا مهيبًا غير معروف بسوء اللقاء وقبح المعاملة وفساد السيرة. ولا تصحبوا المعروفين بالأفعال القبيحة، وتباعدوا منهم. فإذا أصبتم مثل هذا الرئيس الموصوف بالصفات الحسنة فلا ضير أن تجعلوا في يده أموالهم وأملاكهم ليدبرها لهم. وقابلوا كل من تؤدبونه بما يشاكله من التأديب. ولا يكن تأديبكم لهم بغير تمييز وترتيب.

حمّلوهم ما يقوون عليه من التأديب، ولا تميتوا قلوبهم بالإلحاح عليهم وتجشيمهم ما لا يفون به. وأقيموا عليهم منهم رؤساء ألوف ورؤساء مئين ورؤساء خمسين ورؤساء عشرة، وكل واحد منهم يأمر تلاميذه وينهاهم. ومتى زال رئيس منهم عما تأدب به وأدبهم ولم يستعمل ما يجب عليه مما يوصيهم به، فلينحَّ ذلك الرئيس عن مرتبته، ويقام فيها غيره، فليس من الحزم أن يوثق بخائن ولا كاذب؛ ولا يقبل منه اعتذار من يقتل النفس عامدا. فإن أخطأ حدث ممن يسمع التأديب أو زل، غفرت زلته واحتمل دفعتين أو ثلاثة. فإن عاد بعد الثلاثة نُحّي عن جملة المتأدبين وهُجر لئلا يفسد سائر من يروم التأديب.

أيها الإخوة المحبون للعلم، اسمعوا واحفظوا وصاتي، فإني كأحدكم:

كنت، لما أحببت العلم، فإني كاتب لكم مقالة سهلة، أبين لكم المدخل إلى العلم بكل المدخل إلى العلم بكل صناعة نطقية ينعم بها ويلذها كل محب يتعلم. فأول ذلك أن تكونوا طاهرين لا عيب فيكم قبل أن تشرعوا في هذا العلم، فإنه لا يجب أن تقرب الأشياء الطاهرة إلى الأشياء الدنسة، ولا الأشياء الدنسة إلى الأشياء الطاهرة. ولا تعلموا الذين ليسوا طاهرين، بل الذين هم أطهار أبرار طهارة حسنة. ولا يقرب ذو العيب الدنس إلى المبرأ من العيب والدنس. وليعلم أنه لا يصاب مكيال من ماء عذب صاف نظيف يقاوم حب حمأة منتنة، ولا تقوى الأعين الرمدة على حرق شعاع لاشمس ـ كذلك لا يكون أدب النفس في بدن قد استجن فيه الجهل والشره.

لا قبح أقبح بالعاقل من أن توسم نفسه عند الناس بالعقل ويأمرهم بذلك وهو خلو منه، صفر من الأدب، مرتكب للمآثم. إن الحكمة والتشبه بالله - عز وجل - هو المعلم للحكمة والمرشد إلى الأفعال الجميلة الفاضلة الموفق لها. إياكم والحسد، فإنه المفرقف والمشتت، وليتواضع بعضكم لبعض.

تساووا في المحبة الكاملة. أسلموا أنفسكم لله والعقلاء الكاملين الذين يستحقون الرئاسة بأفعالهم واقتصارهم وقناعتهم ولا تتكلوا على المفتخرين بالآباء الذين ولدوهم ولم يؤدبوهم بأدب النفس ولزوم ما وجب عليهم، وادعوا إرث الآباء عند التلاميذ من غير استحقاق له قبلهم ـ أولئك حزب الظلمة وأعداء الحكمة ومصيدة الشياطين، والهرب منهم والتباعد عنهم أولى.

وليجعل كل واحد منكم صاحبه كنفسه وموضع سره. وليحفظ كل واحد منكم صاحبه حتى يكون بعضكم حافظًا لسر بعض. كونوا سامعين مطيعين كاملين حريصين على طلب الحق والحكمة، مجتهدين، مناضلين عن الحق، محبين للصدق، مجادلين عن العلم، عارفين بالأزمنة واختلافها، مبغضين للممارين، معتمدين لتمكين الصلاح والسكون والهدوء والسلامة، متكلمين عن أهل الخير، ناظرين بأعينهم وقلوبهم نظر وقلوبهم نظر المتواضعين لا المتكبرين، آنفين أنفة الآلهة، دارسين - دراسة دائمة - الموت الاختياري، متفكرين في الروحانيات، محبين للكلام الذي يؤديكم إلى الحياة الدائمة، محبين للفضائل، متمسكين بكل المحاسن.

لا تتحملوا ثقل التكبر، ولا تتعدوا أقداركم، ولا تترفعوا بالصلف، ولا تتعظموا بالافتخار، وتأخذوا بأخلاق الجبابرة، وابعدوا من أنكم لا تدرون، وكونوا علماء بما تعملون. لا تتجاسروا على تعدي حدودكم، ولا تماروا فيما لا حقيقة له، ولا تجادلوا بالكذب، ولا تتكلموا بالهذر، واحذروا الشهوات القبيحة ولا تعوّدوا أنفسكم الميل إليها؛ والزموا قراءة الكتب الأدبية ولا تملوا، وأحسنوا الإنصات للحكماء؛ وارهبوا آباءكم، وأكرموا أمهاتكم ولا تحبوا النوم والكسل، وميزوا بين الخير والشر، واعرفوا الربح من من الخسران، وإذا لم تسألوا فلا تجيبوا، وتنكبوا الخصومات، واستعملوا الأغذية الملطفة، وتباعدوا عن الشره للأطعمة، ولاتكثروا من شرب الخمر، وليكن لغذائكم وقت معلوم، وصيروا العسل أدما لكم إن قدرتم عليه، وأكثروا ذكر آلاء الله وإحسانه فرادى ومجتمعين، ولا ترفعوا أصواتكم عند من هو أسن منكم، ولا ترادوهم الكلام، ولا تطلقوا ألسنتكم بحضرتهم بكلام جاف، ولا تؤثروا لذة المآكل على لذة العلوم، ولا تحرصوا على شرب الخمر الذي يجعلكم بمنزلة المجانين، ولا تشتغلوا بذكر مساوئ غيركم، ولا تظنوا بأنفسكم أنكم حكماء، بل إنما يجب أن يشهد لكم بالحكمة غيركم.

وإذا صح كلامكم وظهرت حجتكم فلا تعجبوا بأنفسكم، ولا تفتخروا بما ظهر منكم من غلبة خصومكم، وآثروا الوحدة والدعة والسكون؛ ولا تطلبوا الرئاسة، فإن أكرمكم إنسان فتواضعوا أنتم في أنفسكم، وإن سلطوكم على أمر من الأمور فأحسنوا فيه؛ واكظموا الغيظ ولا تسرعوا إلى الغضب، وأكرموا أنفسكم فإنكم تربحون بذلك كرامة كبيرة، ولا تمضوا شيئا في وقت الضجر؛ وامتحنوا الأصدقاء قبل أن تصادقوهم، ولا تصادقوهم قبل الامتحان؛ ولا تقوموا في الأسواق، وإن تهيأ لكم ألا تمشوا فيها فافعلوا، فإن الأسواق مزابل المدن وليس يجد الإنسان على المزابل شيئا نظيفا ولا طيبا ولا طاهرا.

ولا تصغوا إلى أقاويل العامة، وخاصة أهل الأسواق، فإنهم همج رعاع ولا تحصيل لهم ولا رأي عندهم ولا معونة حقيقة. ولا تطلعوا أحدا على أسراركم. وكلموا الرؤساء بتواضع ولطف، وتطأطأوا لكل أحد. وأقللوا من التعرف إلى الناس، فإنكم قلما تتأذون إلا بمن يعرفكم، وليس يكاد يؤذيكم من لا يعرفكم؛ وتطمعوا فيما لا تنالونه. ولا يعظمنّ في عيونكم ما يعظم في عين كثير من الناس من أعراض هذه الدنيا.

وإذا أنكرتم على إنسان يهمكم أمره شيئا فعاتبوه عليه من وقته. ولا تكونوا ذوي وجهين ولسانين. ولا تكن مودتكم مستحلية مختلفة كاختلاف ضوء القمر. وكونوا كالشمس التي نورها فيها دائم لا يزيد ولا ينقص. ولا تتبعوا شهوات الناس في الأحكام، لكن كونوا حكماء بلا محاباة لأحد منهم. ولا تغتابوا من غاب عنكم. ولا تحلفوا يمينا على جهة إرضاء الناس. ولا تكونوا في سلطان إن كانوا لكم عاصين ظالمين. واحذروا من الملاهي الشائنة لكم، ومن اللعب المضلّ لأذهانكم، ولا تواصلوا الضحك، ولا تميلوا إلى الخدع الآخذة بالعين المحدثة بالباطل التي تحدث في أنفسكم اضطرابا. ولا تجالسوا من يزين لكم الشهوات القبيحة والذين يغالطونكم بالحيل ويدسون فيها الشهوات الرديئة والآراء الفاسدة التي تهون عليكم التعرض للأفاعي والحيات والسموم والعقاقير والأدوية القتالة، ومن الذين يظهرون الأشياء العجيبة التي لا دوام لها. وتجنبوا الشعبذة وطلب السحر والرقي والكلام المضحك. واحذر العدو الذي يريك الصداقة، ومن أخ لا صدق لكلامه ولا صحة لضمانه ولا صواب في منطقه.

والذي ينبغي للأحداث أن يأخذوا طرفا منه الأسبابُ التي يحتاج إليها في تدبير الحروب وترتيب الصفوف وتعلم المثاقفة والرمي والمصارعة والطلب والهرب من غير استهانة به ولا انهماك فيه. وليتعودوا ركوب الخيل وجزيها والعمل بالسلاح. وينبغي أن ينظروا في الموسيقى، فإنه من التعاليم الأربعة، حتى يقفوا على المناسبات وتأليف اللحون وأصناف ما ينسب إليها من العود والمعزفة وسائر آلات الموسيقى، وأفضلها الأرغن التي عليها ثمانون وترا مهيأة على الطبائع الأربع.

واعلموا أنكم إذا اتصفتم بهذه الحكمة وتمسكتم بها وأرشدتم إليها كنتم كالنور المشرق على الخلائق. فاجعلوا شكركم لله المدبر للكل الأزلي القائم بالحق والقسط. ومن خالف هذه الوصايا، فالواجب على المتقلد للإشراف على المتأدبين تقويمه وتأديبه، فإن لكل خطأ عقوبة: إما عاجلا، وإما آجلا. فيجب أن تقوم عقوبة العاجل لئلا يفسد الناس ويقتل بعضهم بعضا بالقهر والغلبة وضروب الشر. فمن لم يمتنع ولم ينته عما ينهى اطرح ولم يقبل في جملة المتأدبين ولا يسقى ماء الحياة. فأما المتقلد التدبير في الأحداث فيجب عليه أن يكون كالمرآة المضيئة، لأنه القائم بالرئاسة.

فمن قصَّر في هذه الوصايا فليكن مبعدًا مُنحًى عن هذا التعليم الشريف.

تمت وصايا أفلاطون في تأديب الأحداث. ولله الحمد.

* * * * *

قدم رسول أرسطوطاليس على الإسكندر، فمكث طويلا لا يتكمل. فقال له الإسكندر: إما أن تقول فاسمع، وإما أن أقول فتنصت. فقال الرسول: أيها الملك التخير إليك، لا إلي؛ والطاعة علي لا عليك. فقال الإسكندر: ما فعل الحكيم؟

قال: أيها الملك، جد في الجها ولقد كان حذرًا مستعدًا.

قال: ما بلغ جده؟

قال: عينه لا تسكن ولا تطرف؛ ولسانه لا يفتر؛ الدنيا عنده كالقيح والدم.

قال: كيف عمل في الرعية بعدي؟

قال: أنار القلوب المظلمة في الصدور الخربة، وكنز فيها الحكمة، وأمات فيها الجهالة.

قال: فما لباسه الظاهر؟

قال: الزهد في الدنيا والامتناع من شهواتها.

قال: فما لباسه الباطن؟

قال: الفكر الطويل والتعجب الدائم.

قال: وممن ذاك؟

قال: من أهل الدنيا كيف اغتروا بها، ومن أهل التجربة كيف وثقوا بها.

قال: فمن أيهما كان أشد تعجبا؟

قال: من مصروعها كيف عاودها، ومن مسلوبها كيف راجعها، وممن مات أبوه كيف رجاء البقاء، ومن غنيها كيف فرح بما ليس له، ومن فقيرها كيف حزن على فوت ما يشقى به الغنى.

قال: فمن أيهما كان أشد تعجبا؟

قال: من جميعهما سواء؛ وذلك أن هذا فرح بما ليس له، وهذا حزن على فوت ما يشقى به الغنى كيف لم ينله، فأحل أن يثْقل ظهره وهو خفيف الظهر، وأحب أن يكثر

همه وهو قليل الهم والغم، وأراد أن يكون في تعب ونصب وهو مستريح؛ وإنما يكفيه من الدنيا ما يسد جوعته ويذهب ظمأه ويستر جسمه.

قال: أهو في دوام الملك أظهر سرورا، أم في زواله؟

قال: بل في دوامه للملك.

وقال: ولم ذاك، وليست الدنيا من شأنه؟

قال: للقدرة على إظهار الحكمة في سلطانه والاستمكان من إفاضة العلم وإشاعته وتقريب الحكماء والعلماء وأخذ الرعية بالأدب العائد بالخير، ودرك الأجر في تبصير أهل الجهالة وحمل الناس على حسن الهدى والسيرة الفاضلة والقوة على رفض الدنيا ونبذ الشهوات وترك اللذات عند القدرة عليها والتمكن منها والامتناع عليها عند تكاثرها وتواترها؛ فإن الدنيا لم تغلبه على نفسه ولم تورطه في فخاخها ولم تمده بحلاوتها وأنواع خُدعها وزخارفها المموهة وأسباب غرورها التي يسرع إليها أهل الجهالة، ويسعى إلى النشوب في تلفها أهل الغرة الذين لا يفكرون في عواقب الأمور، ففرح بأن غلبها ولم تغلبه، وقهرها ولم تقهره، وضبطها ولم تضبطه، ولم تضطهده إذا نصبت حبائلها؛ ولكنها كلما لمعت له ازداد منها بعدا، وكلما تزينت له ازداد منها استيحاشا، وكلما تقربت إليه ازداد منها نفورا.

قال: كيف كانت هيبته للموت وخوفه من الوقوف على حسيب النفوس وديانها؟

قال: كان إلى الموت مشتاقا، ولما بعده مرتجيا.

قال: ولم ذاك؟

قال: لأنه افتدى نفسه بالدنيا، وفك رهنه بالبر، وباع نفسه بالآخرة؛ فسعى الحكيم لآخرته، واشترى النعيم الباقي المنقضي، وصار الموت عنده نجاة من الحبس، لا يلبسه الموت شيئا مما تقدم من الخير وتزود من الحسنات.

قال فما أغلب طباعه عليه؟

قال: الرحمة لكل أحد، والكف عن أذى كل أحد، والإحسان إلى كل أحد، وتوقير أهل العلم والحكمة، وبذل فوائد الخير للمستفيدين، وشكرهم على تعلم الحكمة والاستفادة والسؤال والطلب، وكان يقول: ضن الرجال بالعلم والحكمة المقرّبين إلى السعادة من أشد القسوة وأعظم الإثم.

قال: فكيف تركت أهل البلاد؟

قال استل الجهل سيفه، وأفلت من إساره، وعز بعد ذله، وفغر الحرص فاه متوقدًا متضرمًا مستوليًا غالبًا، فتغلب خُشارة الناس ودهماؤهم على الحكماء والعلماء الصاحين فأذلوهم وهجروهم؛ وانقطعت مواد العقول، وضمرت النفوس، ودخل الحزن علينا، فنحن متبددون من أيدي الجهال، منتشرون في عيش كدر.

فبكى عند ذلك الإسكندر، وقال: صابرنا وجهدنا في طلب هذه الدنيا الغرارة، وصابر العلماء وجهدوا في رفضها: أبوا أن يقبلوها، وأبينا أن نرفضها فرغبنها فيما زهدوا فيه، وزهدوا فيما رغبنا فيه، فأعقبهم فعلهم سرورًا دائمًا، وأعقبنا فعلنا حزنًا طويلًا، فأصبحنا نرثي لأنفسنا ونغبطهم، ونبكي لأنفسنا ونفرح لهم. فالويل والثبور لمن سلبت منه الدنيا وجميع ما جمع فيها ونصب في ادخاره منها ولم يدرك الآخرة.

* * * * *

قال سقراط: الرجال أربعة: جواد، وبخيل، ومسرف، ومقتصد. فالجواد من أعطى نصيب دنياه لنصيبه من آخرته؛ والبخيل هو الذي لا يعطي واحدا منهما نصيبه؛ والمسرف الذي يجمهما لدنياه؛ والمقتصد هو الذي يعطي كل واحد منهما نصيبه.

قال أيضًا: إذا كان العقل صحيحًا والفهم قويًا، كان يسير التجربة له كثيرا. وأما قوة الأبدان فإنما جعلت قسما لمن لاحظ له من العقل، بمنزلة البهائم.

وقال أيضا: الجاهل إن نطق أخطأ، وإن سكت أخطأ وإن رأى عجز؛ وإن سلك ضل جدا.

وقال أيضا: الرخاء يبطر، والبلاء يؤدب.

قد أتينا على كثير من حكم الفرس والهند والعرب والروم. ولسنا نطمع في استيعاب الجزئيات من الحكم. فلنقتصر على ما ذكرناه، ليطرد متسقًا على أسماع الأحداث والمبتدئين المتصفحين لهذه الحكم الإلهية.

حكم الإسلاميين

وهذه حكم للمحدثين من الفلاسفة والعلماء والملججين في طلب العلم من الإسلاميين: برزوا في الحكمة، وجمعوا حكمة المتقدمين إلى حكمة المتأخرين، ووصلوا بوصايا فاضلة على كثير مما تقدم. فأفردت لها هذا الباب لأختم به الكتاب، إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك وصية:

يا طالب الحكمة، طهر لها قلبك، وفرغ لها لبك، واجمع إلى النظر فيها همتك. فإن الحكمة أعظم المواهب التي وهبها الله لعباده، وأفضل الكرامة التي أكرم الله بها أولياءه؛ وهي المال الذي من أحرزه استغنى به، ومن عدمه لم يغنه شيء سواه، والصاحب الذي من صحبه في عمره لم يستوحش معه، ومن فارقه لم يسكن إلى أحد بعده. هي للقلوب كالقطر للنبات، ومن العقول بمنزلة الضياء من الإبصار. بطنت الحكمة لكل شيء، وظهرت عليه، وعلت فوقه، وأحاطت به: فلها بكل شيء خبر، وعندها على كل خبر شهادة. ومن أعظم شانها ليس أحد إلا وهو منتحل اسمها ومتزين بها؛ ولا حاجة بها إلى انتحال شيء غيرها، ولا التزين بغير زينتها. فإن كنت من حملتها ففرغ لها قلبك، وارفع إلى النظر فيها همتك، فإنها أطهر من أن تجامع دنسا، وأنزه من أن تخالط قذرا. فقد رأينا من أراد الغرس في أرضه يبدأ فيقلع ما فيها من غرائب النبت، ثم يأتي بكرائم الغرس فينصبه فيها. وكذلك من طلب الحكمة ورغب في اقتنائها، فهو حقيق بأن يبدأ بما في قلبه من أضوائها فيمحقها ويطهره منها مثل الهوى والشهوات المردية، ومثل الحقد والحسد ومحبة الكرامة والتسرع إلى الغضب، وأشباه هذه الأشياء. فإذا تطهر منها استقبل الحكمة فأخذ منها ما استطاع.

فإذا أظفرك الله بالحكمة وزرع فيك بذرها فلا يكونن زارع أولى بالقيام على زرعه منك، ولا يمنعك بعد غورها وكثرة أشباها منها، فإنها من المعونة على نفسها مثل الذي بالشمس للإبصار على استثباتها والاستبانة لها. فمن صح بصر نفسه ثم وصل بما صح منه إلى ما يرد عليه من الحكمة، أو رابه شيء من الأمور لم يمنعه ما فاته من المبصرات من أن يدعى بصيرا ويلحقه بالبصراء.

فإذا صح لك من عقلك ما تعرفه به وجوه الحكمة وترغب به في الخير وتميز بينه وبين الشر، فليس بشهادة الناس ولا بما يسمونه حكمة تكون حكيمًا، ولا بعقولهم تعد من العقلاء، ولا بسائر ما يثنون عليه من ودهم ونصائحهم تكون فاضلا. وإنما الناس رجلان: رجل لا خير فيه جاهل بحقيقة الحكمة فليس ملتفتا إليه، ورجل من أهل الحكمة لا يمنعك مما سهل الله لك به سبيل الخير، بل يبذله لك، لأنه ليس يباع بثمن ولا يمنع من طالب، ولا يكتم كاكتتام الذنوب.

واعلم أن العقل متوجه أينما وجه له؛ وله غناء أينما صرف، وبعض مصارفه أنفع من بعض: فإذا صرف إلى الدين أحكمه وتفقه فيه، وإذا صرف إلى الدنيا أغنى بها واحتال فيها. فليس مستودعًا شيئا إلا حفظه، ولا مصبوغًا بصيغ إلا قبله، ولا محملًا رشدًا ولا غيًا إلا تحمله. فإياك أن تعدله عن رشد، أو تصرفه إلى غي عامدًا أو مخطئًا، فإنك لست محكمًا به شيئًا من أمر دنياك إلا أضعت به أكثر منه من أمر دينك، ولا حافظًا به شيئًا من الأدب غير النافع إلا أضعت به أكثر منه من نافع الأدب.

غير أنك تجمع إلى ضياع العناية بما لا ينفع استيجاب التبعة فيما أضعت. وليس شيء من أمر الدنيا صرفت إليه عقلك فأحكمته إلا سيعود محكمه عن وشيك ضائعا وصالحه فاسدا، لا يصحبك منه شيء في آخرتك، ولا يوثق ببقائه لك في دنياك. وإنما وهن أمر صاحب الدنيا وبطل سعيه لأنه بُني في غير داره وغرس في غير أرضه، فلم يكن له حين جاء من يشخصه إلا أن ينقضه ويدعه لغيره. ومن أخطأه العقل ظهر به الحمق والبله. ومن صرف عقله إلى غير الحق ظهر به الدهى، وبعض أبلغ في الشر من كثير من الحمق. وإنما القصد في ذلك أيصاب الحق، ثم لا يصرف به عن جهته.

اعلم أنه من غابت الحكمة عن عقله عجز عن إنفاذ الأمور كما تعجز العين الصحيحة عن رؤية الأشياء عند فقد الضياء. ولا يسلم له حق، وإن حسنت ولايته؛ وذلك أنه كان جوادًا، أفسد جوده التبذير وسوء موضع الصنيعة. وذلك أنه يصرف العطية إلى من لا حق له مع منع ذوي الحق؛ وإن كان بليغًا أفرط في القول وأخطأ البغية؛ وإن كان عالمًا أفسد علمه العجب؛ وإن كان حليمًا أفسد حلمه الذل والمهانة؛ وإن كان صموتا أضر بصمته العي؛ وإن كان لينًا بلغ لينه الضعف. فمن فقد الحكمة من أهل الخصال الحسنة ضاعت خصاله، ومن فقدها من غيرها هلك كل الهلاك.

فأما أنت فلا تحمدن نفسك على صدق في غير دين، ولا تكن غاية الصدق في نفسك أن تقول بما رأيت وسمعت: فإن أكثر ما ترى غير نافع، وجل ما تسمع كذب. ولا تكتفين مع ذلك من القول بالحق في الدين دون صدق النية وصواب الموضع، وأعني بصواب الموضع أن ترغب في الأجر، وتحرص على الحظوة فتنطق في غير موضع النطق، أو تعطي من ينبغي أن تحرمه، فإن إعطاء الفاجر تقوية له على الفجور، والنطق عند الجاهل إغراء له بجهله وحمل له على عداوتك ـ وكذلك جميع الفضائل إذا لم تستعمل في مواضعها ضرت.

لا يرضنك من نفسك براءتك من ذنوب تركتها عجزًا عنها أو حياءً منها أو رغبة عن أسبابها. ولا تعدن مع ذلك تركك لها على تلك الوجوه تركًا، ولا براءك منها براءة، فإنه ليس بينك وبين مقارنة ما تركت إلا أن يمكنك أو يخفي لك. واعلم أنه لا حمد لك في تركها إلا بعد القدرة عليها والاستمكان منها. فإنه من كان شأنه ترك الذنوب مع القدرة عليها حمد على البراءة منها ومن لم يقدر عليها أو تركها لبعض ما ذكرناه من الحياء أو لنزاهة وكان من نيته ركوبها إذا زالت تلك الأعراض، لم يبرأ من مذمته. وإن استطعت، مع ذلك، أن تكون، فيما امتنع منك من عمل الخيرات، على حال يعلم الله أنك إن قدرت عليه أمضيت العمل به فافعل، فإنك إذا كنت ذلك ثبت لك العذر بما تركت وحق لك الأجر بما نويت. وإن عجزت عن إصلاح نفسك بجميع الوصايا الحكمية فلا تدع أن تأمر به غيرك؛ فإنك إذا أطعت شاركت في الأجر من أطاعك؛ وإن عصيت لم يخطئك ثواب ما نويت.

واعلم أن نفس الإنسان قد وضعت بحيث تكثر آفاته بين أعدائه؛ فإن هاج به الحرص أهلكه الطمع، وإن هاج به الغضب أهلكه الغيظ، وإن عرض له الخوف شغله الحذر، وإن أصابه نعيم دخلته العزة، وإن كفى بالغنى أطغاه المال، وإن عضته الفاقة شغلته المهانة، وإن رزق الكفاية عرض له الكسل، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظته البطنة. فكل إفراط له مفسد، وكل تقصير به مضر. فخير أحواله أن يقصر به عن الغنى، ويدفع عنه الفاقة، ويصرف عنه الطمع، ويبذل له الكفاف، ويمنع من الكظة، ويقتصر به على القوت؛ ولا يزال من أمره على قصد بين الغلو والنقصان.

إن كنت عرفت الهوى وعداوته للعقل، فقد علمت أنه بعد درك العلم والتعب بالأدب الصالح، يأبى إلا ركوب ما يشتهي، والتثاقل عما لا يشتهي. فإذا رأيت منازعته إلى مضارك، وتثاقله عن منافعك، فقابله بالورع، فإن الورع من قبل النية الثابتة والتمسك بالدين القيم. ومن عرف نفسه بالنية السيئة فليس يأمن الانقياد للهوى، والانقياد للهوى استسلام، والاستسلام هلكة. ولكن الرأي له إصلاح النية بالورع والدين، وأن يجاهد بأحسن أخلاقه أسوأها جهادًا شديدًا حتى يظفره الله - عز وجل - بها وينتاشه منها، إن شاء الله - عز وجل -.

من يخلُ قلبه من مخافة خالقه لا يزال من أكثر خلائقه مرعوبا. من كان ميله إلى غير رضا الله - عز وجل - كان ذلك الشيء هو الذي يهلكه.

ينبغي للعاقل أن يحفظ ما يحكم عليه عقله ويتقيه حتى لا يتسلط عليه النسيان، بأن يديم تعهده. وقد سمى قوم من أهل الحكمة إدامة نظر العقول إلى ما حصلت ذهنا.

وقال: إن الذهن لا ينام ولا يغفل ولا يسكن ولا يغيب عنه عقله ولا يحتاج إلى تذكير؛ وهي هذه الدرجة العليا التي بها يشبه من كانت فيه الملائكة والأرواح، لأن العقل للبشر والذهن للملائكة، فلذلك لا يعقل الإنسان الشيء إلا بعد التفكر والتطلب والتمييز. وأما الملائكة فإنها تنظر بالذهن كما ننظر نحن بالعين، بلا حاجة إلى تفكر وتمييز وتطلب.

فصل

في الذكر جلاء صدأ القلوب، وتنبيه عن وسن النفوس، وشحذ لما كل من الأفهام؛ ولا سيما إذا استمع له السامعون بإقبال من القلوب على تفهمه وصدق إرادة لهدايته، وعزم على الانتفاع به، وتلق له بقبول، والدوام عليه.

وللذكر، على كثرة مناقبه وحسن ممادحه، معارضات تحاول سلبه وتهجينه عن أهله، يكثر عددها. فأحدها الإياس من إدامته، والتزهيد في القليل منه، إذا لم يكن سبيل إلى إدامته ـ يحاول بذلك الشيطان قطع الذكر وإبعاده عن المسترشدين. ولكن الله – تعالى وتقدس – قد وهب لكل ذي عقل قوة يستعين بها على دفع هذه المكائد من الشيطان، فإنه قل مكتتَم من العلوم إلا له ما يوضحه، وقل مشتبه إلا فيه بصائر يعطاه مستحقه وطالب الحق منه، وقل مستغلق إلا له مفتاح يعطاه أهله حجةً من الله تعالى ليكون بعضه وصلة إلى بعض فيفهم المكتوم بالمكشوف، والبواطن بالظواهر. فعارضوا هذه المكيدة بأن تعلموا وتقولوا لأنفسكم: إن رب موهوب له نفع الذكر، ومتهنًى بثمرته من غير استدامة له؛ وتزود القليل المرجو نفعه أقرب إلى الدرك من تعطيل الذكر كله. واعلموا أن مخالب هذه الغوائل وأنياب هذه المكائد، وإن كثر تعاونها، يكللها أدنى جنة تتلقى بها ويفلها أيسر متترس بالعلم؛ إن كيد الشيطان كان ضعيفا. ومن أكبر معارضات الذكر مكيدة وأشدها على أهلها مؤونة وأحجبها لهم عن المعاودة أن يتصل بالذكر تكبير لمعصية كنتم تنطوون على الرخصة فيها، او فطام النفس عن عادة في محرم كنتم تدعون تهوينه، أو تغليظ في إصرار كنتم لا تخافونه، أو الإخافة من ذنب كنتم استشعرتم الأمن من عقابه، سيما إن أعان على طمع النفوس تأول آية على غير تأويلها، أو رجاء في موضع يأس من دركها، أو استهانة في موضع عزيمة في مثلها – هنالك تجادل النفس عن أهوائها بتلك الشبهات، وتذب عن شهواتها بتلك الأغاليط؛ ويحملها ذلك على إنكار حق تسمعه، وقبول باطل تميل إليه لتقيم على محرم ألفته وأمنية تركن إليها. وليس يتحرز من هذه المكيدة ونظائرها إلا بمعاقل العلم وبصائر البرهان؛ ولا ترتقي تلك المعاقل إلا باستشعار التواضع ومهاجرة الأهواء وتجريد العزيمة وإيثار المصدوق.

فأما الفكر فهو مفتاح كل علم، ومستنبط كل حكمة، وكاشف كل مستور، واقتباس من نور الله، وتزود من كل فائدة، وشحذ للعقول المستبهمة، وتدارك للحظوة الغائية، وبحث عن الكنوز المذخورة. فأحيوا بالفكر موات الهمم، واجتهروا بها دفائن الحكم، واكتشفوا ضباب الغفلة، وحادثوا صقال النفوس.

أعاذنا الله وإياكم من مواقف الشبهات ومسالك الشهوات، إنه كريم جواد لطيف بالعباد.

فصل

إن النفوس، وإن غمضت مواضعها، وخفيت أوعيتها، ولطفت مسالكها - فهي أوعية حكمة لا تعدو معادن خيرات لا تنزح، وخزائن عجائب لا تحصى. ثم هي مدبرة الأبدان وجوارحها، والقائمة على سياستها، والمسلطة على استخدامها وهي المعطاة خزائم الأجساد الطيعة لها، وهي المملكة تصريف أعنتها. إليها تتناهى الجوارح بأعمالها، وإليها تؤدى مكاسبها وتنتظر فضلها فيما توصل إليها من المعارف بالحواس، وعنها تصدر الأقضية، وإليها يأوي المحصول متصلة بالإلهام والتأييد وقبول التوفيق. ولذلك قصدت إليها مكايد الشيطان، وحشدت عليها غوائل المغتالين؛ فليس يضرها نقص المشاعر مع تمامها، ولا وهن الجوارح على قوتها، ولا تخاذلها مع انتصاها، ولا غفلتها مع تحفظها. فلا تغيبوا عن معارك النفوس فيستولي عليها عدوكم، ولا تعطلوا أفهامكم عن مشارفة سرائركم فتفسد علانيتكم، ولا تخلوا منها مقام عقولكم فتستباح حرائمكم، فإن حرائم النفوس أضر استباحة، والغلبة عليها أنكأ جراحة، وسباؤها أعظم ترة، وأسرها أعسر فكاكًا، وأودها أبطأ استقامة، وغصبها أكبر مرزية.

رب حيرة أدخلها على القلوب تقصيرها في العلم، وإدهانها في الرخص، وتمينها في العبادة، واحتجابها عن استماع الحجة، وتصاممها عن منادي الحقيقة، وتعاشيها دون برهان البصيرة. وليس كل عطية من الله استجابة، ولا كل هبة مرضاة. وهذه ثلمة يدخل منها الشيطان، ولم يخلها الله تعالى من إقامة حجة بازائها، وتحصين لإعوارها، وإنهاض لصرعاها. والسلام

آداب ابن المُقَفَّع[1] ووصاياه

واسمه داذبه ابن داذ حشنس ويسمى بعبد الله

قال:

يا طالب الآداب، اعرف الأصل والفروع، فإن كثيرًا من الناس يطلبون الفروع مع إضاعة الأصول فلا يكون دركهم دركًا. ومن أحرز الأصول اكتفى بها. فإن أصاب الفرع بعد إحراز الأصل فهو أفضل.

فأصل الأمر في الدين أن تعتقد على الإيمان، وتجتنب الكبائر وتؤدي الفرائض. فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين ومن يعلم أنه من حرمه هلك. ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك إلى الفقه والعبادة فهو أفضل. وأصل الأمر في إصلاح الجسد ألا تحمل عليه في المآكل والمشارب والباه إلا حقا. ثم إن قدرت أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع به فهو أفضل. وأصل الأمر في البأس ألا تحد نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم. ثم إن قدرت أن تكون أول حامل وآخر منصرف، في غير تضييع للحذر، فافعل، فهو أفضل. وأصل الأمر في الجود ألا تضن بالحقوق عن أهلها؛ ثم إن قدرت على أن تزيد ذا الحق على حقه وتتفضل على من لا حق له فهو

---

(١) ابن المُقَفَّع (١٠٦ - ١٤٢ هـ = ٧٢٤ - ٧٥٩ م): هو عبد الله بن المقفع: من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسيا (مزدكيا) وأسلم على يد عيسى ابن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، وترجم له " كتب أرسطوطاليس " الثلاثة، في المنطق، وكتاب " المدخل الى علم المنطق " المعروف بايساغوجي. وترجم عن الفارسية كتاب " كليلة ودمنة - ط " وهو أشهر كتبه. وأنشأ رسائل غاية في الإبداع، منها " الأدب الصغير - ط " ورسالة " الصحابة - ط " و " اليتيمة " واتهم بالزندقة، فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي. قال الخليل بن أحمد: ما رأيت مثله، وعلمه أكثر من عقله. وللأستاذ محمد سليم الجندي " عبد الله بن المقفع - ط " ومثله لعمرفروخ ولعبد اللطيف حمزة " ابن المقفع - ط " ومثله لخليل مردم بك.

انظر ترجمته في: أمراء البيان ٩٩ - ١٥٨ وأخبار الحكماء ١٤٨ ولسان الميزان ٣: ٣٦٦ وأمالي المرتضى ١: ٩٤ ودائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٨٢، والأعلام ٤/١٤٠، وفي البداية والنهاية ١٠: ٩٦ " قال المهدي: ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد. قالوا: ونسي الجاحظ ".

أفضل. وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ؛ ثم إن قدرت على بلوغ الصواب فهو أفضل. وأصل الأمر في المعيشة ألا تني في طلب الحلال، وأن تحسن التقدير لما تنفق، لا تغرنك من ذلك سعة تكون فيها - فإن أعظم الناس في الدنيا خطرًا أحوجهم إلى التقدير والملوك أحوج إليه من السوقة؛ لأن السوقة قد تعيش بغير مال، والملوك لا قوام لهم إلا بالمال؛ ثم إن قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بالمطالب فهو أفضل.

وإن ابتليت بالسلطان فتعوذ بالعلماء، واعلم أن من العجب أن الرجل يُبتلى بالسلطان فيريد أن ينقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته ولهوه وشهواته. وإنما الرأي له والحق عليه أن يأخذ لعمله من جميع شغله حتى يأخذ له من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه. فإن تقلدت شيئًا من أمور السلطان، فكن فيه أحد رجلين: إما رجلًا مغتبطًا به فحافظ عليه مخافة أن يزول عنك، وإما رجلًا كارهًا له: فالكاره عامل في سخرة: إما للملوك إن كانوا هم سلطوه، وإما لله إذ ليس فوقه شيء. وقد علمت أن من فرط في سخرة الملوك أهلكوه؛ فلا تجعل للهلاك على نفسك سبيلا.

وإياك إن كنت واليًا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس منك ذلك فيكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبابًا يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها.

واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء يجب أن يكون حبه للمدح هو الذي يحمله على رده، فإن الراد له ممدوح، والقائل له معيب.

لتكن حاجتك في الولاية ثلاث خصال: رضا ربك، ورضا سلطان إن كان فوقك، ورضا صالحي من تلي عليه. ولا عليك أن تلهو عن المال والذكر، فسيأتيك منهما ما يكفي ويطب. واجعل الخصال الثلاث بمكان ما لا بد منه، والمال والذكر بمكان ما أنت منه واجد بدا.

لا يقذفن في روعك أنك إن استشرت الرجال ظهرت منك الحاجة إلى رأي غيرك؛ فإنك لست تريد الرأي للفخر به، ولكنك تريده للانتفاع به. ولو أنك مع ذلك أردت

الذكر، كان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل الفضل أن يقال: لا ينفرد برأيه دون استشارة غيره من ذوي الرأي.

اعرف أهل الدين وأهل الفضل والمروءة، فيكونوا إخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك.

اعلم أنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك. وكيف يتفق لك رضا المختلفين؟ وما حاجتك إلى رضا من رضاه الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة فعليك بالتماس رضا الأخيار وذوي العقل، فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه.

لتعرف رعيتك أبوابك التي لا ينال ما عندك من الخير إلا بها، والأبواب التي لا يخافك خافك إلا من قبلها.

احرص كل الحرص على معرفة أخبار عمالك، فإن المسيء يفرَق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك.

عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم؛ ولا تسهل سبيل ذلك إلا لذوي العقل والسن، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به عليك سفيه، أو يستخف له شانئ.

لا تتركن مباشرة جسيم أمرك، فيعود شأنك صغيرا، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيضيع الكبير.

اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم، وأن مالك لا يسع الناس كلهم فاخصص به أهل الحق، وأن كرامتك لا تطبق العامة فتوخ بها أهل الفضل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن أدابت فيها نفسك، وأنه ليس لك إلى الإدآب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما؛ فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك.

واعلم أن ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم، وما صرفت من مالك في الباطل فقدته حين تريده للحق، وما عدلت به عن كرامتك إلى أهل النقض أضر بك في العجز عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة.

اعلم أن من الناس خلقًا كثيرًا يبلغ من أحدهم الغضب، إذا غضب، أن يحمله ذلك على الكلوح والقطوب في وجه غير من أغضبه، وسوء اللفظ لمن لا ذب له، والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته، وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لا ذنب له. ثم يبلغ منه الرضا أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، وبعطي من لم يكن يريد إعطاءه، ويكرم من لا حق له ولا مودة.

فاحذر هذا الباب الحذر كله؛ لأنه ليس أحد أسوأ حالا فيه من ذوي السلطان الذين يفرطون لمكان القدرة في غضبهم ورضاهم، وأنه وصف بهذه الصفة من يلتبس بعقله أو من يتخبطه المس أن يعاقب في غضبه من أغضبه، ويحبو عند رضاه غير من أرضاه - كان ذلك جائزا في صفته.

اعلم أن الملوك ثلاثة: مَلِك دين، وملك حزم، وملك هوى. فأما ملك الدين فإنه إذا أقام لأهله دينهم - وكان دينهم هو الذي يعطيهم مالهم ويلحق بهم الذي عليهم - أرضاهم ذلك وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم. وأما ملك الحزم فغنه يقوم بالأمر، ولكن لا يسلم من الطعن والتسخط، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى. وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر.

إذا كان سلطانك عند جِدة دولة فرأيت أمرا قد استقام بغير رأي وأعوانًا اجزأوا بغير فضيلة، وعملا أنجح بغير حزم - فلا تغتر بذلك ولا تستنم إليه. فإن الأمر الجديد مما يكون له مهابة في نفس قوم وحلاوة في قلوب آخرين فيعين قوم بأنفسهم ويبقى قوم بما قبلهم، ويستتب ذلك الأمر غير طويل، ثم تصبر الشؤون إلى حقائقها وأصولها. فما كان من الأمور نبي على غير أركان وثيقة ولا عماد مملكة - أوشك أن يتداعى ويتصدع.

ليتفقد الوالي - فيما يتفقد من أمور رعيته - فاقة الأحرار: فليعمل في سدها، وطغيان السفلة منهم: فليقمعه؛ وليستوحش من الكربم الجائع واللئيم الشبعان فإنما يصول الكريم إذا الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

لا يحسدن الوالي من دونه، فإنه في ذلك أقل عذرا من السوقة الذين يحسدون من فوقهم - وكل لا عذر له.

ليعلم الوالي أن الناس على دينه إلا من لا بال به منهم: فليكن للبر والمروءة عند نفاق، فإنه سيكسد بذلك الفجور والدناءة في مملكته.

إن ابتليت بصحبة السلطان فعليك بطول المرابطة من غير طول معاتبة، ولا يحدثن لك الاستئناس غفلة ولا تهاونا.

إذا رأيت السلطان يجعلك أخًا فاجعله سيدًا، وإن زادك فزده.

وإن وجدت من الوالي منزلة وثقة فاعدل عنه كلام الملق، ولا تكثرن من الدعاء له في كل كلمة، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة، إلا أن يكلمك على رءوس الملأ، فلا تأل ما عظمته ووقرته به.

إن ابتليت بصحبة وال لا يريد صلاح رعيته، فاعلم أنك قد خيرت بين خلتين ليس ولا واحدة منهما خيارا: إما الميل مع الوالي على الرعية - فهذا هلاك الدين والمروءة؛ وإما الميل مع الرعية على الوالي - فهذا هلاك الدنيا والنفس - ولا حيلة لك إلا الموت أو الهرب.

واعلم أنه لا ينبغي لك - وإن كان الوالي غير مرضى السيرة - إذا أعلقت حبلك إلا المحافظة عليه، إلا أن تجد إلى الفراق الجميل سبيلا.

تبصر ما في الوالي من الأخلاق التي تحبها له والتي تكرهها له، وما هو عليه من الرأي الذي ترضى له والذي لا ترضى، ثم لا تكابره بالتحويل عما يحب ويكره، فإن هذه رياضة صعبة تحمل على الإباء والقلى؛ فإنك قلما تقدر على نقل رجل عن طريقته التي هو عليها بالمكابرة والمناقضة وإن لم يكن ممن يجمح به عن السلطان، ولكنك قادر على تشييد الرأي وتقويته. فإذا قويت فيه المحاسن كانت هي تكفيك المساوئ، وإذا استحكمت منه ناحية في الصواب كان هو الذي يبصره الخطأ بألطف من تبصيرك وبأعدل من حكمك، لأن الصواب يعدل بعضه بعضًا ويدعو بعضه إلى بعض. وإذا وجد مكانه اقتلع الخطأ من أصله. فاحفظ هذا الباب وأحكمه.

إن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفته وعرفك بصالح أخلاقك قبل ولايته فافعل، فإن الوالي يلقاه الناس كلهم بالتصنع، وكل يحتال لأن يثني عليه عنده بما ليس فيه، غير أن الإدراك يتناول ذلك من الرذال والسقاط أكثر، لأن هؤلاء أشد تصنعًا وأعظم تودد ًا ومثابرة وتمحلًا فلا يمتنع الوالي، وإن كان بليغ الرأي والنظر، من أن ينزل عنده

كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء، ويتغطى عليه كثير من أهل الفضل الذين يصرفون أنفسهم عن التصنع والتمحل.

لا تخبرن الوالي أن لك عليه حقا، وأنك تعتدُّ عليه ببلاء، وإن استطعت أن لا ينسى حقك وبلاءك فافعل. وليكن ما يذكره ذلك تجديدك النصيحة له والاجتهاد، وألا يزال ينظر إليك بآخر يذكره الأول؛ فإن السلطان إذا انقطع عنه الآخر نسي الأول؛ وإن أرحامهم مقطوعة وحبالهم مصرومة إلا عمن رضوا عنه وأغنى عنهم في يومهم وساعتهم.

إياك والعتب على الوالي واستزادته، فإن ذلك إن ظهر له كان قلبه أسرع إلى التعنت والتعزز من قلبك فيمحق ذلك حسناتك الماضية، وأشرف بك على الهلاك، وصرت تعرف نفسك مستدبرا، وتلتمس رضا سلطانك مستصعبا.

اعلم أن أحضر الناس عدوًا مجاهدًا وحزبًا مناوئًا وزير السلطان ذو المكانة عنده، لأنه منفوس لعيه مكانه كما يحسد غير أنه يجترأ عليه ولا يجترأ على السلطان، لأن من حاسديه أحباء السلطان الذين يشاركونه في المنازل والمداخل، وهم وغيرهم أعداؤه، وليسوا كعدو السلطان النائي عنه المكتتم منه. وهؤلاء لا ينقطع طمعهم من الظفر به، ولا يغفلون عن نصب الحبائل له. فاعرف هذه الحال، والبس لهم سلاحك بالصحة والاستقامة فيما تسر وتعلن، ثم روح عن قلبك كأنه لا عدو لك ولا حاسد. وإن ذكرك ذاكر عند السلطان بسوء في وجهك أو في غيبك فلا ترين الوالي ولا غيره اختلاطا، ولا يقعن ذلك في نفسك موقع ما يكرثك. فإنه إن وقع منك ذلك الموقع أدخل عليك أشياء مشتبهة مؤكدة لما قال فيك العائب. فإن اضطرك الأمر في ذلك إلى الجواب، فإياك وجواب الغضب والانتقام، وعليك بجواب الوقار والحلم والحجة، ولا تشكن في أن الغلبة والقوة أبدًا للحلم.

لا تعدن شتم الوالي شتمًا ولا إغلاظه إغلاظًا، فإن ريح العزة قد تبسط اللسان بالغلظ في غير سخط ولا يأس.

جانب المسخوط عليه والظنين عند السلطان، ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تظهرن له عذرًا، ولا تثنين عليه بخير عند أحد من الناس. فإذا سكن غضب السلطان عنه ورجوت أن يلين له، فاعمل في إظهار عذره على لطف ورفق شديد.

لا تسارَنّ أحدًا من الناس ولا تهمس إليه بشيء عند السلطان، فإن السرار مخيّل إلى كل من يراه من ذي سلطان وغيره أنه يراد به، فيكون ذلك في نفسه حسيكة ووَغْرا.

تنكب فيما بينك وبين الوالي، وفيما بينك وبين الإخوان خلقا قد عرفناه في بعض الوزراء والأصحاء: من الادعاء عند ما يظهر من صاحبه من حسن أثر وصواب رأي أنه عمل فيه أو أشار به وإقراره بذلك إذا مدحه به مادح. وإن استطعت أن يعرف صاحبك أنك تنحله صواب رأيك فضلا عن صوابه، وتسنده إليه وتزينه به، فافعل. فإن الذي أنت آخذ بذلك أكثر مما أنت معط بأضعاف.

إذا كلمك الوالي فأصغ إلى كلامه، ولا تشغل طرفك عنه بنظر، ولا أطرافك بعمل، ولا قلبك بحديث نفس. واحذر هذه من نفسك وتعهدها فيها.

ارفق بنظرائك من وزراء السلطان وأخلائه فاتخذهم إخوانا ولا تتخذهم أعداءً بأن تناقشهم في الكلمة إذا تقربوا بها، وفي العمل يؤمرون به. فإنما أنت أحد رجلين: إما أن يكون عندك فضل على ما عند غيرك فسيبدو ذلك ويحتاج إليه منك فيلتمس وأنت مجمل، وإما ألا يكون عندك فما أنت مصيب من حاجتك عند الوزراء وأخلاء السلطان بمقاربتك إياهم ولينك لهم من موافقتهم إياك ولينهم لك أفضل مما أنت مدركه بالمنافسة والمكابرة والمنافرة.

إذا سأل الوالي غيرك فلا تكونن المجيب، فإن استلاب الكلام خفة بك واستخفاف منك بالمسئول والسائل. وليت شعري ما أنت قائل إن قال لك السائل: "ما إياك سألت"، أو قال المسئول: "دونك فأجب" وإذا لم يخص السائل في المسألة رجلًا واحدًا وعم بها جماعة من عنده فلا تبادر بالجواب ولا تسابق الجلساء، ولا تواثب الكلام مواثبة، فإن في ذلك، مع شين التكلف والخفة، أنك إن سبقت القوم إلى الكلام صاروا لكلامك خصماء فتعقبوه بالعيب والطعن. وإذا أنت لم تعجل بالجواب وخليته للقوم اعترضت أقاويلهم كلها فتدبرتها وفكرت فيها وفيما عندك منها، ثم هيأت من محاسن ما سمعت جوابا رضيا، ثم استدبرت به أقاويلهم حتى تصيخ إليك الأسماع وتهدأ عنك الخصوم.

وإن لم يبلغك الكلام حتى تُكفى بغيرك أو إن انقطع الحديث قبل ذلك فلا يكونن من العيب عندك ولا من الغبن في نفسك فوت ما فاتك من الجواب، فإن صيانة القول خير من سوء وضعه، وإن كلمة واحدة من الصواب تصيب بها موضعها خير من أمثالها الكثيرة في غير مواضعها، مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير وإن ظن صاحبه أنه قد أتقن وأحكم.

واعلم أن هذه الأمور لا تملك إلا برحب الذرع عند ما قيل وما لم يقل. وذلك بأن لا تستعظم ما ظهر منك، وما لم يظهر، وبأن تسخو نفسك عن كثير من الصواب مخافة الخلاف والعجلة والحسد والمراء.

لا تجترئن على خلاف الناس بحضرة الوالي ثقة باعترافهم لك ومعرفتهم بفضل رأيك؛ فإنا قد رأينا الناس يعترفون بفضل الرجل وينقادون له ويتعلمون منه وهم في خلوة؛ فإذا حضروا السلطان لم يرض أحد منهم أن يقر له أو يكون عليه في الرأي والعلم فضل، فاجترأوا عليه بالخلاف والنقض. فإن ناقضهم صار كأحدهم وليس بواجد في كل شيء وحين سامعًا فهمًا وقاضيًا عدلًا. وإن ترك مناقضتهم كان مغلوبًا مردود القول.

إذا أصبت عند السلطان لطف منزلة بغناء تجده عندك وهوى يكون لك فيه تطمحن كل الطماح، ولا تزينن لك نفسك أن تدخل بينه وبين أليفه وموضع سره وثقته قبلك وتلتمس أن تقتلعه وتدخل دونه، فإن هذه خلة من خلال السفاء، وقد يبتلى بها الحكماء عند الدنو من السلطان حتى يحدث الرجل منهم نفسه بأن يكون دون الأهل والولد لفضل يظنه بنفسه أو لنقص يظنه بغيره.

ولكل رجل من الملوك أو ذي مُنة من السوق أليف وأنيس قد عرف روحه، واطلع قلبه على قلبه، فليست عليه مؤونة في تبذل يتبذله عنده، أو رأي يستنزله منه، أو سر يفشيه إليه. غير أن تلك الأنسة وذلك الإلف يستخرج من كل واحد منهما ما لم يكن ليخرج عند الانقباض والتشدد. فإذا كلفتك نفسك السمو إلى منزلة من قد وصفت لك فاقدعها عن ذلك بمعرفة فضل الأليف والأنيس. وإذا حدثتك نفسك أو غيرك أنك أولى بالمنزلة عند السلطان من بعض ثقاته وذوي أنسه فاذكر الذي عند السلطان من حق أليفه وأنيسه في التكرمة والذي يجده عند الأنيس والأليف مما ليس واجدا عند غيره، فليكن

هذا ما تحفظه على نفسك وتعرف به عذر السلطان. والرأي لك في نفسك مثل ذلك إن أرادك مريد على الدخول دون أليفك وأنيسك وموضع ثقتك وسرك وجدك وهزلك.

اعلم أن الرجل إذا كان ذا جاه عند السلطان فإنه لا محالة سيرى منه ما يخالفه من الرأى في بعض الأمور. فإذا آثر أن يكره كل ما خالفه أوشك أن يمتعض من الجفوة يراها في المجلس، أو النبوة في الحاجة، أو الرد للرأي، أو الادناء لمن لا يهوى إدناءه، والإقصاء لمن يكره إقصاءه. فإذا وقعت في قلبه الكراهة تغير لذلك وجهه وكلامه ورأيه، حتى يظهر ذلك للسلطان وغيره، فيكون لفساد منزلته سببا. فذلل نفسك على احتمال ما خالفك من رأى السلطان، وقررها بأن السلطان إنما كان سلطانا لتتبعه في رأيه وهواه وأمره، ولا تكلفه اتباعك وتغضب من خلافه إياك.

لا تكونن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك وتقدير الأمر على أهوائهم دون هواك، وعلى ألا تكتمهم سرك، لا تستطلع ما كتموه وتخفي ما أطلعوك عله حتى تحمي نفسك الحديث به؛ وعلى الاجتهاد في رضاهم والتثبيت لحججهم والتصديق لمقالتهم والتزيين لرأيهم، وعلى قلة الانتفاء مما فعلوه إذا أساءوا، وقلة الانتحال لما فعلوه إذا أحسنوا، وكثرة النشر لمحاسنهم، وحسن الستر لمساوئهم، والمقاربة لمن قاربوا وإن كانوا بعداء، والمباعدة لمن باعدوا وإن كانوا أقرباء، والاهتمام بأمرهم وإن لم يهتموا به، والحفظ له وإن ضيعوه، والذكر له وإن نسوه، والتخفيف عنهم لمؤونتك، واحتمال كل مؤونة لهم، والرضا منهم بالعفو، وقلة الرضا من نفسك بالمجهود.

وإن وجدت عن السلطان وعن صحبته غني فأغن عنه نفسك، واعتزله جهدك، فإنه من يخدم السلطان يحل بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة.

من تمام حسن الأدب والخلق أن تسخو نفسك لصاحبك وأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب إليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك بما استطعت.

اخزن عقلك وكلامك إلا عند إضابة الرأي والقول، بإصابة الموضع.

فإن أخطأت ذلك، أدخلت الهجنة على علمك حتى تأتي به، إن أتيت به، في غير موضعه وهو لا بهاء له ولا طلاوة.

ليعرف العلماء منك أنك إذا اجتمعت معهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول.

لا تخلطن بالجد هزلا، ولا بالهزل جدا؛ فإنك إن خلطت بالجد هزلا هجنته، وإن خلطت بالهزل جدا كدرته. غير أني أقول: قد عرفت موضعًا واحدًا إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأي، وظهرت فيه على الأقران؛ وذلك أن يتوردك متورد بالسفه والغضب وسوء اللفظ فتجيبه إجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق.

إذا أقبل إليك مقبل بوده فسرك ألا يدبر عنك فلا تنعم الإقبال عليه والتفتح له، فإن الإنسان طبع على ضرائب لؤم: فمن شأنه أن يرحل عمن لصق به، ويلصق بمن رحل عنه.

لا تكثرن ادعاء العلم في كل ما يعرض، فإنك من ذلك بين فضيحتين: إما أن ينازعوك فيما ادعيت فيهجم منك على الجهالة والصلف؛ وإما ألا ينازعوك ويخلو الأمر في يديك فينكشف منك على التصنع والدعوى فقط.

إن استطلت على الأكفاء، فلا تثقن منهم بالصفاء.

إن أنست من نفسك فضلا فتطلعت نفسك إلى أن تذكره وتبديه، فاعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر في قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل. وإنك إن صبرت ولم تعجل، ظهر ذلك منك على الوجه الجميل المعروف.

إذا أردت أن تلبس ثوب الجمال وتتحلى به وبحلية المودة عند العامة وتسلك الجدد الذي لا غبار فيه ولا عثار، فكن عالمًا كجاهل، وناطقًا كعيي: فإن قلة ادعاء العلم ينفي عنك الحسدة. والنطق، إذا احتجت إليه، فتسبلغ حاجتك، وأما الصمت فسيكسبك المحبة والوقار.

إذا رأيت الرجل يحدث حديثا قد علمته أو يخبر خبرا قد سمعته فلا تشاركنه فيه ولا تفتحه عليه حرصًا على أن يعلم الناس أنك قد علمته، فإن في ذلك سوء أدب وخفة وشحًا.

اعلم أن لسانك أداة مغْلبة يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك، وكلٌ غالب عليه مستمتع به يصرفه في محبته. فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإذا غلب عليه

شيء من أشباه ما سميت لك فهو لعدوك؛ فإن استطعت أن تحتفظ به حتى لا يكون إلا لك، ولا يستولي عليه أو يشاركك فيه عدوك، فافعل.

وإذا أصاب أخوك فضل منزلة أو سلطان، فلا ترينّ أن سلطانه زادك له ودا، ولا يعرفن منك عليه بماضي إخائك تدللا، وأره أن سلطانه زادك له توقيرًا، من غير أن يقدر أنك تزيده ودًا ونصحًا، بل إنك ترى حقًا للسلطان الوقار والإجلال. وكن في مداراته والرفق به كالمؤتنف ما قبله، ولا تقدر الأمور بينك وبينه على ما كنت تعرف من أخلاقه، فإن الأخلاق مستحيلة مع السلطان. وربما رأينا الرجل المدل على السلطان بقدمه قد أضر به قدمه.

لا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنمًا، ما لم يغلبك الاضطرار.

احترس من سَوْرة الغضب وسورة الشهوات؛ وأعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها: من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة.

واعلم أنك لا تصيب الغلبة إلا بالجهاد. واعلم أن قلة الاعداد لمدافعة الطبائع المتطلعة هو الاستسلام، وأنه ليس أحد إلا فيه من كل طبيعة سوء غريزة. وإنما التفاضل بين الناس بمغالبة طبائع السوء.

فأما أن يسلم أحد من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع. إلا أن الرجل القوي إذا كان يكابرها أبدًا بالقمع لها كلما تطلعت، لا يلبث أن يميتها حتى كأنها ليست فيه، وهي في ذلك كامنة ككمون النار في العود. فإذا وجدت قادحًا من سبب أو غفلة استورت كما تستوري النار عند القدح؛ ثم لا يبدأ ضرها إلا بصاحبها، كما لا تبدأ النار إلا بعودها الذي كانت فيه.

ذلّلْ نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء، فإن ذلك مما لا يكاد يخطئك. وإن الصبر صبران: صبر الإنسان على ما يكره، وصبره عما يحب. والصبر على المكروه أكبرهما وأشبهما بأن يكون صاحبه مضطرًا.

واعلم أن اللئام أصبر أجسادًا، والكرام أصبر أنفسًا؛ وليس الصبر المحمود الممدوح أن يكون جلد الإنسان وقاحًا على الضرب، أو رجله قوية على المشي، أو بدنه قويا على العمل - فإن هذه من صفات البهائم، ولكن أن يكون للنفس غلوبًا، وللأمور محتملًا، وفي الضراء متجملًا، ولنفسه عند الحفاظ مرتبطًا، وللحزم مؤثرًا،

وللهوى مجانبًا، وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفًا، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظبًا، ولبصيرته بعزمه منفذًا.

عود نفسك السخاء. والسخاء سخاءان: سخاء الإنسان بما في يديه، وسخاؤه عما في أيدي الناس. وسخاء الإنسان بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة. وتركه ما في أيدي الناس أمحض في التكرم وأنزه من الدنس. فإن هو جمعهما فبذل وعف، فقد استكمل الجود والكرم.

حبب إلى نفسك العلم حتى ترامه وتألفه ويكون لهوك ولذتك وسلوتك.

واعلم أن العلم علمان: علم للمنافع، وعلم لتزكية العقول. وأفشى العلمين وأحراهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يحض لعيه هو علم المنافع. وللعلم، الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها، فضل منزلة عند ذوي الألباب.

ليكن مما تصرف له الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودًا، واعلم أن الحسد خلق لئيم؛ ومن لؤمه أنه إنما يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاك والخلطاء.

ليكن مما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو، فتنذره نفسك وتؤدنه بحربك قبل الإعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك، وتوقد ناره عليك. واعلم أنه أعظم لخطرك أن تُري عدوك أنك لا تتخذه عدوا، فإن ذلك غرة له وسبيل لك إلى القدرة عليه. وإن أنت قدرت على اعتقاب العداوة وارتفعت أن تكافئ بها، فهنالك استكملت عظم الخطر، وإن كنت مكافئا بالعداوة والضرر.

وإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية، وعداوة الخاصة بعداوة العامة، فإن ذلك هو الظلم والعار. واعلم انه مع ذلك ليس كل عداوة تكافأ بمثلها، كالخيانة: فإنها لا تكافأ بالخيانة، والسرقة فإنها لا تكافأ بالسرقة. ومن الحيلة في أمر عدوك أن تصادق أصدقاءه وتؤاخي إخوانه، فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتجافي. وليس أحد به طَرَق يمتنع من مؤاخاتك إذا التمست ذلك منه؛ وإن كان إخوان عدوك غير ذوي طرق فلا عدو لك.

لا تتخذن اللعن والشتم سلاحًا على عدوك، فإنه لا يجرح في نفس ولا مال، ولا دين ولا منزلة؛ ولا تدع، مع السكون عن شتم عدوك، إحصاء معايبه ومعاثره؛ وتتبع عوراته حتى لا يشذ عنك من ذلك كبير ولا صغير، من غير أن يشيع ذلك عنده فينساء به أو يستعد له؛ أو تذكره في غير موضعه، فتكون كمستعرض الهواء بنبله قبل إمكان الرمي. فإن أردت أن تكون داهيا فلا تظهرن للناس ذلك فيسمونك داهيا. فإن من عرف بالدهاء صار خاتل علانية، وحذره الناس حتى يمتنع منه الضعيف. ومن أرب الأريب دفن رأيه ما استطاع حتى يعرف بالمسامحة في الخليقة والطريقة. ومن أربه ألا يوارب العاقل المستقيم الذي يطلع على غامض رأيه فيمقته عليه.

إن أردت السلامة فأشعر قلبك التهيب للأمور من غير أن يظهر منك فيفطن الناس لتهيبك وتجرؤهم عليك، ويدعو ذلك إليك منهم كل الذي تهاب. فاشعب - لمداراة ذلك وإظهار الجرأة والتهاون - طائفة من رأيك. وإن ابتليت بمحاربة عدو فخالف هذه الطريقة التي وصفت لك من استشعار الهيبة وإظهار الجرأة والتهاون. وعليك بالحذر في عملك والجرأة في قلبك حتى تملأ قلبك جرأة وشجاعة ويستفرغ عملك الحذرُ.

إن من عدوك من سبيلك أن تعمل في هلاكه، ومنهم من تعمل في مصالحته، ومنهم من تعمل في البعد منه. فاعرفهم على منازلهم. ومن أقوى القوة على عدوك وأعز أنصارك في الغلبة له: أن تحصى على نفسك العيوب والعورات كما تحصيها على عدوك، وتنظر عند كل عيب تسمعه أو تراه لأحد من الناس: هل قارفت مثله أو ما يشاكله؟ فإن كنت قد قارفت مثله شيئًا، جعلته فيما تحصى على نفسك؛ حتى إذا أحصيت ذلك كله فكاثر عدوك بإصلاح عيوبك، وتحصين عوراتك، وإحراز مقاتلك وخذ نفسك بذلك ممسيًا ومصبحًا: فإن أنست منها دفعا لذلك أو تهاونًا به، فاعدد نفسك عاجزًا ضائعًا خائبًا معورًا لعدوك، ممكنا من رميك. وإن حصل من عيوبك وعوراتك بعض ما لا تقدر على إصلاحه من ذنب قد مضى وأمر يعيبك عند الناس لا تعرفه أو لا تراه أنت عيبا، فاحفظ ذلك وما عسى أن يقول فيه قائل من حسبك أو من مثالب أو إخوانك وأخذانك، ثم اجعل ذلك كله نصب عينك. واعلم أن عدوك مريدك به فلا تغفل عن التهيؤ له والإعداد لحيلتك وحجتك فيه سرا وعلانية.

فأما الباطل فلا تروعن به قلبك، ولا تشغلن بشيء من أمره، فإنه لا يهولك ما لم يقع؛ وإن وقع، اضمحل.

اعلم أنه قلما بُدِه أحد بشيء يعرفه من نفسه - وقد كان يطمع في خفائه على الناس - فعيره به معير عند سلطان أو غيره، إلا كاد يشهد عليه به وجهه وعينه ولسانه، للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون من انكساره وفتوره عند تلك البداهة. فاحذر هذه، وتصنع لها، وتقدم في أخذ العدة لبغتاتها.

* * * * *

اعلم أن أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار - الإغرامُ بالنساء. ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمع عينه إلى ما ليس عنده منهن. وإنما النساء أشباه، وما يزين في العيوب والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة. بل كثير مما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما توق إليه نفسه. وإنما المرتغب عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمرتغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس؛ بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام؛ وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاوتًا وتفاضلًا مما في رحالهم من النساء. ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس به يرى المرأة من بعيد متلفعة في ثيابها فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلقها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر. ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولا يزال مشعوفًا بما لم يذق منهن حتى لو لم يبق في الأرض غير مرأة واحدة لظن أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق. وهذا هو الحمق والشقاء. ومن لم يحْمِ نفسه ويظلفها عن الهوى ويخليها عن الطعام والشراب والنساء في بعض أوقات شهواته وقدرته كان أيسر ما يلحقه في ذلك ضعف حوامل جسده. وقلما يوجد الإنسان إلا مخادعًا لنفسه في أمر جسده: عند الطعام والحمية والدواء، وفي أم مروءته: عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دينه: عند الريبة والشبهة والطمع.

* * * * *

إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك برتبة في كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعال - فافعل. فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك وتقريبهم إياك

من المجلس الذي تباعدت منه وتعظيمهم من أمرك ما لم تكن تعظم، وتزيينهم من كلامك ورأيك ما لم تزين - هو الجمال.

إن غلبت على الكلام فلا تغلبن على السكوت، ولعله أن يكون أشدّهما لك زينة، وأجلبهما إليك مودة، وأبقاهما للمهابة، وأنفاهما للحسد. إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح بمدافعتها والروغان منها، فإنه لا احة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عليك، والضجر منها هو الذي يراكمها عليك. فتعهد من نفسك في ذلك خصلة قد رأيتها تعتري أصحاب الأعمال: أن الرجل يكون في أمر من أموره فيرد عليه شغل آخر ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره فيكدر نفسه تكديرًا يفسد ما كان فيه وما ورد عليه حتى لا يحكم واحدًا منهما. فإن ورد عليك مثل ذلك، فليكن معك رأيك الذي تختار به الأمور. ثم اختر أوْلى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه، ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخر إذا وضعت الرأي موضعه وجعلت شغلك في حقه.

اجعل لنفسك في كل شيء غاية ترجو القوة والتمام عليها. واعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التقصير؛ وإن جاوزتها في عمل العلم صرت إلى الجهالة؛ وإن جاوزتها في تكلف رضا الناس والخفة معهم في حاجاتهم كنت المحسور المضيع.

اعلم أن بعض العطية لؤم، وبعض السلاطة عِي، وبعض العلم جهل. فإن استطعت ألا يكون عطاؤك جورا، ولا بيانك هذرا، ولا علمك وبالا - فافعل.

واعلم أنه سيمر بك من الأحاديث ما يعجبك: إما مليحه، وإما رائعه. فإذا أعجبك كنت خليقًا أن تحفظه، فإن الحفظ موكل بما راع. ثم ستحرص على أن تعجّب منها أقواما، فإن الحرص على التعجب من شأن الناس؛ وليس كل معجب لك معجبًا لغيرك. فإذا نشرت ذلك المرة والمرتين فلم تره وقع من السامعين موقعه منك، فانزجر من العود له، فإن التعجيب من غير عجب سقط شديد. وقد رأينا من الناس من يعلق الشيء فلا يقلع عن الحديث به ولا يمنعه قلة قبول أصحابه من أن يعود.

انظر في الأخبار الرائعة فتحفظ منها، فإن من شأن الناس الحرص على الأخبار، ثم لا سيما ما ترتاع له الناس. وأكثر الناس من يتحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع ذلك؛ وهذا مفسدة للصدق ومُزراة بالرأي. فإن استطعت ألا تخبر بشيء إلا وأنت

مصدق به ولا يكون تصديقك إلا ببرهان - فافعل، ولا تقل كما يقول السفهاء: "أخبركم بما سمعت" ـ فإن الكذب أكثر ما أنت سامع، وإن السفهاء أكثر من هو قائل. وإن صرت للأحاديث واعيًا وحاملًا، كان ما تعي وتحمل عن العامة أكثر مما يخترع المخترع من الأحاديث بأضعاف.

اعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه، وأن سفه السفيه سيطلع لك منه جدا. فإن عارضته وكافأته بالسفه، فكأنك قد رضيت ما أتى وأحببت أن تحتذى مثاله. فإن كان ذلك عندك مذمومًا، فحقق ذمك إياه بترك معارضته. فأما أن تذمه وتمثله فليس لك ذلك.

اعلم أن الجبن مَقتلة، وأن الحرص محرمة. فانظر فيما رأيت أو سمعت: أمن قتل في الحرب مقبلا أكثر، أم من قتل مدبرا؟ وانظر أمن يطلب منك بالاجمال والتكرم: أحق أن تسخو له نفسك بطلبته، أم من يطلب إليك بالشره والحرص؟

اعلم أنه ليس كل من كان لك فيه هوى فذكره ذاكر بسوء أو ذكرته أنت بخير ينفعه ذلك أو يضره ذكرهم. فلا يستخفنك ذكر أحد من صديق أو عدو إلا في موطن دفع أو محاماة، فإن صديقك، إذا وثق بك في موطن المحاماة، لم يحفل بما تركت مما سوى ذلك، ولم يكن له عليك سبيل لائمة. وإنّ أحزم ذلك في أمر عدوك ألا تذكره إلا حيث يضره، وألا تعد يسر الضر ضرا.

اعلم أن الرجل قد يكون حليمًا فيحمله الحرص على أن يقول الناس هو جلد، والمخافة أن يقولوا هو مهين على أن يتكلف الجهل. وقد يكون الرجل زِمّيتا فيحمله الحرص على أن يقال هو لسن، والمخافة من أن يقال بكيء على أن يقول في غير موضعه فيصير هذرا. فاعرف هذا وأشباهه واحترس منه كله.

إذا بدهك أمران متناقضان لا تدري أيهما الصواب: فانظر أقربهما إلى هواك فخالفه، فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى.

ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك.

اعلم أنه ليس شيء من العلم يذكر عند غير أهله إلا عادوه ونصبوا له وأنغضوا عليه وحرصوا على أن يجعلوه جهلا، حتى إن كثيرا من اللهو واللعب الذي هو أخف الأشياء على الناس ليحضره من لا يعرفه فيثقل عليه ويغتم به.

ليعلم صاحبك وصديقك أنك حدب على صاحبه وصديقه. وإياك - إن عاشرك امرؤ أو رافقك -أن يرى منك ولوعًا بأحد من أعوانه وأصحابه، فإن ذلك يأخذ من القلوب. ولطفك بصاحب صاحبك أحسن عنده موقعا من لطفك به نفسه.

اتق الفرح عند المحزون، واعلم أنه يحقد على المنطلق، ويشكر للمكتئب.

تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام. ومن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتى يقضى حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه، والنظر إلى وجه المتكل، والوعى لما يقول.

إذا رأيت نفسك قد تصاغرت الدنيا عندها ودعتك إلى الزهادة فيها على حال تعذر، فلا يغرنك ذلك من نفسك على تلك الحال فإنها ليست بزهادة، ولكنه ضجر واستخذاء وتغير من النفس عند ما أعجزها من الدنيا، وغضب منك عليها لما التوى عليك منها. فلو تممت على رفضها، وأمسكت عن طلبها، أوشكت أن ترى من نفسك من الضجر والجزع أشد من ضجرك الأول بالأضعاف. ولكن إذا دعتك نفسك إلى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك فأسرع إجابتك إياها.

إذا كنت في جماعة فلا تعُمّن جيلا من الناس أو أمة من الأمم بشتم أو ذم، فإنك لا تدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك. ولا تذمن مع ذلك اسما من أسماء الرجال أو النساء بقول فتقول: هذا قبيح من الأسماء، إذ كنت لا تدري لعلك توافق بذلك بعض جلسائك في بعض أسماء الأهلين أو الحرم أو غيرهم. ولا تصغرن من هذا شيئا فكله يجرح في القلب، وجرح اللسان كجرح اليد، بل أشد.

اعلم أن مِن تنكّبِ الأمور ما هو حذر، ومنه ما هو خور. فإن استطعت أن يكون جبنك من الأمر قبل مواقعتك إياه، فإن ذلك هو الحذر فافعله ولا تنغمس فيه، ثم تتهيبه، فإن ذلك هو الخور.

قد رأينا من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه فيكون مما يشتفي به من تصغير صاحبه وتكدير النعمة أن يذكر الزوال والفناء والدول كأنه واعظ أو

قاص، فلا يخفى ذلك على من يعني به ولا غيره؛ ولا ينزل قوله بمنزلة الموعظة والإبلاغ، لكن بمنزلة الضجر بالنعمة والاغتمام لها وبها، والاستراحة إلى غير رواح.

قال: إني مخبرك عن صاحب كان لي، وكان أعظم الناس في عيني. وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه. كان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد. كان خارجا من سلطان لسانه، فلا يقول فيما لا يعلم، ولا ينازع فيما علم. كان خارجا من سلطان فرجه، فلا تدعوه إليه مؤونة، ولا يستخف له رأيا ولا بدنا. كان لا يأشر عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة. كان خارجا من سلطان الجهالة، فلا يقدم أبدا إلا على ثقة بمنفعة. كان أكثر دهره صامتا، فإذا قال بذّ القائلين. كان يرى متضاعفًا مستضعفًا، فإذا جاء الجد كان الليثَ عاديا. كان لا يدخل في دعوى، ولا يشرك في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضيًا عدلًا وشهودًا عدولًا.

كان لا يلوم أحدا على ما قد يكون في مثله العذر حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجحا عند من لا يجد عنده البرء، ولا صاحبا إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا. كان لا يتبرم ولا يستخط ولا يتشهى ولا يتشكى، ولا ينتقم من الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخض نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق، إن أطلقت ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

تم كلام عبد الله بن المقفع.

كلام أبي نصر الفَارَابي[١] في وصايا يعم نفعها لجميع من يستعملها من جميع طبقات الناس

قال: كل واحد من الناس متى ما رجع إلى نفسه وتأمل أحوالها وأحوال غيره من أفناء الناس، وجد نسه في رتبة يشركه فيها طائفة منهم، ووجد فوق رتبته طائفة هم أعلى منه منزلة بجهة أو جهات، ووجد دونها طائفة هم أوضع منه بجهة أو جهات، لأن

(١) الفَارَابي (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ = ٨٧٤ - ٩٥٠ م): هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابيّ، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل، مستعرب. ولد في فاراب (على نهر جيحون) وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. ويقال: ان الآلة المعروفة بالقانون، من وضعه، ولعله أخذها عن الفرس فوسعها وزادها إتقانا فنسبها الناس إليه.

وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) وكان زاهدا في الزخارف، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب، يميل إلى الانفراد بنفسه، ولم يكن يوجد غالبا في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض. له نحو مئة كتاب، منها (الفصوص - ط) ترجم إلى الألمانية، و (إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها - ط) و (آراء أهل المدينة الفاضلة - ط) و (إحصاء الإيقاعات - خ) في النغم، نحو ٣٠ ورقة، في معهد المخطوطات، و (المدخل إلى صناعة الموسيقى - خ) و (الموسيقى الكبير - ط) و (الآداب الملوكية - خ) و (مبادئ الموجودات) رسالة ترجمت إلى العبرية وطبعت بها، و (إبطال أحكام النجوم - خ) نسخته بطهران، و (أغراض ما بعد الطبيعة - خ) و (السياسة المدنية - خ) و (جوامع السياسة - ط) رسالة، و (النواميس) و (الخطابة) و (وما ينبغي أن يتقدم الفلسفة) وكتاب في أن (حركة الفلك سرمدية) ولمصطفى عبد الرازق، كتاب (فيلسوف العرب - ط) في سيرته ومثله (الفارابيّ - ط) لإلياس فرح، و (الفارابيّ - ط) لعباس محمود.

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢: ٧٦ وطبقات الأطباء ٢: ١٣٤ - ١٤٠. وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠ وابن الوردي ١: ٢٨٤ وآداب اللغة ٢: ٢١٣ والبداية والنهاية ١١: ٢٢٤ وفيه: (كان يقول بالمعاد الروحانيّ لا الجثماني) وفي المقتطف ٥٧: ٣١٤ و ٤٠٢ و ٤٩٠ بحث مستفيض عنه والوافي بالوفيات ١: ١٠٦ ومفتاح السعادة ١: ٢٥٩ وأخبار الحكماء ١٨٢ وكارادوفو B Carra de Vaux في دائرة المعارف الإسلامية ١: ٤٠٧ - ٤١٢ والذريعة ١: ٦٦ ثم ٢: ٢٣٦ وإحصاء العلوم: مقدمته. وانظر Huart ٢٨١ ومحاضرات الفلسفة العربية للكونت دي جلارزا ٤ - ٣٥ ومجلة معهد المخطوطات ٤: ٣٩.

الملك الأعظم، وإن وجد نفسه في محل لا يرى لأحد من الناس في زمانه منزلة أعلى من منزلته، فإنه إذا تأمل حاله نعما وجد فيهم من يفضل عليه بنوع من الفضيلة إذ ليس في أجزاء العالم ما هو كامل من جميع الجهات، وكذلك الوضيع الخامل الذكر يجد من هو دونه بنوع من الضعة. فقد صح ما وصفنا.

وينتفع المرء باستعمال السياسات مع هؤلاء الطبقات الثلاث: أما مع الأرفعين فلينال مرتبتهم، وأما مع الأكفاء فليفضُل عليهم، وأما مع الأوضعين فلئلا ينحط إلى مرتبتهم.

ونقول أيضًا: إن أنفع الطرق التي يسلكها المرء في استجلاب علم السياسة وغيرها من العلوم - إذ هو الطريق لا غير - أن يتأمل أحوال الناس وأعمالهم ومتصرفاتهم: ما يشاهد وما غاب عنه مما سمعه وتناهى إليه منها؛ وأن ينعم النظر فيها ويميز بين محاسنها ومساوئها، وبين النافع والضار لهم منها، ثم ليجتهد في التمسك بمحاسنها لينال من منافعها ما نالهم، وفي التحرز من مساوئها ليأمن مضارها ويسلم من غوائلها مثلما سلموا.

ونقول أيضًا: إن لكل شخص من أشخاص الناس قوتين: إحداهما عاقلة، والأخرى بهيمة. ولكل واحدة منهما إرادة واختيار، وهو كالواقف بينهما. ولكل واحدة منهما نزاع غالب: فنزاع القوة البهيمية نحو مصادفة اللذات العاجلة الشهوية، مثل أنواع الغذاء وأنواع الاستفراغات وأنواع الاستراحات.

ونزاع القوة النطقية نحو العواقب المحمودة، مثل أنواع العلوم وأنواع الأفعال التي تجدي العواقب الفاضلة السليمة. وأول ما ينشأ الإنسان يكون في حيز البهائم إلى أن يتولد فيه العقل أولا أولا وتقوى فيه هذه القوة، فالقوة البهيمية إذًا أغلب عليه. وكلما كان أقوى وأغلب، وكانت الحاجة إلى إخماده وتوهينه وأخذ الأهبة والاستعداد له أشد. فواجب على كل من يروم نيل فضيلة ألا يتغافل عن تيقيظ نفسه في كل وقت وتحريضها على ما هو أصلح له، وألا يهملها ساعة واحدة؛ فإنه متى أهملها وهي حية - والحي متحرك - لم يكن لها بد من أن تتحرك نحو الطرف الذي هو بهيمي؛ وإذا تحركت نحوه تشتيت ببعض منه، حتى إذا أراد ردها عما تحركت نحوه لحقه من النصب

أضعاف ما كان يلحقه لو لم يهملها، ويتعطل وقته الذي كان ينبغي أن يحصل فيه فضيلة لاشتغاله بالاحتيال عما تحركت نحوه وفاتته تلك الفضيلة.

ونقول أيضًا: إن المرء لا يخلو في جميع متصرفاته من أن يلقى أمرًا محمودًا أو أمرًا مذمومًا، وله في كل واحد من الأمرين فائدة إن استفادها، ويجد في كل واحد منهما نفعا يمكنه جذبه إلى نفسه، ويصادف في كل واحد منهما موضع رياضة لنفسه، وهو أنه يحتال للتمسك بذلك الأمر المحمود الذي يلقاه إن وجد السبيل إلى التمسك به، أو يتشبه بالتمسك به بقدر طاقته إن أعوزه ذلك، أو يحسن ذلك الأمر عند نفسه وينبهها على فضله ويوجب عليها التمسك به متى ما وجد الفرصة لذلك، وهو لاشك واجد السبيل إلى أحد هذه السبل الثلاث. وإذا تلقاه الأمر المذموم فليجتهد في التحرز منه والتباعد عنه. وإن لم يجد إلى ذلك سبيلا، وهو واقع فيه، فليبالغ في نفيه عن نفسه بغاية ما أمكنه. فإن لم يمكنه التبرئ منه، فليعزم على نفسه أنه إذا تيسر له الخلاص منه لا يعود إلى أسبابه، وليقبح إلى نفسه دواعي ذلك الأمر ولينبهها على الاعتبار بمن نالهم مضار مثلها ـ فقد ظهر أن المرء يصادف في جميع أحواله: دقها وجلها، خيرها وشرها، موضع الرياضة لنفسه.

ونقول أيضًا: إن أول ما ينبغي أن يبتدئ به هو أن يعلم ويعتقد أن لهذا العالم وأجزائه صانعا – بأن يتأمل الموجودات كلها: هل لكل واحد منها سبب وعلة، أم لا؟ فإنه يجد عند الاستقرار لكل واحد منها سببًا وعلة عنه وُجد.

ثم ينظر إلى تلك الأسباب القريبة من الموجودات: هل لها أسباب أيضًا، أم ليست لها أسباب؟ فإنه يجد لها أيضا أسبابًا. ثم يتأمل وينظر: هل الأسباب ذاهبة إلى ما لا نهاية، أم هي واقفة عند نهاية، أم بعض الموجودات أسباب للبعض على سبيل الدور؟ فإنه يجد القول بأنها ذاهبة إلى غير نهاية محالا؛ ويجد القول بأن بعضها سبب للبعض على التعاقب محالًا أيضًا؛ لأنه يلزم من ذلك أن يكون الشيء سببًا لنفسه، كما أنه لو كان أ سببًا لـ ب، وب سببًا لـ ج، وج سببًا لـ أ لكان أ سببًا لنفسه، وهذا محال؛ فبقي أن تكون الأسباب متناهية؛ وأقل ما يتناهي إليه الكثير هو الواحد؛ فسبب الأسباب موجود، وهو واحد. ولا يجوز أن تكون ذات السبب وذات المسبب واحدًا. فسبب أسباب العالم منفرد بذاته وعما دونه. ولما لم يقدر الإنسان على معرفة شيء سوى ما شاهده

بحواسه أو فهمه بعقله عما شاهده، لم يجد بدًا من وصف الباري، الذي هو سبب الأسباب، والعبارة عنه بما وجد السبيل إليه من الألفاظ والأوصاف. فلما أراد العبارة والوصف له، علم أنه لا يلحقه شيء من جميع الأوصاف التي شاهدها وعلمها لتفرده بذاته ولأنه منزه عن كل ما أحسه وعرفه ـ لم يجد طريقًا أحسن من أن ينظر في الموجودات التي لديه. فإذا تأملها وجدها صنفين: فاضلًا وخسيسًا، ووجد الأليق بسبب الأسباب وموجدها الواحد الحق أن يطلق عليه من كل صنفين أفضلهما: - مثل أنه رأى الموجود والمعدوم وعلم أن الموجود أفضلهما فأطلق القول عليه، وقال: إنه موجود. ورأي الحي وغير الحي، وعلم أن الحي أفضل من غير الحي فأطلق القول عليه، وقال: إنه حي. ورأي العليم وغير العليم فأضاف إليه العليم - وكذلك جميع الأوصاف. وعلى أن الواجب على كل صنف من الناس إذا أراد أن يصف الباري - عز وجل - بصفة ما أن يخطر بباله مع تلك الصفة أنه منزه عن أن يشبه تلك الصفة، بل هو أفضل وأشرف وأعلى، لأنه سبب وجود كل صفة وموصوف، وأنه لا يمكن لأحد إحاطة العلم به كما هو وكما يستحق.

ثم إذا علم هذا الذي وصفناه ينبغي له ان يتأمل أجزاء العالم كلها، فإنه يجد أفضلها ما هو ذو نفس ويجد أفضل ذوي الأنفس الذي له الاختيار والإرادة والحركة التي عن روية، وأفضل ذوي الإرادة والحركة عن الروية الذي له النظر البليغ في العواقب، وهو الإنسان الفاضل. وأن يعلم مع ذلك أن الطبيعة لا تفعل شيئا باطلا، فكيف مبدع الطبيعة والباري تعالى - حيث وهب الاختيار والروية والفكر للبرية - لم يكن ينبغي أن يهمل أمرها، وكان من الواحب في عدله وصنعه المتقن أن ينهج لها نهجًا يسلكونه. ولما كان كذلك بالواجب لم يكن ينبغي أن يرسل إليها من ليس من طبعها، لأنهم لم يكونوا يقدرون على الاستفهام ممن هو من غير طبعهم. وظاهر أن في الناس وعقولهم وقوى أنفسهم تفاضلا بينا، حتى إن الواحد منهم يفوق بالفن الواحد جميع ذوي جنسه ويعجز الباقون عنه. فممكن إذا أن يكون من الناس من يقوى على أن يوحى إلى قلبه بما يعجز ذو جنسه عن مثله، حتى يقوم ذلك الواحد بتبليغ ما يُلقى إليه، ويقدر بتلك القوة وذلك الإلهام على تشريع الأحكام وتنهيج السبل الداعية إلى صلاح الخلق.

ثم ينبغي أن يعلم أنه إذا ظهر مثل هذا الواحد وتبين أمره، فالواجب على كل ذي تمييز أن يعلم أن لكل واحد من الناس مقدارًا وتمييزًا ومعرفة. فمتى وجد الأفهام

الكثيرة والآراء المختلفة مجتمعة على كلمة واحدة ولم يجد ما هو أظهر منه وأكشف وأقوى، فليتبع الكثير والآراء المتفقة من الجميع، فإن الحق معهم، والسلامة أبدا مع الكثير. وينبغي ألا تغره الواقعات في الندرة وفي الآراء المزخرفة، فإن أكثرها أباطيل إذا تؤمل نِعمّا.

ثم ينبغي أن تعلم أن المكافأة واجبة في الطبيعة، وأنها إنما تجب في الأعمال المقرونة بالنيات. والدليل على ذلك أن المرء لا يجازي على ما يعمله في نومه، ولا على سبيل بإرادته واختياره، مثل سعاله وعطاسه وحياته وموتع وتنفسه، ولا على اعتذائه واستفراغه - وإن كان فيها بعض الإرادة. ولا يجازي أيضا على نِياته المجردة.

وأول ما ينبغي أن يستدل المرء به على وجوب المكافأة هو انه إذا عرف ربه واعتقد ذكرنا من وحدانيته وتنزهه عن صفات المخلوقين ومعرفة رسوله في أي زمان كان وانتهج النهج الواضح، وجد في صدره سعة، وفي أحواله استقامة، وعن الأشرار سلامة، وعند الأخيار حُظْوة، وفي معاشه سدادًا بمقدار ما يفعله وينويه منه. فإذا تيقن ذلك فينبغي له أن يقدم على سياسة أحواله بقلب قوى ونية صادقة وصدر واسع وثقة بأن ما يأتيه من ذلك - وإن قل - يجدي عليه يَجلّ.

ويبدأ بتعهد الرؤساء بما سنصفه، فنقول: إن الإنسان لا يخلو مع من فوقه من الرؤساء من أن يكون متصديا لخدمته، أو يكون بينه وبينه حال يلقاه بها في بعض الأوقات، أو يكون بالبعد عنه لا يلقاه إلا بالذكر. فواجب على المرء أن يستعمل - مع من هو متصد لخدمته - ما نقوله: وهو أن يكون بينه وبينه اتصال وملازمة دائمة لما هو بصدده، ويكون مواظبًا على ما فوض إليه، ويجتهد أبدا أن يكون نصب عينه إذا ذكره ولا ينسى الملال، وخصوصًا من الملوك، لأن موضع الملال إنما يكون عند كثرة غشيان الناس المواضع التي ليس لهم فيها عمل، وأن يكون مادحًا له مقرظا لجميع ما يأتيه الرئيس من دقٍ وجلٍ، مجتهدًا في تحسين كل ما يفعله ويقوله، وهو واجد ذلك إذ ليس شيء من أمور العالم إلا وله وجهان: أحدهما جميل، والآخر قبيح، فليطلب لكل أمر من أموره وجها جميلا يصرفه إليه، ويتكلف ذكره بحضرته وغيبته.

فإن كان المرء ممن إليه تدبير ذلك الرئيس - مثل أن يكون وزيرا أو مشيرا أو معلما، ولا بد له من تعريفه وجه الصلاح في الأعمال - فليعلم أن الرئيس كالسيل

المنحدر من الربوة إن أراد المرء أن يصرفه إلى ناحية من النواحي وواجهه أهلك نفسه وأتى عليه السيل فغرّقه. فإن سعى معه وعلى جانبيه وتلطف لصرفه إلى الناحية التي يريدها بأن يطرح في بعض جوانبه مقدرا من السدد وتطرق له من الجانب الآخر لا ينشب أن يصرفه حيث شاء.

وينبغي له أيضًا أن يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عنه أن يجري معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه بأمر ولا نهي، بل يريه وجه الصلاح في خلاف ما يأتيته ويقبح عنده ـ في الوقت بعد الوقت، على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة – بعض ما يعرض مما هو فيه. فإنه إذا استعمل معه هذه الطريق لا يلبث أن تعود الحال بمراده وأن يكون كاتمًا لأسراره.

والحيلة في ذلك أن يكتم جميع أحواله الظاهرة بما يقدر عليه. فإن من كان كاتما للأحوال الظاهرة، فكم بالحرى ألا يعثر منه على إفشاء سر باطن، ولا يؤمن على السر المكتوم أن يظهر ببعض الأحوال الظاهرة، لأن الأمور والأحوال متصلة متعلقة بعضها ببعض. وأن يعلم أن للرؤساء هممًا ينفردون بها عمن سواهم من الناس، وهي أنهم يعتقدون في جميع من دونهم الاستخدام والاستعباد، وفي أنفسهم الإصابة في جميع ما يأنوه. وإنما تحدث هذه الهمة فيهم لكثرة مدح الناس لهم وإطرائهم أعمالهم وتصويبهم آراءهم، وذلك في طباع كل الناس. وأن يحترز كل الاحتراز بأن يخبر عن نفسه بحضرة الرئيس شيئا بمكن أن يتخذ بوجه من الوجوه جرما عليه وإن كان في غاية الانبساط معه، وألا يقر بما يخبر الرئيس عنه مما يستقبح: فشتان بين الخبر وبين الإقرار، وليس يؤمن تغيير الأحوال. فأما إذا اعترض بينه وبين الرئيس حال لا يمكن صرف القبيح إلا إليه أو إلى الرئيس فقط، فليجتهد في صرف ذلك القبيح إلى إلى نفسه وليجعل لذلك أوجها. فإذا اتجه القبيح نحوه وتبرأت ساحة الرئيس منه أو كاد أن يتجه فليحتل لأن يطلب لذلك الأمر سببا يكون بدؤه من غير لترجع اللائمة عليه، وإن كان بقصد الثاني كيلا يلتزم اللائمة.

وما من شيء أبلغ وأعم نفعًا في باب العبودية من ترك المرء حظ نفسه في جميع ما يباشر من الأعمال لرئيسه. فإنه ما من أمر يتعاطاه الإنسان مما هو بينه وبين الرئيس

إلا ويجد لنفسه موضع حظ. فينبغي له أن يتركه ويتجنبه ويستخلص ما هو حظ الرئيس. فإنه مهما فعل ذلك، اجتنى ثمرة خيره.

ومهما اشتغل باستيفاء حظه، لم يقع الأمر على جهته ووقع فيه خلل. وترك الإمر خير من إفساده. وينبغي أن يتلطف كل التلطف في نيل المنافع من جهة الرؤساء بألا يلح في السؤال وألا يديمه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه، ويجتهد في أن يطلب من الرؤساء أسباب المنافع، لا المنافع أنفسها، مثل إطلاق اليد في وجوه تجلب منها الأموال والمنافع ليقل السؤال ويكثر النفع. ويجتهد في أن ينتفع بالرئيس، لا أن ينتفع منهم، لأن من انتفع بهم أعزوه، ومن انتفع منهم ملوه، ويضع نفسه عندهم في صورة من ينخلع عن ملكه وقنيته لهم بأهون كلمة وأدون سعى. وليحذر كل الحذر من أن يتصور عندهم منه أنه يضن بماله أو يحب أن يستأثر بشيء من مقتنياته، فإنه حينئذ يصير بعُرْض من الاستقصاء، والممنوع محروص عليه، والمبذول مملول منه. ويجتهد في أن يظهر في كل ما يقتنيه أنه إنما يفعله لتكون زينته وجماله للرئيس، لا لنفسه، فإنه ملاك الإبقاء. وليحذر أنه إنما يفعله لنفسه شيئا مما ينفرد به الرئيس أو مما يليق بالرؤساء الذين فوقه، فإن كل من اتخذ شيئًا من ذلك فقد عرض نفسه للهلاك، وعرض ذلك الشيء للذهاب.

وينبغي ألا يظهر من نفسه الاستغناء عن الرؤساء، ولا فيما يقل مقداره؛ وأن يكون مُظهرًا أبدًا قناعة ورضًا بكل ما يتصرف فيه من الأمور والأموال.

ومتى ما لحقته سخطة من الرئيس أو ملال أو ما أشبهه فليجتهد في ترك الشكاية عنده، وليحذر من إظهار العداوة له والحقد، وليصرف وجه الذنب فيه إلى نفسه. ثم ليجتهد وليتلطف لتجديد حال تزيل تلك السخطة بأهون ما يقدر عليه. فهذه قوانين ينتفع باستعمالها في معاشرة الرؤساء.

* * * * *

فأما التي ينبغي أن يستعملها مع الأكفاء فسنذكر منها، ونقول: إن الأكفاء لا يخلون من أن يكونوا أصدقاء أو أعداء، أو لا أصدقاء ولا أعداء.

والأصدقاء صنفان: أحدهما الأصفيان المخلصون في الصداقة، وينبغي للمرء أن يديم ملاطفتهم وتعهد أسبابهم وإهداء ما يستحسنه وما يتيسر له إليهم في كل وقت

ويحيي الحال فيما بينه وبينهم بذلك من غير أن يظهر منه ملال أو تقصير ويجتهد في الاستكثار منهم، فإن الصديق زين المرء وعضده وعونه وناصره ومذيع فضائله وكاتم هفواته وماحي زلاته. ومهما كان هؤلاء أكثر، كانت احوال فيما بينهم أحسن وأقوم.

والصنف الآخر هم الأصدقاء في الظاهر من غير صدق فيما يظهرونه، بل بتشبه وتصنع ـ فينبغي للمرأ أن يجاملهم ويحسن إليهم ولا يطلعهم على شيء من أسراره، وخصوصًا من عيوبه، ولا يلقي إليهم خواص أحاديثه وأحواله، ولا يحدثهم عن نعمه ولا عن أسباب منافعه، وليجتهد في استمالتهم والصبر معهم، ومعاملتهم بحسب الظاهر دون أخذهم بالبواطن، ولا يأخذهم بالتقصير ولا يقطع عتابهم فيما يقع منهم من التقصير، ولا يجازيهم على ذلك. فإنه مهما فعل ذلك يرجى صلاحهم ورجوعهم إلى مراده ولعلهم يصيرون في رتبة الأصفياء له. وليس شيء أدل على صدق الإخاء وإضمار الوفاء ولا أشد استجلابا للمحبة ووجوب الحق من تعهد أحوال الأصدقاء. فإن المرء، إذا رأى صديقه وهو يتعهد أحوال أخلائه والمتصلين به، يستدل بذلك على صدق محبته له ويثق بوداده ويقوى تأميله ورجاؤه عنده.

وأفضل ما يستعمله المرء مع أصدقائه هو أن يتعهد أحوالهم عند الحاجة والفاقة، ويواسيهم بما يمكنه من غير أن يحوجهم إلى المسألة، ويتفقد أقاربهم وعيالاتهم إذا ماتوا. فإنه متى شُهر بذلك رغب في صداقته كل أحد، وبذلك تكثر أصدقاؤه.

والأعداء أيضا صنفان: أحدهما ذوو الأضغان والأحقاد. وينبغي للمرء أن يحترس منهم كل الاحتراس، ويبحث عن أحوالهم، ويستطلع أخبارهم بكل ما أمكنه. ومهما اطلع منهم على مكر أو خديعة أو تدابير يدبرونها فليقابلهم بما يناقض تدبيرهم، ويكثر الشكاية منهم إلى الرؤساء وأفناء الناس ليعرفوا بعداوته حتى لا تنجع فيه مكائدهم ولا ينفق عليهم قولهم فيه، وليصيروا متهمين عند الناس في أقوالهم وأفعالهم بما ظهر عند الناس من عداوتهم إياه. وكل من يئس من صلاحه وتيقن سوء طبعه وتمكن الضغينة من قلبه، فلينتهز الفرصة في إهلاكه؛ ومهما وجدها، فلينتهزها ولا يتغافل عما يمكنه إذا تيقن أمره من إهلاكه. واعلم أنه ربما لا يقدر على إتمام أمره والنجاة منه، فلا تشرع في شيء منه لئلا يجد العدو ما يتعلق به عند الناس مما يمهد لنفسه عندهم في عداوته عذرا.

والصنف الآخر من الأعداء هم الحساد. وينبغي للمرء أن يظهر أبدا ما يغيظهم وما يؤذيهم بأن يلقي إليهم ذكر النعم التي يختص بها المرء لتذوب لها نفوسهم، ويحترز مع ذلك من دسيسهم ويحتال لظهور حسدهم فيه وفي غيرهم من الناس ليعرفوا بذلك.

فأما سائر الناس الذين ليسوا بصديق ولا عدو ولا متصنع فهم طبقات سنذكر جُلها وجُل ما ينبغي للمرء أن يستعمل مع كل طائفة منها.

فمنهم النصحاء الذين يتبرعون بالنصيحة. فالواجب على المرء ان يتفرغ للخَلوة مع كل من ادعى أنه ناصح له، ويستمع إلى قوله، ويعزم على قلبه ألا يغتر بكل قول يسمعه، وألا يعجل إلى قوله، ولا يعمل بكل ما ينهى إليه، بل يتأمل أقاويلهم، ويتعرف أغراضهم غاية التعرف، ليقف من معرفة أغراضهم على حقيقة أقاويلهم. وإذا لاح له وجه الصواب وحقيقة الأمر في شيء مما ألقوه إليه، بادر إلى إنفاذ الأمر فيه. وليكن تلقيه لكل منهم بهشاشة وإظهار للحرص على ما يلقيه إليه.

ومنهم الصلحاء، وهم ناس يتبرعون لإصلاح ما بين الناس، فيجب على المرء أن يمدحهم أبدا على ما يفعلونه، وأن يتشبه بهم في جميع أحواله. فإن مذاهبهم مرضية عند جميع الناس. ومهما تشبه المرء بهم، عرف بالخير وحسن النية، وميز من السفهاء.

فاما السفهاء فيجب على المرء أن يستعمل معهم الحلم، وألا يواثبهم ولا يقابلهم بما هم فيه من السفاهة، بل يتلقاهم أبدا بحلم رزين وسكون بليغ، ليعرفوا قلة مبالاته بما هم فيه ولا يؤذونه. ومتى تلقوه بالشتم والسفه، فيجب أن يتلقاهم بالمحقرة وقلة الاكتراث.

ومنهم أهل الكبر والمنافسة فيجب على المرء أن يقابلهم بمثله، لأنهم إن تواضع لهم أحسوا فيه بضعف، وتوهموا أن فيه لينًا، وأن فعلهم ذلك صواب، وأنه لا بد للناس من التواضع لهم، ومتى ما تكبر المرء عليهم وكابرهم في الأحوال وتأذوا به، علموا أن الذنب في ذلك لهم، ورجعوا إلى التواضع وحسن السيرة.

فأما الذي ينبغي للمرء أن يستعمله مع من دونه من الناس، فإنا نصف منه ما تيسر، فنقول: إن منهم الضعفاء، وهم صنفان: أحدهما المحتاجون ذوو الفاقة، وهم صنوف:

منهم الملحّون، فينبغي ألا يعطيهم ولا يبذل لهم على إلحاحهم شيئًا لينزجروا عنه؛ إلا إذا علم أنه صادق الحاجة إلى الشيء الضروري؛ ومنهم الكاذبون فيما يدعونه من

الفاقة. فينبغي أن يميز بينهم: فإن كان تعمدهم للكذب لضرب من التدبير، فلتكن معاملته معهم في المواساة وسطًا من غير منع ولا بذل تام؛ ومنهم الضعفاء الصادقون فيما يبدونه من الحاجة، فيجب أن يواسيهم بغاية ما يمكنه من غير أن يخل بأحوال نفسه بما يواسيه.

والصنف الآخر هم المتعلمون وذوو الحاجة إلى العلم. فمنهم ذوو الطباع الردئية يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها في الشره. فبينغي للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق، ولا يعلمهم شيئًا من العلوم التي إذا عرفوها استعملوها فيما لا يجب؛ ويجتهد في كشف ما هم عليه من رداءة الطبع ليحذروا.

ومنهم البليد الذي فيه أدنى ذكاء، ولا ترجى براعته فيبنغي أن يحثه على ما هو أعود عليه. ومنهم المتعلمون ذوو الأخلاق الطاهرة ولاطباع الجيدة، فيجب ألا يدخر عنهم شيئا مما عنده من العلوم.

ثم إنه ينبغي للمرء أن يرجع إلى خاص أحواله فيمزها ويعلم طريقة حاله وصلاحها، ويستعمل في كل حال من أحواله ما يعود بصلاحها، ويستقصي النظر في أبواب الدخل والوجوه التي يمكنه استجلاب المال منها إلى ملكه، فيبالغ في استجلابه من حيث لا يضر بشيء مما تقدم ذكره من الأصول، أعني لا يخل بدينه ولا مروءته، ولا بعرضه، فإنه ليس كل وجه تكون فيه منفعة يحسن بكل أحد أن يتعرض له. مثال ذلك الدباغة والكناسة والتجارات الخسيسة والقمار، والوجوه التي لا يحسن بذي المروءة أن يجتلب المال منها. فإذا تجنب هذه الوجوه واكتسب المال من وجهه، فيجب أن يخرجه بحسبه، أعني بقدر دخله؛ ويجتهد في أن يعرف بالسخاء، وليس السخاء بذل الأموال حيث اتفق، لكن بذلها كما ينبغي، وحيث ينبغي، بالمقدار الذي ينبغي على سبيل الاعتدال اللائق بحال طبقة طبقة من الناس.

ومن ذلك الجاهُ. فينبغي للمرء أن يجتهد كل الجهد في إحراز الجاه لنفسه. ومتى ما استقبله أمران يكون في أحداهما زيادة المنافع، وفي الآخر زيادة الجاه، فليبادر إلى الأمر الذي هو أعود عليه في زيادة الجاه، إذ الجاه العريض يكسب المال بالضرورة، أو ما يقوم مقامه، وليس المال مما يكسب الجاه ضرورة. ومن أنفع ما يستعمله المرء في معاشه أن يستجلب لذاته وشهواته إلى نفسه بجاهه، لا بماله، بكل ما أمكنه. فإن من

استجلب اللذات بماله دون جاهه، لم يصل إليها كما يشتهيه، ولا ينشب أن يتلف ماله ويصير سخرية بين الناس، ويصير كل من انتفع به عدوا له. ومن استجلب اللذات بجاهه وقضاء حاجات الناس، وصل إليها كما يشتهيه وفوق ما يشتهيه. وكل من جلب إليه لذة لطمعه في جاهه، كان صديقًا له داعيًا ومحبًا لخيراته، مواليًا. ولسنا نومئ إلى أنه لا ينبغي أن ينفق من ماله شيئا في استجلاب لذاته، ولكن إلى أن يكون معوله في ذلك على الجاه، لا على المال.

ونقول الآن في تحصين الأسرار، وفي استخراجها من المناوئين. وإذا عرف المرء أحد هذين البابين حصلت له المعرفة بالباب الآخر. ولكل طائفة من أهل الطبقات الثلاث نوع من التحصين، ونوع من الاستخراج. وما نذكره من الأصول فيها يصلح لكل طائفة منها على مقداره ومرتبته.

فإول منافع تحصين الأسرار وكتمانها هو أن يكون المرء أبدًا قادرًا على إجالة الرأي في تدبيره وعلى إنفاذه والإمساك عنه إلى أن يتجه له وجه الصواب فيه. فإنه ما دام الأمر مكتومًا، كان قادرًا عليه. فإذا ظهر، خرج الأمر عن يده ولم يقدر عليه. وفي كتمان الأمر والآراء والتدابير سلامة الآفات: ومن آفاتها الأعراض التي تعرض من إذاعتها، فتصير موانع من إنفاذها، ويغبي ذو الرأي عن رأيه بتلك الأعراض.

ومنها ذهاب حدته وثمرة رأيه ونفاذه في جدته وطراءته.

ومنها أن الرأي إذا ظهر قصد بالمناقضة. وإذا كان محصنًا سلم من المناقضة. ولكل أمر نقيض.

ومنها أن المرء الذي فيه التدبير والرأي لا يفطن له حتى يقع به فيبهته ويرد عليه ما لا يحتسبه. وإذا ظهر قبل الوقوع، قوبل بالتحرز والتحفظ وبطل الرأي والتدبير، وتعطل الوقت الذي أفنى في إحكامه.

ولا بد للمرء من المشاورة مع غيره في آرائه وتدبيراته. فينبغي أن يستودعها ذا النبل وكبر الهمة وعزة النفس وذوي العقل واللب. فإن أمثالهم لا يذيعونها؛ وأن يباشر في وقت إنشاء الرأي الأمور التي يستعان بها على إحكام ذلك الرأي من الاستشارة والنظر في أخبار المتقدمين والاستماع إلى الأحاديث في السياسات اللائقة بذلك التدبير، وأن يستر بجهده الأمور الظاهرة المتعلقة بذلك التدبير التي يظهر بظهورها

السر، ويستعمل ما يضاد ذلك الرأي ـ من غير أن يظهر من نفسه حرصا على استعمال الأضداد، فإنها أيضًا إذا كانت مع حرص مفرط تدل على نفس الأمر وتوقع التُّهمة ـ ويطلب معرفة الأسرار من الأمور الظاهرة والباطنة جميعا.

أما الأمور الظاهرة فما يبدو عن الرئيس من أخذ العزم وإعداد العدد وأخذ الأهبة للأمور التي كان فيها قبل على التقصير، ومن جمع المتفرقات وتفريق المجتمعات، وبالجملة تغيير الأحوال الظاهرة. وأيضًا من الإمساك عن أمور كان يباشرها قبل ذلك، ومن إدناء من كان قاصيًا، وإقصاء من كان دانيًا، وشدة التطلع للأخبار، وحرص زائد في الوقوف على الأحاديث المختلطة، ومن السقط الزائد على ما كان قبل ذلك.

وأما من الأمور الباطنة، فعن استطلاع أحوال البطانة والخدم، وعن إمساكهم عما كانوا مستعملين له، واستعمال ما كانوا ممسكين عنه. فإن البطانة والخواص إذا لم يكونوا حزمة ظهر من مصادر أمورهم ومواردهم ومواردها ما يسره الرئيس ويستطلع من أفواه العجم والصبيان والجهال والنساء والذين هم قليلو التمييز والعقول، فإنه ليس مع هؤلاء حصافة، ولا عندهم من الرزانة ما يمنكهم به التحرز من الإفشاء للأسرار. وأجود ما تستخرج به الأسرار كثرة المحادثة. فإن لكل واحد من الناس من يستأنس به ويلقي إليه جميع أحاديثه أو جُلها. وإذا كثر الكلام والمحادثة فإنه لا بد أن يأتي على جل ما في الضمائر. وأيضًا فإنه ليس كل أمر وكل تدبير يكون بموافقة الجميع ممن بحضرة الرئيس أو صاحب التدبير.

وملاك أسباب الظفر بالأعداء هو ما نذكره، فنقول: إن أول ما يجب أن يستعمل هو ان يطلب المرء العلو على عدوه في كل فضيلة يذكرها إن كان من أهل الفضل، ويتحرى أن يقف العدو على ذلك ويعلمه منه، فإن ذلك مما يضعفه ويخمد نائرته. وأن يحصى عليه معايبه حتى لا يبقى صغيرًا ولا كبيرًا، ولا ظاهرا ولا باطنا من عيوبه إلا جمعه ونشره في الناس. وليتوخ في ذلك الصدق؛ وليتجنب الكذب على العدو. فإن الكذب عليه قوة له، وأن يتعرف أخبار العدو وأخلاقه وشيمته وعادته ليقابل كل واحد منها بما يضاده ويناقضه، وليجتهد في ذلك وفي معرفة ما يضجره ويقلقه، فيوكل بكل واحد وكل سبب من أسباب ضجره وقلقه ما يهمه. فإن في ذلك ملاك الظفر به، وهو من أنفع أسباب الفضيحة عليه.

وأصل ذلك كله والمرجع هو طلب السلامة منه ومن مكائده بكل ما أمكن بزيادة على طلب النكاية فيه. ومما ينتفع المرء به غاية المنفعة هو الأرب. وأصل الأرب مزايلة الأرب في الظاهر. ومن ذلك معرفة العورات وطلب العثرات. وعمدة الأرب شدة التطلع على ما عند الناس، والحرص على التباعد من أن يعرف الناس ما عند المرء. ومنه أيضا أن يقصد الإنسان لغير المقصود، ثم يقصد المقصود. ومنه أن يبتدئ بالإعطاء من الأدنى فالأدنى إلى الأعلى فالأعلى. فإن كان الرضا مع هذه الاستعمال، ففي خلافه السخط. ومنه أن يحصل الأصعب ثم الأخف. ومنه ألا يظهر الغضب ولا الرضا بافراط. ومن ذلك أيضًا المطل إذا تعقبه الإنجاح. ومنه الصبر إلى أن يظفر بالفرصة. ومن ذلك أن يقدم للأمر مقدمات تصير توطئة له. ومنه أن يلقي الأمر بلسان غيره.

خاتمة

ونحن الآن ذاكرون من أقاويل القدماء وأهل الفضل شطرا يصير خاتمة قولنا هذا، فإن للحكايات والنوادر والأمثال في مثل هذا الفن غناءً عظيمًا. فنقول:

قال أفلاطون: الشيء الذي لا ينبغي لك أن تفعله فلا تهْوه أبدا.

وقال: من استحق منك الخير فلا تنتظر ابتداءه بالمسألة، ليكون أكمل التذاذا وأهنأ موقعا.

وقال: لا تحكم من قبل أن تستمع قول الخصمين ودعواهما.

وسئل: لمَ كلما علمتم كانت عنايتكم بالتعلم أشد؟

قال: لأنا كلما ازددنا معرفة، ازددنا معرفة بمنفعة العلم.

وسئل: أي الأشياء أهون؟

قال: لائمة الجهال.

وسئل: أي شيء يقدر كل أحد أن يجود به؟

فقال: حبه الخير للناس.

وسئل: ما أفضل ما يُتعزى به عن المصائب؟

فقال: أما للعلماء فعلمهم بأنها ضرورية، وأما لسائر الناس فالتأسي.

وسئل: أي حسنة لا يحسد عليها، وأي سيئة لا يقبلها أحد؟

فقال: التواضع حسنة لا يحسد عليها، والكبر سيئة يرذلها كل أحد.

وقال: إذا تقدم ضمان المرء للشيء ثم لم يَفِ به صار كالمنام الحسن.

وسئل: ما الشيء الذي إذا فقده المرء كان دائم البلاء؟

فقال: العقل.

وقال أيضًا: لا تأمن الكذاب، فإن من كذب لك يكذب عليك.

وقال: شتم من لا يحتمل شتمك استدعاء منك للشتم، وشتم من يحتمل شتمك لؤم.

وقيل: الأدب يزين غنى الغني، ويستر فقر الفقير.

وقيل: يجب على من اصطنع معروفا أن يتناساه من ساعته، ويجب على من أُسدي إليه أن يكون ذكره أبدًا بين عينيه.

وسئل: أيما أحمد: الحياء أم الخوف؟

فقال: الحياء، لأنه يدل على العقل، والخوف بدل على الجبن.

وقال أيضًا: إن أحببت ألا تفوتك شهوتك، فاشتهِ ما يمكنك.

وقيل: أحسن ما عوشر به الملوك اثنان: البشاشة وتخفيف المؤونة.

وقيل: أفضل ما يقتنيه المرء الصديقُ المخلص.

وقيل: من برئ من ثلاثة أشياء نال ثلاثة أشياء: من برئ من الشره نال العز؛ ومن برئ من البخل نال الشرف؛ ومن برئ من الكبر نال الكرامة.

وقيل: ثلاث لا يتم المعروف إلا بهن: تعجيله، وأن يستقله وإن كان كثيرا، وأن يترك الامتنان.

وقيل: من تشاغل بالأدب فأقل ما يربح منه ألا يتفرغ للخطأ.

وقيل: لا ينبغي للمرء أن يبلغ من مرارة النفس إلى حد يظن به معه أنه شرير، ولا من لين الجانب إلى حد يظن به معه أنه ملّاق.

وقيل: لا تحبوا من الأشياء ما ملتم إليه، ولكن أحبوا ما هي محبوبة في أنفسها.

وقال لما سئل: بماذا ينتقم الإنسان من أعدائه وبأي شيء يغيظهم؟: بأن يزداد فضلا.

من وصايا العامري[1] وآدابه

قال: سل واهب العقل إضاءة العقل، وابدأ بالأول في إيثار الأولى، واعرف الأولى بإيثار الأول.

أشرف أبواب النظر هو ما أفاد تمييز الفناء من البقاء، وأشرف أبواب العمل إخلاص العبادة لخالق البرية، وأشرف الأفعال إعداد النفس للسعادة العظمى، وأشرف المجاهدات قمع الشيطان - عدو الله - بسلطان العقل ولي الله، وأشرف القنيات حذف المؤمن بصدق القناعة.

غاية سعى العبد الاتحاد بمولاه. وتمام هذا السعي هو الاستغناء عن جميع من هو دونه.

من لم يعقل العقل ويستضيء بنوره فقد صيره عليه، لا له.

إجالة الفكر في نظام الخليقة يحلي النفس بجمال الفضيلة.

بليد نشأ في صحبة الأفاضل خير من ذكى نشأ في صحبة الأرازل.

الجهل مع العفة خير من العلم مع الفسوق.

ليس الكامل في اقتناء النعم، بل الكمال في إفاضة النعم.

الوضيع أحسن حالا من الخسيس، فإن الوضيع مذموم في بعض أحواله، والخسيس مرذول في كل أحواله.

كما أن الأنثى لا تأتي بالمولود إلا بألم يتقدمه، كذا النفس لا تنتج الفضيلة إلا بمشقة تتقدمها.

---

(١) العَامِري (... - ٣٨١ هـ =... - ٩٩١ م): هو محمد بن يوسف العامري النيسابوريّ، أبو الحسن: عالم بالمنطق والفلسفة اليونانية. من أهل خراسان. أقام بالريّ خمس سنين، واتصل بابن العميد (الوزير الكاتب) فقرآ معا عدة كتب.

وأقام ببغداد مدة، وعاد إلى بلده، له شروح على كتب أرسطو، و (مجموعة - خ) تشتمل على (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) و (التقرير لأوجه التقدير). ومن كتبه (النسك العقلي) وشرحه، و (الإبصار والمبصر - خ) و (الإعلام بمناقب الإسلام - ط) و (السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية - ط).

انظر ترجمته في: إرشاد الأريب ١: ٤١١ ثم ٣: ١٢٤ و ٦٥٣ Princeton والمقابسات، تحقيق حسن السندوبي ١٦٥ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٣٠١ - ٣٠٧ والإمتاع والمؤانسة ١: ٣٦، والأعلام ٧/١٤٧.

من خصائص النذالة سلوك النفس إلى النقص بعد الظفر بالتمام؛ ومن خصائص الرذالة التشبه بالضعفاء مع وفور الطاقة.

من ظفر بالأفضل فهو في إحدى منزلين: إما أن يستولي على من قنع بالأرذل، وإما أن يستغني عنه. فأما القانع بالأرذل، فإنه لا يستولي على من ظفر بالأفضل، ولا يستغني عنه.

النفس العزيزة هي التي لا تؤثر فيها النكبات، والنفس الكريمة هي التي لا تثقل عليها المؤونات.

مقابل العزيز هو الذليل، ومن علامته التلون في أحواله بسرعة؛ ومقابل الكريم اللئيم، ومن علامته أن يدخل عليه الخلل في أحواله فيرضى به.

هجران القاذرورات يكون به التدرج إلى الخيرات، ثم التمسك بالخيرات يكون به التحصن من الهفوات، وفي التحصن من الهفوات منال المقامات.

اتصال العبد بمولاه يكون على أربع مراتب، وهي التي تسمى المقامات: أولاها رتبة المتقين، وهي من نتائج الخوف؛ والثانية رتبة المحسنين، وهي من نتائج الرجاء؛ والثالثة رتبة الأبرار، وهي من نتائج المحبة؛ والرابعة رتبة الصالحين، وهي من نتائج الإخلاص. ثم الاستقامة مادة كل واحدة من هذه المراتب.

وانقطاع العبد عن مولاه يكون على أربعة مساقط: فالأول الإعراض، وهو من لواحق الاستهانة؛ والثاني الحجاب، وهو من لواحق الاستخفاف؛ والثالث الطرد، وهو من لواحق الإنكار، والرابع الخسأة، وهو من لواحق البغض. ثم السخافة واعوجاج الطريقة مادة كل واحد من هذه المساقط.

اختصاص كل واحد من الموجودات بفعل له على حدة يحقق أنه صدر عن حكم تام الحكمة، وانحسار العقل عن توهم موجود آخر أصلح لذل الفعل منه يحقق أنه تام القدرة.

ليس ينتفع بتأدية الفعل على الصواب إذا لم ينته إلى غرض، ولا ينتفع بانتهائه إلى الغرض إذا لم يحصل على أبلغ كماله، ولا ينتفع بحصوله على أبلغ كماله إذا لم يؤمن عليه من طرآن الآفات، ولا ينتفع بحصوله محفوظا من طرآنها عليه إذا لم يبق على صورته أبديًا سرمديًا.

ليس يكون المرء عارفًا بذاته إلا بعد أن يتحقق مبدأه ويتحقق منتهاه ويتحقق الواسطة بينهما. فأما التحقق لذاته بحسب المبدأ فيتعلق بتعرف أربعة معان وهو أن يعلم: ماذا هو، ومن جاء به، ومن ماذا جاء به، وكيف كان مجيئه.

وأما التحقق لذاته بحسب المنتهى فيتعلق بأربعة معان، وهي: أن يعلم لماذا هو، وكيف السبيل إليه، وما الذي يحتاج إليه في التوجه نحوه، وما الذي يعوقه عنه وعن بلوغه.

فأما التحقق لذاته بحسب الواسطة بين مبدأه ومنتهاه فيتعلق بأربعة معان، وهي: أن يعلم مرتبة شخصه من الجوهر الإنسي ماذا هي، وأن قسطه من خاص مرتبته أي قسط هو، وهل هو على الزيادة فيها أو على النقصان منها، وثابت عليها أو مترجح فيها. وإن الإنسان متى علم أن الشيء مما يجب أن يعلمه وليس يعلمه، فقد صار المغفول عنه محروصًا عليه.

إذا سعد العبد بوصال مولاه على الحقيقة فقد صارت دنياه آخرته وموته حياته، وفقره غناه، ومرضه صحته، ونومه يقظته، وضعفه قوته، وحزنه فرحه. وإذا شقي العبد بانقطاعه عن مولاه فقد انقلب به الأمر في كل ما ذكرناه إلى الضد، وبالعكس. وإن العبد لن ينال الغبطة بوصاله إلا بأربعة مدارج: أولها الاهتمام، ثم التعرف لطرقه، ثم السلوك إليه، ثم التمسك به.

كما أن نور الدين جعل لذوي السياسة مركبًا، كذا نور التنزيل جعل للحكماء مركبًا، ونور الإلهام لذوي التدبير مركبًا، ونور التوفيق جعل لذوي الاجتهاج مركبًا، ونور الحرية لذوي الجود مركبًا.

من شأن العقل أن يفرق بين الحسن والقبيح؛ وهو يسكن إلى الحسن، وينفر من القبيح. وقد يمدح الشيء كذبا وزورًا وهو مذموم، كما يذم الشيء كذبًا وزورًا وهو ممدوح. وهناك يعرض للعقل اناقص انخداع واغترار، وعند ذلك يمتاز المقلد من المستبصر، وذو التماسك من المنحل.

إن الطبع، لأجل محبته اللذيذ، يسوق البدن عن النقص العارض إلى كماله الأخص به؛ وكمال البدن الصحة والقوة؛ والعقل، لأجل محبته الفضيلة، يسوق النفس عن النقص العارض لها إلى كمالها الأخص بها. وكمال النفس الحكمة، والفضيلة.

ومحبة الطبع للذيذ يكون قويا جدا، وليس للإلف والعادة في تقويته كبير معونة. فأما محبة العقل للجميل فإنه يكون بذاته ضعيفا جدا، إلا أن للإلف والعادة في تقويته معونة عظيمة مفرطة. واللذيذ متى كان قبيحا ثم عشقه الطبع بالإفراط واستحوذ على العقل بالغلبة عميت النفس عن قبحه وتصورته بصورة الحسن. والجميل متى كان مؤلمًا، ثم عشقه العقل بالإفراط واستحوذ على الطبع بالغلبة، صار الأمر بالعكس. ومتى اتفق للشيء الواحد أن يتعلق به كمال أحدهما وعرض له نقص الآخر فهناك يفتقر إلى القوة التدبيرية والشريعة الإلهية.

ومن أمارات السعادة أن يكون سرور الإنسان بما أنعم عليه من العقل الصريح والرأي الصحيح، وأكرم به من الثقة بمن له الخلق والأمر - جل جلاله - ووفق له من التمييز والتثمير للحكم الخالصة، وأيد به من الاستعلاء بروحانيته على عالمي العلو والسفل، والإحاطة بما فيهما من التدبير الإلهي والنظام الحكمي، وما أوتيته من الغبطة بسياحة عقله فيهما وجولان نفسه في زهراتهما شاغلا له عن الالتذاذ بالذهب والفضة والمسك والعنبر والبستان والغلمان، بل تصير هذه الأشياء كلها وتحة في عينه، حقيرة في نفسه. وحينئذ يستعد جوهره لصحبة أفاضل الروحانيين ووصلة المقربين.

إن العبد الأفضل لا يختار الفعل الأحسن إلا لأحد أمرين: إما أن يستجلب به أشرف القنيات لأشرف الأغراض، وإما أن يستصلح به أشرف الجواهر لأشرف القنيات. والسعادة العظمى أشرف الأغراض؛ فالأفضل من العبيد لا يسعى إلا له، ولا يدوم إلا عليه. ومهما علم أن الأحد الحق - تعالى وتقدس - هو المنفرد بتقويم ذاته وإتمام تثقيفه، فإنه يجرد المحبة، ويخلص العبودية، ويلازم النظر إليه والاعتصام بحبله، بل لا يسكن إلا إليه، ولا يأنس إلا به، ولا يتقوى إلا بمعونته، ولا يؤثر غيره عليه، فيصير هو بعينه لفرط الاتصال به والتقرب إليه عقلًا خالصًا وحقًّا محضًا وروحًا صافيًا ونورًا إليها، فيطلع على جميع ما في العالم إلهامًا، ويغتبط بالاحتواء على ما فيه من الحكم إكرامًا - وذلك هو الكمال الحقيقي للجوهر الإنسي.

بدء التعاون افتقار، وتمامه استغناء، وبدء التوكل استغناء، وتمامه افتقار. ومن فاز بشرف الملك فإنه يصير مغتبطا بالعوام. ممتحنا في نفسه. ومن فاز بشرف الحكمة فإنه

يصير ممتحنا بالعوام، مغتبطا في نفسه. ومتى اقترن أحد الفوزين بالآخر فقد كملت بهما النحيزة واستحكمت الأَمَنة. ومتى عاون البعض البعض فقد استغنى الجميع.

متى تجاذب الخصمان - أعني العقل والطبع - شيئًا واحدًا، أعني الملذ القبيح والمؤلم الجميل، بحسب غرضهما، أعني الكمال الجسماني والكمال الروحاني، وافتقر إلى الحكم المنصوب بينهما، أعني القوة المدبرة فعند ذلك يبادر الشيطان إلى نصرة الطبع، ويبادر الملك إلى نصرة العقل. فمتى كان الحكيم شيطاني السوس، اتبع العقل الطبيعة؛ ومتي كان ملكي السوس، اتبع الطبيعة العقل. وأعني بالملكي السوس الأحكام الإلهية، وأعني بالشيطان السوس الأسباب التي تلهو بها طبقات الفسقة. ولن يصير الحكيم، أعني القوة المدبرة، شيطانية السوس بنفس الجبلة دون أن يتفق لها الأراذل من القرناء. ولن يصير أيضًا ملكي السوس بنفس الحيلة دون أن يتفق لها الأفاضل من القرناء. ومبدأ الأمر فيه ليس بموكول إليه، لكنه موكول إلى من يلي التدبير عليه.

مراتب الأفعال الحيوانية ثلاثة: أولها الافتقارية، وهي كمرتبة الفرخ في التربية والصبي في التلقين؛ ثم الاستغنائية، وهي كمرتبة الطائر إذا نهض من عشه والصبي بعد التلقين من معلمه؛ ثم الجودية، وهي كمرتبة المربي لفراخه والمرشد للغير إلى مصالحه. فالمرتبة الأولى قريبة الحال من الطبيعية. والمرتبة الثانية قريبة الحال من الإلجائية؛ والمرتبة الثالثة هي الاختيارية المطلقة.

وإذا عرف هذا في الأفعال الإنسية، علم أن المرتبة الافتقارية ليست بمستصلحه للشيء. بل هي مضطرة إلى من يصلح ذات المطبوع عليها. وأما المرتبة الاستغنائية فهي مصلحة للواحد الفرد من المطبوعات. وأما المرتبة الجودية فهي المستصلحة للكثير. وإن كان الاستصلاح للواحد الفريد من الناس فاضلا محمودا، فاستصلاح العدد الكثير أفضل.

لن تصير النفس الإنسانية مستعدة لنيل السعادة العظمى إلا إذا سلمت من انحلالها، ونقيت من صدأها. فأما الممنوّ بهما فلا يصلح لاقتناء الحكمة، والعادم للحكمة لا يفوز بالسعادة. فأما انحلالها فيكون على أربع درجات: أولها الكسل، ثم الغباوة، ثم القحة، ثم الانهماك. وعلاجه: استشعار التقوى، والمحافظة على العبادات، والنفقة في أبواب البر.

فأما أضدادها فتكون أيضا على أربع درجات: أولها الزيغ، ثم الرين، ثم الغشاوة، الختم.

وعلاجه: الإيمان بالله، والتقوى، واليقين بالآخرة، والتصديق بالديانة.

حال الإنسان الكامل لا يجب أن تكون قريبًا من أحوال السلطان، والطبيعة لا يجب أن تكون ذات انحلال ولا ذات صدأ، والرفقاء لا يجب أن يكونوا سبعين ولا بهيميين. واستصلاح الواحد ينزل منزلة اقتناء الملَك، واستصلاح الجميع ينزل منزلة اقتناء الملك. وحيث يوجد الملك يوجد الملك، ولا ينعكس. فإن الإنسان لا يشرف بأن يصير مالكا، بل يشرف بأن يصير ملكا. وفعل المالك حفظ القنية على خاص صورتها، وفعل الملك حفظ المراتب على حاق درجاتها.

تأدية الفعل بحسب الفضيلة على صورة العبودية لن يقع إلا بمجموع معان أربعة، وهي الخوف والرجاء والحب واليقين. وأول درجات الإقبال على العبودية الاعتقاد بأنه لم يعرف مولاه إلا به، ثم اليقين بأنه لا يستغني في شيء من حالاته عنه، ثم العرفان بانه كلما كان أخلص له وأبعد من الاستبداد دونه كان أدخل في طبقة من سلم وغنم. وإن تقرب العبد إلى المولى بحسب العمل نعش إلى مراتب ثلاث، وهي: الإفضال، والتفويض، والمثوبة. وإن النعمة الموضوعة عند غير المستحق لها قد تحسن بالغرض لجهات ثلاث، وهي: الامتحان، والعبرة، والاستدراج.

آفات الشياطين بحسب تسويل الأباطيل لا تتعلق بالإخطار بالبال: فإنه عارض اتفاقي، ولا بالانجذاب بالشوق: فإنه حادث طبيعي، ولكنه يتعلق بالعمى عن جهة إصابة المطلوب، أعني أن يدعوه إلى الإقدام عليه، لا من الوجه الذي تجده الشريعة، بل من أقرب وجوهه على ألد جهاته. ثم لا يكون تسويلها لديه بحسب تزيين ذاته عند نفسه، بل بإبهامه أنه أرفع محلا من أن تعمل عليه الآفات المعدة لذوي الرداءة، وبه يكون خداعها للعقول النواقص. ثم آفة الإفراط فيه تكون عائدة بالضرر على الغير. وآفة التقصير فيه تكون عائدة بالضرر على ذاته. وليس يشك أن ضرره بذاته أقطع، إلا أن الضرر بالغير يكون يكون أشنع.

إن العبد متى أخلص لمولاه العبودية فقد حظي بالقرب منه، ومتى لازم القرب منه سعد بوصاله، ومتى تمسك بوصاله وثق بفيض الجود منه، ومتى وثق به لم يتهم في

إيجابه ولا شكاه في حالاته. فإذًا المستزيد لمولاه غير واثق بفيض جوده، وغير الواثق ليس بمستعد له ولا مستسعد بوصاله، لا يدوم على الزلفة لديه، وغير الدائم على الزلفة إليه لا يخلص العبودية له، وغير المخلص للعبودية لا يقلع عن الذنب المألوف، والمقارف للذنب معرض لكل آفة، وهدف لكل بلية.

ذو الكثرة المتحدة قد يوصف بالنقص بحسب ما يفوته من كل واحد من تلك الكثرة؛ ولن يوصف بالكمال إلا بسلامة المجموع. فمن أراد أن يسكن في هذا العالم فليتقرب إلى الله رب العالمين بملازمة الخدمة له، وليتمسك في خدمته بشرائع دينه، فإن الشريعة هي المقومة للخليقة على حسن الخدمة؛ وإن العبد متى عرف مولاه وأنه سبب تمام كل تمام عرف أيضا أنه قد أفاض عليه من صنوف الإحسان أفضلها - فقد لزمه أن يجعل تأدية شكره لا على صورة الطمع في مكافأته، بل بحسب المعونة.

لكل صنف من الناس ضعف عن إحكام موالاته ليستجرهم إليه بجهده، بل يستصفيهم عن شوائب غرورهم، ويؤديهم إلى خاص كمالهم، ويستخلصهم من مكائد أعدائهم.

لن يسعد العبد بالعيش الفاضل إلا أن يكون مستنكفا من أن يكون سكونه إلى المال الممهد والمجد الموثل أقوى من سكونه إلى واهب المال ومؤثل المجد، فلا يشتاق في مصارفه إلا إليه، ولا يسر في أحواله إلا بالقرار لديه، وأن يعتقد أن كل خير أصيب دونه فهو ذو وهي وخلل، وكل حياة تكون بمعزل عنه فهو ضئيل وخلل، فيكون قد أغنى نفسه بموالاة مبدع العالم ووصال من له الخلق والأمر عن كافة من سواه؛ فلا يهتم للملك ولا ما دون الملك إلا على أحد وجهين: إما الرأفة والرحمة، وإما التمسك بالطاعة.

السياسة صنفان، وأغراضها اثنان، ولوازمها حالتان: فأحد صنفي السياسة هو الإمامة وغرضها تكميل استبعاد الخليقة، ولازمه الشقاء والمذمة. ومتى ألزم السائس نفسه التمسك بالشريعة وجعل رعيته أصدقاء له، فبالحق الواجب يملأ مدينته بالخيرات العامية: كالسكون والسلامة ولاتواد والأمنة والعدل والعفاف. ومتى جعل نفسه عبدا لشهوته، وجعل رعيته خَولا - فالبحق الواجب يملأ مدينته بالشرور العامية: كالغدر والخيانة والعسف والرعونة والتمسخر والسخافات.

إن الله عدل ولا يحب إلا العدل، والله طاهر ولا يحب إلا الطاهر. وكل من جار أو تدنس فقد عاند موالاته وصار في عداد من سلب البهاء والجودة، وحرم النعماء والمحمدة، وشقي بالمقت والمذلة، واستوجب الهوان والخسأة.

وإذا كان قوام الجوهر الإنسي معلقا بانتظامه للقالب والروح، ثم كانت النفس سمائية السنخ، ولهذا ما تشتاق، عند صفوفها بالحكمة الحقيقية والأعمال الصالحة، إلى العالم العلوي؛ وكان القالب أرضى السّنْخ، ولهذا ما يشتاق - عند تكدره بالجهالة المغوية والأعمال السيئة - إلى العالم السفلي. فإذا يجب علينا أن نلتزم ما هو خير مطلق لنصلح به النفس لما هو مشوقها، ونحترز مما هو شر مطلق لئلا ينجذب به القالب إلى ما هو مشوقه، وأن نعلم أن التزامنا للحالة الثانية هو المذلة الأبدية.

إن النفس إليها الطلبة. والبدن بمنزلة المطية، وقائدها نحو الخير رفيع الهمة، وعملها الإمعان بالعزم الصحيح نحو الغاية، وآفتها استدبارها الجهة من أجل التلون في الهمة، وسبب آفتها الميل إلى الراحة واللذة، ونجحها استخلاص الجوهر من شوائب الكدورة، وفضيلتها أن توافق العقل والحكمة، وتخالف الهوى والشهوة، وشينها أن تصدأ بالسهو والغفلة فلا تميز بين الخمول والرفعة، ومفتتح عملها جمع الهمة على تقوية العزيمة، وغاية كمالها أن تطلع على الخير بعين البصيرة، وتمام غرضها الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة.

إصابة درجات الاعتدال، أعني صورة العدالة المطلقة، تحصل للإنسان بثلاث غايات: وهي تزكية النفس، ورياضة البدن، وتدبير الملك. فأما تزكية النفس فمعلقة بالعفة والنجدة والحكمة والعدالة. وأما رياضة البدن فمعلقة بالجلادة والصبر والنظافة والزينة. وأما تدبير الملك فمعلق بأدب الاقتناء وأدب التثمير وأدب الانفاق. وقد يقال إن ها هنا غاية رابعة، وهي معاشرة الإخوان، ومدارها على الطلاقة والاحتمال والظرف والإكرام.

فعل القوة الشهوية ربما يقع من الإنسان بحسب جذب المشتهي إلى نفسه، وربما يقع بحسب الانجذاب إلى مشتهاه تطلبًا لخاصة الاتحاد. وفعل القوة الغضبية ربما يقع بحسب دفع المؤلم عن نفسه، وربما يقع بحسب الاندفاع عن مؤلمه تطلبا لخاصية النفور والبعد. ومتى أفرطت القوة الشهوية في جذب الشيء عرض منه الإضرار بالغير،

ويكون ردعها بتخييل فوت الشيء الذي هو أشهى إليها منه، أو بتخييل لحاق مؤذ يكدر ذاتها. ومتى أفرطت القوة الغضبية في دفع الشيء عرض منه الإضرار بالغير. ويكون ردعها إما بتخييل مؤذ آخر أشد إيلامًا منه، وإما بفوت مشتهي يسهل بلواها؛ كما أن العقل الصريح لا يسكن إلى عرفان المبدأ القريب من الشيء دون أن يعرف المبدأ الأول على الإطلاق، وما بين المبدأ وبين الوسط، كذا أيضًا النفس القويمة لا تهدأ في عرفان الغرض القريب من الشيء حتى تعرف الغرض البعيد على الإطلاق وما بين الغرضين من الوسائط. وحسب الإنسان من كمال ذاته أن يلاحظ السعادة المطلقة ويؤثرها ويجرد القصد لها، ويكون صادق الرغبة إلى الله جل وعز في أن يجعله من الفائزين بها. فأما أن يأمن العوارض الشاغلة له عنها وهو ذو هيكل جسماني يدور عليه الفلك، فليس لأحد فيه مطمع أصلا.

حصول المحبة علة لمصير المتحابين معًا، وخلوص المحبة علة لمصير المتحابين واحدا. فإذًا بدء التحاب علةٌ للاجتماع، وتمام التحاب على للاتحاد.

وصاحب النجدة لا تتم له القوة إلا بلقاء الأصدقاء، وصاحب النعمة لا تتم له الغبطة إلا بلقاء الأصدقاء، وصاحب المحبة لا تتم له السلوة إلا بلقاء الأصدقاء، وصاحب المشورة لا تتم له الروية إلا بلقاء الأصدقاء. وكل ذلك لما في التحاب من خاصية الاتحاد.

ليست الكرامة الحقيقية من علائق المدح، فإن الصبي قد يمدح؛ ولا من علائق العطية، فإن الكلب قد يعطي؛ ولا من علائق التخاضع، فإن الفاتك قد يتخاضع له؛ ولا من علائق الزينة، فإن المرأة قد تتزين؛ ـ لكنها متعلقة بحيازة ما يقتنى به الشرف الأبدي، وهو الحكمة والعدالة.

فأما الثروة والرئاسة فمتى روعيتا على موجب الشريعة نزلتا منزلة الأجنحة المرقية بالنفس إلى الكرامة الحقيقية، وهي الحكمة والعدالة. فإذًا الفائز بهما هو الكاسب لذاته رتبة عالية لا تفارقه أبدا. وليس البدن المكرم أيضًا هو الجميل ولا الصحيح والقوي، لكنه المستعمل لجماله وصحته وقوته على ما يفيده الأمنة والسلامة، وهو مقتضى الشريعة.

من تعهد الصلحاء بالمصافاة، والأكفاء بالمكارمة، وذوي التنصل بالمغفرة، وذوي الاعتراف بالرأفة، والجيران بالرقة، والأقرباء بالمواساة، والمصاحبين بالمساعدة، والرؤساء بالتقريظ، والملوك بالطاعة، والمعيشة بالإصلاح وذا الرحم بحسن التفقد - فقد استحق المحمدة.

ومن تعاهد الأعداء بالأذى، وذوي الاغتياب بالمناقضة، وذوي الحسد بالمغابطة، وذوي البغي بالمداحسة، وذوي السفه بالحلم والإغضاء، وذوي المواثبة بالوقار، وذوي المشاتمة بالاستحقار وذوي الدغل بالاحتراس - فقد استفاد الأمنة. ولا يوصف الإنسان باقتناء العدالة المطلقة إلا بالجمع بين الحالتين، واستحكام الدربة فيهما، واستيلاء المران عليهما.

إن المساعدة هي ترك الخلاف على المعاشرين بالنطق، إيثارا لأن يلتذوا بمخالطته، والشكاسة هي الاعتياص على المعاشرين بالنطق تعمدا للخلاف عليهم في شرائط الأنس. والتملق هو التحبب إلى المعاشرين مع التغافل عما يلحقه من شنار الاستخفاف به. والحب هو انجذاب النفس إلى الاتحاد بالشيء المرغوب فيه. والسرور هو التذاذ النفس بما تحدثه من الخيرات. والخوف هو ألم نفساني عارض لفوت المحبوب. والحياء هو ألم نفساني عارض للنفس من فزع عار النقيضة. والخجل هو حيرة النفس لاستيلاء الحياء عليها بالإفراط. واللجاج هو التمادي في العناد إلى الفعل المزجور عنه. والوقاحة هي لجاج النفس في تعاطي ما يذم عليه من الأفعال. والإباء هو استعصاء النفس بالترفع عن الانقياد للواجب. والحسد هو الاغتمام للخيرات التي تتفق للأخيار.

إن الاستهانة من الإنسان بالإنسان تلحق النفس شبيهًا بالذبول. ومهما انتقم عادت إلى حالتها الأولى. وإن استحكام العفة سبب لمصير النفس أبية واستحكام النجدة سبب لمصير النفس علية، وإن مجموعهما سبب لمصير النفس مستعدة لقبول الحكمة. وتجريد السعي لإصابة اللذة ليس له لرفع الألم به معنى، فإن إفراط الألم مدهشة للعقل، وفي هجران اللذة تعب عظيم، فلا تصابر إلا ما حسن منه واحتيج إليه.

العفيف العادل مغبوط على الإطلاق، والشره الجائر مرجوم على الإطلاق فإن أصل الغبطة الأمن والكرامة، والعفيف العادل قد حازهما، والشره الجائر قد حرمهما، وإن الخير - بما يتعاطاه من الأفعال الحميدة - يفوز بالكرامة وبالتقريظ الأبدي، وتلك

حظوة أشرف من حظوة الملك؛ والشرير - بما يتعاطاه من الأفعال الذميمة - يبتلى بالإهانة ويلحقه التأنيب الأبدي، وتلك حالة أخس من حالة العبودية. وكل من أكرم الشره الجائر وقرظه فهو يفعل ذلك تحرزا من شره، وإلا فهو مشنّأ مهين.

حصول المحبة علة مبدأ الحكمة. فإن كل إنسان، لفرط محبته لنفسه، يغلط فيها فيحسبها أكمل مما هي عليه فيؤديه ذلك إلى الجهل، والجهل يتلف النفس ولا يرحم صاحبه. وفي لذة الحكمة مجامع المدح، ولهذا يحرص على إفاضتها؛ وفي لذة الشهوة مجامع الذم، ولهذا يحرص على كتمانها. والمؤثر للحكمة لا يخضع لجاه وإن جل، ولا للذة وإن قويت، فإنها أثر من آثار كبرياء الله، ولا كبر فوق كبريائه.

النقصانات البدنية كلها أعدام في الحقيقة. والعدم المطلق هو النهاية في الخسة. وكلما كانت الآفات أكثر، فهو في الأعدام أغرق، وإلى الخسة المطلقة أقرب. إلا أن العاقل، متى تحقق نقائصه، وفجع بازدحام أوجهها عليه، واغتم باغتياص الكمال على ذاته - فقد استحدث بذلك كمال، واستوجب بهذا الكمال ثوابا. ومن جعل همومه همًا واحدًا كفاه الله سائر الهموم، ومن ترك همومه تسيح في كل واد لم يبال به ربه، ولم يحفل بأيها هلك. ولو لم يقع بين النفس والقالب - بحسب قوى العقل والطبع في الجبلة - عناد ذاتي، لما انطلق على الإنسان شيء من الأمر والنهي الإلهي، ولبطل أن يكون مستوجبا للثواب الأبدي.

إن الأحداث يؤاخذون بتحسين الأخلاق، والشيوخ يطالبون بتكميل الفضائل. وإحدى الحالتين مدرجة إلى الأخرى - وهذا بحسب القوة العملية. ثم إن الأحداث يؤاخذون بطريق التقليد، والشيوخ يطالبون بطريق التحقيق، وإحدى الحالتين مدرجة إلى الأخرى، وهذا هو بحسب القوة العلمية.

وللحكمة زمان كتمان، ولها أيضا زمان إظهار، فلا يصلح زمان الكتمان لإظهارها، ولا زمان الإظهار لكتمانها، وهي تنقص أهلها في غير حينها كما تزيدهم في حينها، وتضعهم عند غير المستحقين لها كما ترفعهم عند المستحقين لها.

ومن كان غرضه من تأدية أعماله جودتها في نفسه، لم يبدر منه غير الجيد أصلا، وذلك لعلمه بأن واحدا من أعماله متى صودف غير جيد لم تصنه جودة البواقي عن

السبة والعار، بل يصير أشنع له وأقبح في أعين الناظرين، فيبور لأجله سعيه ويحبط جميع ما عمله.

فضيلة الفلاحين هو التعاون بالأعمال، وفضيلة التجار هو التعاون بالأموال، وفضيلة الملوك هو التعاون بالآراء السياسية، وفضيلة الإلهيين هو التعاون بالحكم الحقيقية. ثم هم جميعا يتعاونون على عمارة المدن بالخيرات والفضائل. وكما أن اللواء لا يأخذه إلا من قوي عليه، والغذاء لا يؤخذ منه إلا بقدر ما يمكن هضمه - كذا أيضا لا ينصب للرياسة إلا الناهض باعبائها، وهو الأكمل في الفضائل الخمس: أعني العفة والنجدة والحرية والعدالة والحكمة.

كما أن العنان يكبح الفرس الجموح إلى ما تدبره الرياضة من نهج فضيلة، كذا الشريعة تكبح العامي المتخبط إلى ما تدبره الحكمة من نهج فضيلتها. وكمال الملك لا يرضى الانحطاط إلى أن تدبره حُرمه وضعفةُ حاشيته، والعالم الكامل لا يرضى بالانحطاط إلى ما يدبره أصاغر تلاميذه.

من تشبه بخيار الناس فقد ازداد عند شرارهم نفاقا، ومن تشبه بشرارهم فقد ازداد عند خيارهم كسادا؛ والتماس الراحة بالراحة يورث طول النصب. وإفراط الإنسان في محبة ذاته مدعاة للأذّمين من الخصال: وهما العجب والترف، وتارك التأدب رأسًا بالحري أن يكون عائلا فقيرا.

القوة التمييزية، كلما كانت أوفى قسطًا من التمييز وأنقى من الدرن والشوب، كانت أسلس قيادًا للعقل. ومهما لحقها الشرور، فإن نسبتها إلى العقل تصير مضاهية لنسبة الأعضاء المفلوجة إلى البدن القوى. فكما أنها متى حركت نحو اليمين تحركت نحو الشمال لما عرض لها من الآفة الجسمانية، كذا حال الشره والمظلوم والمتهور والجبان في تحريك هذه القوى منهم على خلاف ما يوجبه العقل. بل لا خلاف بين المتحركين والحركتين إلا أن أحدهما يحس، والآخر لا يحس.

مفتتح السعي في تحصيل الاستقامة هو التعرف للسيرة التي هي أدوى والسيرة التي هي أشفى لنفسين إحداهما إلى الأخرى فيؤثر منها الأعلى. ومتى ألفاهما من التساوي بحيث يقصر عقله عن إثبات الحكم فيها التجأ إلى الشريعة الإلهية، ولا يثق في أمرهما بالعقل الجزئي. فمن أحب أن يعيش عيشة الملتذين على الإطلاق فهو مفتقر في اختيار

السيرة إلى استبراء هذه الحالات. وكل من أهمل أمره فهو إما عادم التأدب، وإما منحل العزيمة.

إن للإيمان درجات شتى: أولاها الخوف، ثم الرجاء، ثم اليقين، ثم الحب، ثم الاتصال، ثم الاتحاد. وللكفر درجات شتى: أولاها الزيغ، ثم الرين، ثم الغشاوة، ثم الطبع، ثم الغلاف، ثم القفل.

وللقبول درجات شتى: أولاها الارتضاء، ثم التقريب، ثم الاحتباء، ثم الاصطفاء، ثم الاستخلاص، ثم الرفع بالإجلال.

وللرد درجات شتى: أولاها الحط، ثم القطع، ثم الإبعاد، ثم الطرد، ثم الخسأة، ثم الطرح بالإهلاك.

الإيمان هو إذعان النفس للحق على سبيل التصديق له باليقين؛ ومتى صار ملكة للنفس فإنه سيؤديه إلى العمل بما يوافق الحق. ومن حرص على ما لا يحتاج إليه وترك ما يحتاج إليه فكأنه تكلف ما لم يخلق له وأسقط ما خلق له. والفطن الكيس من استفرغ أيامه لتأدية ما خلق له. والمغبوط من كفى الاهتمام بما يشغله عن الخير المطلق.

الإلحاد هو العدول عن الحق، إما باللجاج والمعاندة، وإما بالعادة والاقتداء بالغواة من الجمهور، وإما بالقصور عن النظر. والفاضل من اطرح العناد وترك تقليد غيره ونظر لنفسه.

إن كان الانفعال الجسداني كالشهوة والغضب والخوف والخور أبلغ شاغل للعقل، وكان الاعتصام بمن له الخلق والأمر وبه الحول والقوة أبلغ ما يتقى به العقل، فبالحري أن يكون الدعاء الخالص حصنا حصينا من النقائض، والمقدم صادق، فالتالي إذًا صادق.

كل من لم يقو على معالجة العالم إذا مرض وحفظه على صحته إذا برئ، فليس يستحق إمامة العالم إلا من شيئين: أحدهما الملك التغلبي، والآخر التجاذب الهرجي. فأما الملك التغلبي فهو قبيح بذاته، ويتراءى للنفوس الفسدة أنه حسن. وأما التجاذب الهرجي فهو مؤلم بذاته، ويتراءى للنفوس الشريرة أنه ملذ. وعلاج أمر الاثنين الإقبال

على الله والتمسك بدينه القويم. ومهما نقه العالم من مرضه فقد صارت الولاية للقوة التدبيرية، فاستجرت بها الأنفس إلى الفضيلة الحقيقية.

من أيقن بشرف الحكمة ثم شاهد جماعة، ليسوا من أهلها، أغبط عيشًا في هذه الدنيا ممن هو من أهلها، فقد اضطره الرأي إلى أن يوجب الشرف للغبطة في الدار الأخرى. ثم إذا كره الموت الذي هو المعبر إلى نيل تلك الغبطة فكانه كره الرفعة التي لأجلها حرص على اقتناء الحكمة، وخصوصا إذا علم أن نعيم الدنيا - أعني المال والرئاسة والأتباع والحاشية - شواغل عنها، وأنه جدير أن يرفض عامة ما يعوقه عن اقتنائها، وأن يقيم جسده مقام الثغر الذي فيه تقاتل النفس القوية أعداءها المعترية: كالحرص والشهوة والغضب وغيرها، ليفوز عند الظفر عليها بالكنوز والكرامات المعدة لها، وأن يعلم أنه لا شيء أنفع له من صيانة النفس عن هذه الآفات، وأن الحكمة في ذاتها عاجلة المؤونة آجلة المثوبة، وأنه لا شيء أسرع إلى الفساد من عقل المعتني بها، وذلك لفرط لطافتها ودقيق صفاتها. على أنه لو لم يكن في اقتناء الحكمة إلا اكتساب اسمها الشريف على الأبد، وإلا التفصي من عار الجهالة وشين الغفلة للزم العاقل أن يتمسك بها وينفض شغله على استيفاء الحظ منها. فكيف وقد علم أنها مفضية بأربابها إلى الخلود، ومدفعة عن نفوسهم روعة الهلاك، وجاعلة همومهم كلها همًا واحدًا، ومؤدية لجواهرهم إلى خصائص كمالاتها.

وللإنسان استكمالان: استكمال طبيعي، واستكمال نطقي. وأما الاستكمال الطبيعي فسيتحد به طبعا، وأما الكمال النطقي فليس يفوز به إلا من صدقت عنايته بنفسه في معاناة الأمور المختارة بالذات علما وعملا. ولهذا قيل: إن وجود الكمال المطلق للأشياء المحصلة بالعقل ليس بمتبع لحصول أنياتها، بل هو نافع لخصائص أفعالها وانفعلاتها. ولذلك شبهوا الكمال الطبيعي بصورة الحيوانية في الدجاجة والفرخ، وشبهوا الكمال النطقي بصورتها في البيضة والبزر بل لهذا ما أحوجوا في الكمال النطقي إلى معونة من خارج حسب احتياج البيضة إلى حاضن يسوقه نحو كماله الأخص. ولولا ذلك لما افتقر كل واحد من البشر في عنفوان نشوئه وابتداء جبلته إلى متعطف بالعناية الصداقة عليه ليسلخه بالتدريج عن حالته الطبيعية إلى كماله النطقي، أعني الحالة التي يستغنى لها يجوهره عن معنى من خارج، فيهتز عند ذلك بنفسه إلى درك كماله حتى يصير إنسانا بالفعل، أعني بالهيئة الحقيقية، لا بالصورة التخطيطية.

ولهذا قيل إن: لا أن خير من بئس الأن، يعنون بذلك أن: لا حياة خير من بئست الحياة. وعلامة "بئست الحياة" ألا يأخذ ما اتفق له من الخيرات الخارجة عن القصد الأول والكفاية حسب ما تأخذه الحيوانات الأخر، بل يسرف على نفسه بجذب ما يُستغنى عنه، ويجني على غيره بمنع ما يحتاج إليه، اتباعًا لشهواته الفاسدة والظنون الكاذبة، فيرتبك طول عمره في الآلام والحسرات. ومن ها هنا يعلم أن الكمال الطبيعي قد يستفيده الإنسان بالقهر والضرورة. فأما الكمال النطقي فليس يستفيده إلا باستحكام الدربة بالأفعال الإرادية. بل يعلم أن الأفعال الإرادية المؤدية إلى هذا الكمال أكثرها يوجد على سبيل الإلجاء. ويشبه أن يكون الإلحاء حالا متوسطة بين الطوع والضرورة. فإن الإنسان، وإن كان مختصا بالاختيار، فاختياره ليس يمتوجه أبدا نحو الصلاح والصحة، بل يفتن إلى طرفي الصحة والفساد. وأعني بهذا أنه يجري ذلك منه لطلب اللذة أو الراحة على سبيل الانجذاب إليه بالشهوة، حسب ما يجري ذلك لفائدة نطقية وعلى سبيل الحمل عليه بالغلبة، إلا أن أحدهما مستدعى إليه طبعًا، والآخر مستدعى إليه عقلا.

ولما كان النطق ينقسم قسمين: ـ وذاك أن المعاني النطقية هي كذلك، أعني أنها تنقسم إلى الموجودات التي لا يمكن وجود أوائلها بنوع آخر، وهي المعاني الضرورية كالمساوية للشيء الواحد متساوية، وإلى الموجودات التي لا يمتنع وجود أوائلها بنوع آخر، وهي المعاني الممكنات كاكتساب المال الموهوم حصوله من صناعات مختلفة، ثم كان العمل واقعا في هذا القسم حسبما كان العلم واقعا في ذاك القسم، وكان الكمال الإنسي متعلقا بمجموعهما - فكذا صارت السعادة التي هي الكمال المطلق أيضًا منقسمة قسمين: أحدهما غاية النطق العملي، وهو الكمال الإنسي، وتسمى سعادة أدنى، وحدها فعل للنفس بفضيلة كاملة خلقية، والأخرى غاية النطق النظري وهو الكمال الروحاني، ويسمى سعادة قصوى، وحدّها فعل للنفس بفضيلة كاملة حكمية. وبالكمال الإنساني، وهو الأول، سيمى الرجل متعقلا ظريفا، وبالكمال الروحاني وهو الثاني يسمى الرجل عاقلًا حكيمًا. على أن العمل لا يشرف إلا بعلم ما. غير أن علمه قد يقع من جهة التسليم للآراء المحمودة أولا، وبالتجارب والاختبارات ثانيا. على أن العلم التجربي لا يكاد يصفو إلا بالعمل الصائب، بل لا يصح له الحكم بما يباشره منه إلا باكتساب الهيئة الفاضلة بالعادات الجميلة. وذاك أن من كان ذا رذيلة واحدة لم يصلح للاختيار المحمود أصلا، لأنه يظن لأجلها أن ما ليس بأفضل هو الأفضل، أو يؤثر

النافع الجميل أو اللذيذ على الخير. فإذا كانت هذه حال ذي رذيلة واحدة، فما ظنك بالذي امتلأ بالرذائل! على أن العلم المطلق أيضًا ليس مما يصفو لأحد من غير عمل، فإن من لم يجرد سعيه لطلب الحكمة ولم يستخلص همه له، ولم يأخذ الخيرات النافعة التي يستعين بها على السلوك نحوها، ولم يتوخّ أن تكون إصابته لها على سبيل الهوى والمفاخرة، بل على سبيل الترقي نحو الفضيلة، تقسمت أوقاته كلها، وتشعبت حالاته أجمعها، ولم يكمل البحث عن واحد من مقصوداته، بل عاقه أحد الخيرات العرضية - كالمال أو الرئاسة أو اللذة أو الراحة - عن حاق الخير المحض الذي هو أولى الأمور به، أعني الإحاطة بأشرف المعلومات، والثقة بما يتيقن به منها.

أحق اللذات بالطلب الألذ منها، وليس بعرفها إلا من ذاق جميعها، ومن ذاق جميعها فقد ذاق لا محالة لذة الحكمة، وليس يذوقها غير محب الحكمة. فإذا الفائز بهذه اللذة قد تطعم جميع اللذات بفضل التجربة، وأيقن أن لذات البدن مؤدية إلى الأحزان، لا سيما عند الغلط بالإفراط أو التفريط. ولذة الترأس جالبة التحاسد وبغضة الأقران، ولا سيما عند تعذر الغلبة ووقوع الأمر بالضد، فإنها تجلب الشماتة ورغم الأصدقاء. فأما لذة الحكمة فهي صافية حقيقية مستتبعة لسائر اللذات، إذ هي بأجمعها لهذه اللذة كالظل من الشخص.

وهذه اللذة الواحدة هي اللذة الخلاصة بجوهر الإنسان بما هو إنسان؛ وأعني بهذا أن اللذات الأخر واصلة إليه لا بما هو إنسان، بل بما هو حيوان. وكل لذة لم يكن خلوصها له من حيث هو إنسان، فليس يعد العمر المصروف إليها عُمرًا مختارًا بذاته، بل هو مختار لغيره. ومن قطع عمره عن ذات نفسه فقد ماتت همته الإنسانية، وقد خلصت عيشته للخاصة الحيوانية. ومن رضي الله لنفسه بمثل هذه الحال فقد صار ظالما لها، لأنه يستفسد جوهرًا خلقه الله تعالى لأشرف الأغراض وأجلها، ويظهر من نفسه أنه ليس بمستأهل للإحسان إليها، وهذه هي الشقاوة التامة. فالسعادة إذن بالضد من هذه الحالة. فالسعيد إذًا من عرف جوهره، وعرف كماله الأخص به، وصرف سعيه إلى تحصيله، فيصبح ملتذا بجوهره، مغتبطًا بما أوتيه من فضيلة ذاته، مسعودًا بما يناله من الزلفى إلى من له الخلق والأمر والطوبى في بقاء الأبد. وليس يظفر بهذه المرتبة إلا من أيقن أنه لا راحة لمن تعجل الراحة، ولا لذة لمن انهمك في اللذة، ولا مهنأ لمن أولع بطلب الثروة، ولا عز لمن تذلل في طلب الرياسة، ولا ملك لمن كان عبدا لشهواته، ولا شرف لمن صار آلة لبطنه وفرجه؛ ولم يبلغ التمام من لم تكن سيرته على نظام.

فصل

كما أن قوام البدن بالطبيعة، وقوام الطبيعة بالنفس، وقوام النفس بالعقل - كذلك قوام المدن بالملك وقوام الملك بالشريعة، وقوام الشريعة بالحكمة لأنها تصدر عن الحكيم العليم. فمتى ظهرت الفاحشة في المدينة فارقتها الحكمة، ومتى فارقتها الحكمة خذلت الشريعة، ومتى خذلت الشريعة زالت زينة الملك، ومتى زالت زينة الملك حطت الفتنة أعلام المروءة، وعثرت بذوي النعم عواثر النقم. وقوة فكر الملك أبلغ في حراسة الملك من قوة الجند. والجهل في مبادئ الأمر يضر في عاقبتها وفي كل ما يتبعه؛ والجهل في أواخره يقتصر في مضرته على الشيء المجهول.

وقال الجاحظ: احذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل، ويسلبك الحذر باحالتك على القدر. فإن الله - عز وجل - إنما أمرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل، وبالتسليم للقضاء بعد الإعذار؛ وأنت تجد ذلك في الكتب المنزلة وسنن الرسل -عليهم السلام-.

وقال العامري: كل من امتنع عليه إبراز فعله الخاص به، فقد صار وجوده مضاهيا لعدمه. وتلك هي خساسة ذاته.

الإنسان لن يشرف بأن يصير مالكًا، بل يشرف إذا صار ملكًا. وفعل المالك حفظ القنية على صورتها، وفعل الملك حفظ مراتب القنيات على درجاتها.

إن كان الأول المحض والآخر بالذات شيئًا واحدًا - وإن اختلف الوصفان عليه بالإضافة - فبالحري أن يكون المبدأ المحض والغرض المحض أمرًا واحدًا غير مختلفين بالذات وإن اختلفا بالإضافة.

مراتب التعرف للذات بحسب المبدأ أربع مراتب: وهي أن تعرف ما هو، ومن جاء به، ومن ماذا جيء به، وكيف كان مجيؤه. فأما تعرف الذات بحسب الغاية فهو أيضا أربع مراتب: وهي أن يعرف لماذا هو، وكيف السبيل إليه، وما الذي يحتاج إليه في التوجه نحوه، وما الذي يعوقه عن بلوغه.

من سوس العقل الصريح التفرقة بين الحسن والقبيح، ثم السكون إلى الحسن، والنفور عن القبيح. إلا أن الشيء متى كان مفرطا في الحسن فإنه يبهر العقل الجزئي، فلذلك يحتاج فيه إلى التدريج إليه، ثم التمرين عليه.

لن ينتفع بسياقه الشيء إلى الكمال إذا لم يحفظ عليه، ولم ينتفع بالحفظ عليه إذا لم يصير ذاته بنفسه مستحفظًا لطباعه على أخص كماله، ولن ينتفع بمصير ذاته مستحفظا بطباعه على أخص كماله ما لم يصر آمنًا من طرآن الآفة المغيرة له عنه. ولن ينتفع بالأمن منه إذا لم يكن الأمن أبديًا على الإطلاق.

فصل

البيان باللسان يمتحن، والعقل بالتدبير يقتبس، والحزم بالعزم يختبر الصمت خير من مناوأة الجهال.

القطيعة خير من مواصلة الأشرار.

العقم خير من الولد الأحمق.

الخمول أسنى من الذكر الذميم.

العاقل المحروم أفضل من الأحمق المرزوق.

سقوط المنزلة عند السلطان السوء خير من التوجه عنده.

خشونة العيش مع الصلاح خير من لينه مع الفساد.

الفاقة خير من غنى البخيل.

الرجال أربعة: جواد، وبخيل، ومسرف، ومقتصد: فالجواد من أعطى نصيب دنياه لنصيبه من آخرته؛ والبخيل من لا يعطي واحدًا منهما نصيبهما؛ والمسرف الذي يجمعهما لدنياه؛ والمقتصد الذي يعطى كل واحد منهما نصيبه.

إذا كان العقل صحيحًا، والفهم قويًا، كان يسير التجربة له كثيرًا.

فأما قوة الأبدان فإنما جعلت قسمًا لمن لا حظ له من العقل، بمنزلة البهائم. من اشتاق إلى الجنة تسلى عن الشهوات؛ ومن أشفق من النار رجع عن الخطايا.

من زهد في الدنيا تهاون بالمصائب.

من ارتقب الموت سارع إلى الخيرات.

اليقين يتم بأربع شرائط: بتبصرة الفطنة، وتأويل الحكمة، موعظة العبرة. وسنة الأولين. فمن صبر على الفطنة تأول الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما عاش في الأولين والآخرين.

الجهاد على أربع شُعَب: على أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وصدق في المواطن، وشنآن المنافقين.

وقال بعض العلماء: يعذب الله المرءَ على الذنب بعد مقامات كثيرة من السر والعلانية: فأولها الخاطر، ثم الاهتمام، ثم نسيان مولاه، ثم قبول الوسوسة، ثم الفكر، ثم الإرادة، ثم العزم، ثم الإظهار، ثم الطلب، ثم الفعل، ثم الإصرار، ثم الطغيان، ثم التمادي - إلى أن يموت عليه. فإن تاب بعد هذه كله قبل حضور الموت، تاب الله عليه. فانظر إلى هذه المقمات: سرها وعلانيتها فإن سببها الهوى وتمكن الشيطان من مرتبة

بعد مرتبة، وهو كالسُّكر الذي يحجب العقل عن الذكر. ولا علاج له إلا مجاهدة الهوى، وترك الاستجابة لشيء من أسبابه إلا بعد الروية ومشاورة العقل والالتجاء إلى الرب -تعالى ذكره- فإذا لم يحاسب المرء نفسه في صغير ما يخطر بباله وكبيره.

ولم يفتش عن أحواله كلها، ولم يقهر هواه بعقله - كيف يسلم من خديعة عدوه الذي هو معه لا يفارقه طرفة عين، ويوسوس إليه بالشبه والأغاليط! وقال العارف في قوله - عز وجل -: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] - قال: الغيب كل ما لم يظهر لحواسك. فالله - عز وجل - غيب ووعده غيب، والآخرة غيب. وإنما سُميت هذه غيبا لأنه خفي على غير أهله حتى دق وارتفع على الحواس واتصل بعلوم أهل الحكمة من العلماء والصديقين، وانتهى إلى علوم الأنبياء - عليهم السلام - ثم اتصل علمه بالله - سبحانه وتعالى - فكان الغاية والمنتهى. وقد تفاضل العلماء فيما أعطوا من ذلك، فقال - عز وجل -: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

* * * * *

قال الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مِسْكَوَيْه:

إني لم أطمع في استيعاب جميع الحكم الجزئية. وكيف أطمع فيما لا نهاية له وإنما أطمع ويطمع العاقل في الأصول والقوانين التي تجمع الفروع وتحتوي على الجزئيات بالقوة. وقد أحكمت ذلك بقدر الطاقة في غير هذه الكتاب.

وكان غرضي في هذا التأليف ما ذكرته في أوله من إتمام كتاب "جاويدان خرد" بما يليق به من الحكم الفرس والهند والعرب والروم - الجزئيات التي ينتفع بها جمهور الناس، فيشاركون أعيانهم وخواصهم. وسيمر بك المكرّر في المعنى واللفظ؛ والقصد في ذلك أن تعلم أن عقول الأمم كلها تتوافى على طريقة واحدة. ولا تختلف باختلاف البقاع، ولا تتغير بتغير الأزمنة ولا يردها راد على الدهور والأحقاب. ويصح بذلك لقبه، أعني "جاويدان خرد". فلذلك يجب أن يقتصر على مبلغ ما أحصيته، ولا تطلب الغاية فيما لا غاية له.

تم الكتاب المسمى "جاويدان خرد"

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين والحمد لرب العالمين.

فهرس

مقدمة التحقيق	٥
ترجمة المؤلف الشيخ الإمام الحكيم ابن مِسْكَوَيْه	١٠
وصف النسخ الخطية	١٩
عملنا في الكتاب	١٩
مقدمة المصنف	٢٣
[وصية أوشهنج لولده وللملوك من خلفه]	٢٥
[آداب الفرس والهند والعرب والروم]	٣٧
آداب الفرس	٣٩
ما اخترته من آداب بُزُرْجمِهْر	٤١
ما اخترته من حكم كسرى قُباذ	٥١
جوابات كسرى قباذ ملك الروم عما سأله عنه وما أجاب به غيره من المسائل	٥١
نسخة كتاب لبرزجمهر إلى كسرى لما سأله ذلك	٥٤
حكم تؤثر عن أَنُوشروان	٥٧
حكم لبهمن الملك	٦٧
فصل من كلام حكيم آخر فارسي	٧٣
وصية أخرى للفرس	٧٨
فصل	٨٦
فصل من كلام حكيم آخر	٨٧
حكم الهند	٨٩

ومما يؤثر من حكم الهند: ٨٩
شرائط صحبة السلطان ٩٦
حكم العرب ٩٧
ومن حكم العرب: ٩٧
ما يؤثر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٠٦
من إشارات الصوفية ١١٢
ألفاظ لبعض الملوك الأدباء ١١٤
ما اخترته من وصايا لقمان لابنه ١١٨
وصية قُسّ بن سَاعِدَة لابنه ١٣٥
من كلام الحسن البصري ١٤١
ومن حكم العرب في الجاهلية ١٤٣
من كلام أَكْثَم بن صَيْفي ١٤٥
وصية لحكيم ١٥٠
أنصاف أبيات ١٥٤
في ذم الهدية ١٥٥
كلام لبعض المتصوفة ١٦٠
حكم للعرب وأمثال لها سائرة ١٦٢
أنصاف أبيات ١٦٤
أنصاف أبيات في الأمثال ١٦٦
ومن حكم الروم ١٧٣
سقراط ١٧٣

هرمس ١٧٦
ما يحكى عن هرمس ١٧٦
ما حفظ عن ديوجانس ١٧٨
بطلميوس ١٧٩
وصية أفلاطون لتميذه أرسطوطاليس ١٨٠
وصية أرسطوطاليس للإسكندر ١٨٢
وصية فيثاغورث المعروفة بـ (الذهبية) ١٨٧
ذكر قابس الأفلاطوني ١٩٠
أمر لوح وجده موضوعًا في هيكل كان منسوبًا إلى زحل فيه لغز يدل على الهدى ١٩٠
تتمة حكم الروم ٢٠٩
حكايات عن سقراط ٢١٠
آداب محكية عن الحكيم أرسطوطاليس كتبها في صحيفة وكان يعلمها الملك الإسكندر ٢١١
ومن الآداب أيضًا: ٢١٢
وصية لأفلاطون في تأديب الأحداث نقلها إسحاق بن حنين ٢١٤
حكم الإسلاميين ٢٢٣
فصل ٢٢٧
فصل ٢٢٩
آداب ابن المُقَفَّع ووصاياه ٢٣٠
كلام أبي نصر الفَارَابي في وصايا يعم نفعها ٢٤٨
خاتمة ٢٦١

من وصايا العامري وآدابه ٢٦٣
فصل ٢٧٩
فصل ٢٨١
الفهرس ٢٨٣